
تأليف
الأستاذ برنارد لويس
رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات
الأفريقية والشرقية بجامعة لندن
الغرب والشرق الأوسط
تعريب
الدكتور نبيل صبحي

تأليف
الأستاذ برنارد لويس
رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات
الأفريقية والشرقية بجامعة لندن

الغرب والشرق الأوسط

تعريب
الدكتور نبيل صبحي

مقدمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب هو حلقة في سلسلة طويلة من مؤلفات الغربيين التي تتناول شؤون العالم الإسلامي ، والقاسم المشترك الذي يجمع هذه المؤلفات هو التشويه . . . والتهجم . . . والأفكار الثابتة المسبقة . أما سبب ذلك فراجع إلى عوامل عدة منها القديم ومنها الحديث . . وكلها تستند على نظرية عداوة متأصلة بين الشرق والغرب . . . وبالتالي صراع دائم ومنافسة طويلة . بين حضارة إسلامية شرقية ومدنية مسيحية ! ! غربية ؛ ولقد كان للحروب والسياسات ، والاستعمار والتبشير . . . كان لها كلها ضلع في إذكاء وإبراز الخلافات بعد تضخيمها . . . والمبالغة فيها . وكانت النتيجة فقدان التجرد والموضوعية في كل ما يكتبه الغربيون عن الشرق . . . وقد يكون ذلك صحيحاً أحياناً في بعض ما يكتبه الشرقيون عن الغرب

إن هذا الكتاب يعطي القارئ الواعي ايحاءات جديدة تكشف عن بعض التحول في عقلية بعض الكتاب المستشرقين – أو على الأقل – في أسلوبهم ؛ ففي الكتاب حقائق كثيرة سردها الكاتب واستنتاجات متعددة وصل إليها ، تتسم بقدر كبير من الموضوعية ؛ ومن هنا كان اهتمامي بترجمة الكتاب على الرغم مما فيه من بعض الأخطاء

ـ المقصودة ! ! أو غير المقصودة ـ في تحليل بعض الحوادث التاريخية . ولا يضيرنا أن تكون للمؤلف آراء واتجاهات مخالفة لما نؤمن به في الشرق الإسلامي ، بل على العكس ، إنه ليسرنا نحن المثقفين العرب ـ أن نتعرف على آراء غيرنا في قضايانا الحادة والمزمنة ، ومشاكلنا القديمة والحديثة ، ولكن الشيء الذي نريده هو أن يكون البحث علمياً والتحليل مجرداً والإستنتاج منطقياً سليماً ؛ وفي هذا الكتاب لمحات من هذه الصفات لم يطمسها الإنحياز الظاهر في بعض جوانبه . والمؤلف على كـــل حال واحد من اثنين : إما صديق نربأ به أن يشوه الحقائق . . . أو عدو شريف لم يستطع تجاهل التاريخ . . . والفضل ما شهدت به الأعداء ! ! والكتاب يبحث حوادث حقبة زمنية وصل فيها الشرق الإسلامي إلى مفترق الطرق وهي مرحلة من أهم مراحل التاريخ الحديث . . . حاضراً ومستقبلاً

وإذا كان لي ما أنصح به في هذا المجال فهو أن أشير على شبابنا المثقف بقراءتـــه والإستفادة منه ففيه اعترافات مثيرة وفيه كشف لحقائق كانت مستورة إلى الأمس القريب .

وأحب أن أذكر الأخ القارئ بأنني ترجمت هذا الكتاب . . . ولم أعلق عليه ، أما الملاحظات القليلة في حواشيه فلم يكن هنالك بد من ذكرها في أضيق الحدود كتعليقات عابرة . . . واجبة . . . على بعض آراء المؤلف .

لاغوس ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ المعرب

مُقدمَة المؤلف

يضم هذا الكتاب النصوص الكاملة لست محاضرات عامة ألقيت في جامعة (إنديانا) في « بلوفنكتن » بالولايات المتحدة مـــا بين ١٩ آذار (مارس) ـــ ٢٣ نيسان (ابريل) من عـــام ١٩٦٣ . وموضوع المحاضرات هو العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط ـــ تأثير أعمال الغرب ومدنيته على الشعوب الإسلامية وعلى مجتمعات الشرق الأوسط ، وردة فعل الشرق الأوسط . . . في أدوارها المتعاقبة . ـــ

ولقد حاولت في الفصل الأول أن أعرف الشرق الأوسط كوحدة تاريخية وجغرافية وثقافية ؛ وفي الفصل الثاني عرضت ماذا يعني الغرب ، ومـــاذا عنى بالماضي ، بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط وحاولت تتبع عمليات التغلغل الغربي ونفوذ الغرب وسيطرته وانسحابه . . . الجزئي من هذه البقعة من العالم .

أما الفصول الثلاثة التالية فتبحث في الحركات السياسية والفكرية في الشرق الأوسط في العصر الحديث مقسمة إلى ثلاثة عناوين رئيسية الحركات الليبرالية والإشتراكية

الحركات الوطنية والقومية

الحركات الإسلامية

ويحلل الفصل الأخير مكانة ودور دول الشرق الأوسط في القضايا العالمية ، ويُختم البحث بتقدير بعض العوامل التي تؤثر على سياسة الغرب بالنسبة لهذه الدول .

وأريد أن أسجل شكري لجامعة إنديانا التي أتاحت لي فرصة عرض وجهة نظري . . . في هذا الموضوع ، ولزملائي الأساتذة والطلاب في (بلومنكتن) لكرم ضيافتهم طوال الأسابيع الستة التي قضيتها بينهم . وأقدم شكري أيضاً للزميلين الدكتورين : س. أ . أ . رزقي ، و م . إ . ياب ، للملاحظات القيمة التي أبدياها ، وللأستاذين أ . ت هاتّو والسيد إ. كيدوري لقراءتهما ومراجعتهما ونقدهما للمحاضرات وأود أن أؤكد أنهم ليسوا مسؤولين — على كل حال — عن أي نقص قد يظهر في الكتاب .

وأخيراً ، أشكر البروفيسور : و . كانتول سميث ، والمكتبة الأميركية الجديدة للمنشورات العالمية للسماح بنقل بعض المقاطع من منشوراتهم ، وكذلك (سيمون وشوستر) لسماحه لي بنقل مقطع من كتاب (مهمتي في اسرائيل) لمؤلفه جيمس . ج . ماكدونالد .

— كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن —

حزيران ١٩٦٣ — برنارد لويس

الفصل الأول

معالم الصورة التاريخية

« الشرق الأوسط » تعبير ظهر للمرة الأولى سنة ـ١٩٠٢ حين أطلقه المؤرخ البحري الأمريكي ألفرد ثاير ماهان ليدل به على المنطقة الواقعة بين الهند وشبه جزيرة العرب والخليج الفارسي مركزها ، من وجهة النظر الستراتيجية البحرية ؛ ولقد تبنت بعد ذلك جريدة التايمز اللندنية هذا التعبير وتبعتها بعد قليل الحكومة البريطانية ؛ وهكذا شاع استعمال هذا التعبير ، مع التعبير الآخر الذي سبقه بقليل وهو « الشرق الأدنى » ؛ وكلا التعبيرين حديثان ولكنهما ليسا عصريين فكلاهما من مخلفات عالم تحتل أوربا الغربية وسطه مستقطبة المناطق الأخرى حولها ، وعلى الرغم من أن أصل هذين التعبيرين قد بطل استعماله ، وعلى الرغم من ضيق النظرة التي يوحيان بها فقد حظيا ، خصوصاً تعبير « الشرق الأوسط » بقبول عالمي ، وهما يستعملان الآن للدلالة على تلك المنطقة ، من قبل الروس والإفريقيين والهنود الذين يشكلون على التوالي حدوده الشمالية والجنوبية والشرقية ؛ وأغرب من هذا كله أن تستعمل شعوب الشرق الأوسط نفسها هذا

التعبير . ولقد وُجد هذا التعبير مفيداً إلى درجة أن المنطقة التي يدل عليها ، بل والمنطقة التي استعمل فيها أخذت تتسع اتساعاً كبيراً ، فمن شواطئ الخليج الفارسي ، أصلاً ، امتدت إلى منطقة تقع بين البحر الأسود شمالاً وإفريقيا الإستوائية جنوباً ، وما بين شبه القارة الهندية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً .

والواقع الذي يلفت النظر هو أن تُعرّف هـذه المنطقة العريقة الحضارة — أقدم حضارات العالم — أن تُعرّفها — حتى بين أبنائها — بتعابير حديثة باهتة ! غير أن ايجاد بديل مناسب لهذين التعبيرين ليس أمراً سهلاً أبداً ، فلقد قامت محاولة في الهند لاستبدال تعبير « الشرق الأوسط » الغربي الأصل ، بتسمية المنطقة « آسيا الغربية » وهذا التعبير الجغرافي الجديد أدق شكلاً ولوناً من تعبير « الشرق الأوسط » ولكنه ليس أفضل منه بكثير . فتسمية المنطقة بجزء غربي من وحدة كلية هي آسيا أمر لا يقل تضليلاً عن تسمية المنطقة « شرقاً أوسط » لوحدة كلية غير محددة المعالم ، ثم إنه ليس من المناسب أن يطلق على المنطقة تعبير تستبعد منها ، شكلاً ، مصر .

أما لماذا حظي هذان التعبيران « الشرق الأدنى » « والشرق الأوسط بانتشار سريع وبقبول عالمي فأمر يجب التفتيش عن أسبابه من خلال الحقائق التالية :

إن هذه المنطقة بالنسبة للأوربيين هي منذ أكثر من ألف سنة « الشرق » . . . الشرق الأصلي التقليدي القديم الذي كان الجار والمنافس لأوربا اليونانية — الرومانية — ومن ثم لاوربا المسيحية منذ أيام قيام جيوش أحد كبار الأكاسرة الفرس باحتلال أراضي اليونان إلى أيام انسحاب مؤخرة جيوش السلاطين العثمانيين . وحتى

أواخر القرن التاسع عشر كانت البلاد الواقعة في جنوبي غربي آسيا وشمال شرقي إفريقيا هي بالنسبة للأوربيين « الشرق » دون حاجة لتحديد أدق ؛ والأمر الذي كان يشغل بال الأوربيين هو « المسألة الشرقية » ؛ فعندما تدخلت اوربا تدخلاً مباشراً بمشاكل الشرق الواسع البعيد وجدت نفسها بحاجة إلى تعبير يحدد مناطق الشرق بأسلوب أكثر دقة وواقعية . ومنذ أصبح الشرق الأقصى موضوعاً يتداول في المجالس الأوربية ظهرت الحاجة إلى تعبير يطلق على مناطق الشرق الأكثر قرباً لأوربا من مناطق الشرق البعيدة ، وهكذا بدأ استعمال تعبير الشرق الأدنى في أواخر القرن التاسع عشر ليدل على المناطق الواقعة جنوب شرقي أوربا والتي كانت لا تزال تحت سيطرة الحكم التركي، فلقد كانت « أدنى » . . . أي أقرب لأنها كانت على كل حال أوربية ومسيحية ، ولقد كانت « شرقاً » لأنها كانت لاتزال تحت حكم الإمبراطورية العثمانية — الإمبراطورية الشرقية المسلمة — ولقد استعمل الأميركيون بخاصة تعبير الشرق الأدنى لفترة ما ليدللوا به على مناطق أخرى أكثر امتداداً نحو الشرق حيث تشمل اكثر أراضي الإمبراطورية العثمانية في اوربا وآسيا وإفريقيا . أما الإنكليز فبعد أن عرفوا — على مايظهر — أن الشرق الأدنى ليس (دانياً) كما كانوا يظنون أولاً أهملوا هذا التعبير واستعاضوا عنه بالتعبير الذي شاع وعم : « الشرق الأوسط » ليدللوا به على مناطق واسعة من جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا . ولا يزال حتى الآن — تباين كبير في استعمال هذا التعبير ودلالاته . وعلى الرغم من حداثة استعماله واستمرار الإلتباس بالنسبة لموقعه الدقيق ، فإن تعبير

(الشرق الأوسط) يدل على منطقة ذات هوية وصفات لا يمكن تجاهلها ، وذات شخصية مميزة شائعة ساعد على تشكيلها ملامح جغرافية واضحة قوية وتاريخ مشهور طويل .

والصفة الجغرافية البارزة للشرق الأوسط هي الأراضي القاحلة الشاسعة الواسعة في جميع أطرافه ؛ فالمطر نادر والمناطق الحراجية قليلة ، وإذا استثنينا بعض البقاع المحظوظة نرى أن الزراعة بصورة عامة تعيش على السقاية طوال العام ، وتحتاج إلى حماية دائمة ضد العوارض الطبيعية والبشرية . فمعظم شبه الجزيرة العربية مكون من الصحاري ، ما عدا الزاوية الجنوبية الشرقية ، والزاوية الجنوبية الغربية ، أما الهلال الخصيب فليس إلا إطاراً ضيقاً من الأرض المروية الصالحة للزراعة على حدود شبه جزيرة العرب الشمالية . ومصر أيضاً هي . . . صحراء في غالبيتها ماعدا البقعة الخضراء حول النيل التي تنتهي بالدلتا على شاطئ المتوسط ؛ والقسم الأكبر من شمالي افريقيا لا يزال حتى الآن مجدباً ، فيما عدا الحزام الساحلي وبعض الواحات . أما في تركيا وايران فكثير من الهضاب الواقعة في أواسط البلاد تتشكل من صحارى وسهول والى الشمال منها تقع السهول الواسعة لآسيا الصغرى وبعض الصحارى كالربع الخالي في الجزيرة العربية والصحراء الغربية لمصر هي صحارى جرداء قاحلة كلية ؛ ويقيم في بعض الصحارى الأخرى عدد قليل من الرعاة البدو ذي التاريخ المهم المشهور ، يستفيدون من حيواناتهم في المواصلات ومن لحومها للغذاء ، وهؤلاء البدو يشاركون بطرق مختلفة ،

في استغلال الطرق الصحراوية للتجارة . وفي هذا العصر الحديث بدأ الرعاة يفقدون كثيراً من أسباب وجودهم المعيشية (فاللوري) والسيارة حلتا محل الجياد والجمال ، وليس باستطاعةالرعاة أن (يربوا) هذا النوع من(المركوبات) ؛ قد يستطيعون تغذية هذا النوع الجديد من (المركوبات) وفي بعض المناطق تمونهم الطبيعة ، وتمون جيرانهم بكميات كبيرة من (علف) هذه المركوبات واستغلال هذه المنابع البترولية يولد تغييرات اجتماعية واقتصادية لا حدود لعمقها وأبعادها .

وبين الرعاة والمزارعين عداء مستحكم قديم ، وأقدم تاريخ مسجل لهذا التناقض بينهم موجود في بعض مقاطع الجزء الرابع من سفر التكوين الذي يروي قصة الخصومة بين « هابيل » الراعي و « قابيل » المزارع والإنجيل يذكر أن (قابيل) قتل (هابيل) ، أما في تاريخ الشرق الأوسط فقد كان الأمر على العكس إذ كان الرعاة هم الذين يقتلون المزارعين ويبنون حكمهم على أشلائهم . ولقد كانت دائماً سياسة حفظ الحدود الصحراوية وإشاعة الأمن في المسالك الصحراوية التجارية من المشاكل الهامة التي تشغل بال أية حكومة سواء كانت الحكومة وطنية أو حكومةمستعمرة .ولقدكان الأنسب لتلك الحكومات أن تحل مشكلة الصحراء بطريقة غير مباشرة ، وذلك بايجـاد نوع من المناطق التي يسيطر عليهـا البدو الرحل ، أو البدو الذين يعيشون حول الواحات ،وتدعم الحكومات هذا الحكم المحلي وتعترف به في مقابل تأمين التسهيلات للقوافل التجارية ، والتأييد السياسي والعسكري عندما يطلب ذلك من هؤلاء البدو . ولنذكر مثلاً واحداً من الأمثلة الكثيرة في هذا الموضوع :

فالبيزنطيون وأهل فارس كانوا يمثلون قوتين عالميتين تقابل إحداهما الأخرى على أرض الشرق الأوسط في القرن السادس الميلادي وكانت الدولتان تتخذان المناطق العربية كبلاد (معدّلة) بينهما ، وكانتا تتسابقان في منح الهدايا الذهبية والأسلحة والألقاب لأمراء تلك المناطق العربية ، وكثيراً ما كانتا تدعوان الأمراء العرب لزيارة عاصمتي الإمبراطوريتين زيادة في الرعاية والتكريم لتأمنا جانبهم ؛ وكانت هذه الطريقة أرخص وأسهل وأكثر فاعلية من محاولة اقتحام هذه البلاد الصحراوية والسيطرة عليها مباشرة . ولم تنقص هذه المعاملة من قدر البلاد العربية ولا من إمكاناتها ، وأنصع دليل على ما نقول هو خروج العرب من صحرائهم في القرن السابع الميلادي واجتياحهم لهاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين معاً .

وكان الغزو المنطلق من الصحراء أمراً يتردد (كاللازمة) في أنشودة التاريخ للشرق الأوسط وكانت أمواج الاحتلال والهجرة والنزوح والإستيطان تتفجر من البوادي لتستقر في الأراضي الزراعية المجاورة فالآكاديون والكنعانيون والآراميون والإسرائيليون القدماء كانوا كلهم من الشعوب السامية التي نزحت من القفار والبوادي العربية باتجاه الشمال . ونزح آخرون جنوباً من شمال وشرق وأواسط آسيا

والإنطلاقة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي كانت آخر وأكبر هذه الموجات السامية التي افتتحت عهد المدنية الإسلامية الذي قام في القرون الوسطى ؛ أما أكبر موجة اجتاحت الشرق الأوسط من السهول الشمالية لآسيا الصغرى فكانت الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي ، والتي أنهت هذه الحضارة العربية الإسلامية

كما يعتقد بعض المؤرخين ؛ ولا شك أن التأثير المباشر لهـذا الغزو المغولي على الحضارة العربية كان كبيراً . أما النتائج التي تلت ذلك فقد بولغ في تضخيمها على ما أعتقد . ولقد مرت فترة كان ينظر فيها إلى الوحشية المغولية على أنها السبب الأساسي في انهيار الحضارة الإسلامية ، بل كانت تعد هذه الوحشية سبب عصور الإنحطاط التي أصابت الشرق الأوسط وأهله ما بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع عشر . ولقد أهملت هذه النظرية تماماً الآن ، إلا في بعض الدوائر العاطفية والدوائر التي تحاول ايجاد أسباب خارجة عن محيطها لتبرير عصور الإنحطاط. فتوافر المعلومات الدقيقة عن التاريخ الإسلامي من جهة ، والتجارب القريبة التي مرت في الوحشية والتخريب من جهة أخرى ، أظهرت أن الضرر الذي سببه المغول لم يكن كبيراً ومستمراً للدرجة التي تراءت لمؤرخي بعض العصور البريئة ، بالقياس إلى عصرنا الحاضر.ولم تهدم هذه الوحشية الحضارة الإسلامية التي كانت آنذاك بثوبها الفارسي ، إذ ازدهرت من جديد تحت حكم المغول .

إن الحضارة الإسلامية لم تتهدم ولكنها ولا شك قد تبدلت بقدوم شعوب آسيا الصغرى ، فلقد بدأت هجرة هؤلاء إلى الشرق الأوسط قبل الغزو المغولي في القرن العاشر الميلادي عندما عدت القبائل التركية القادمة من آسيا الوسطى السهول وبدأت سيرها الزاحف باتجاه الغرب وانتهت هذه الهجرات التركية بعد موت (تيمورلنك) آخر كبار الغزاة سنة (١٤٠٥) ؛ وفي خلال هذه القرون الأربعة من الغزو

والسيطرة القادمة من أواسط آسيا كان هناك تغيير كلي في طرق المعيشة وأساليب الحكم .

وبعد هذا التاريخ لم تحدث أية غزوة أخرى . . .لا من الصحراء في الجنوب ، ولا من سهول آسيا الوسطى في الشمال أو الشمال الشرقي . ولقد حاول الوهابيون في القرن الثامن عشر التحرك من شبه جزيرة العرب مدفوعين بحماس ديني جديد وميل جديد للتوسع وجربوا مجاراة أسلافهم في براعتهم الحربية فساروا باتجاه سورية والعراق ولكنهم أوقفوا عند أطراف الصحراء ثم تراجعوا مدحورين ونجحت الإمبراطورية العثمانية ، وهي في أواخر مراحل شيخوختها في صدهم بسهولة ، بينما فشلت الإمبراطوريتان العملاقتان فارس والروم في صد الغزو العربي الإسلامي الأول . والسبب هو تفوق الإمبراطورية العثمانية تكنيكياً وبشرياً بالنسبة لقوى الوهابيين ، أما الجيوش الفارسية والرومية فقد واجهت أهل الصحراء الغزاة بأسلحة أحسن بقليل ، إن لم تكن موازية لأسلحة الجيوش الإسلامية(١) فالعثمانيون أوقفوا زحف الوهابيين المسلمين بالسيوف بواسطة البنادق والمدافع .

وتتخلل الصحراء بعض الأنهار التي تصلح لري الأراضي ، وهناك بلدان مهمان في الشرق الأوسط يقفان على بعض هذه الأنهر وهما مصر والعراق . وكلا البلدين كانا موطن أقدم الحضارات في

---

(١) لم يذكر المؤلف التفوق البشري العددي لجيوش فارس والروم بالنسبة للفئة العربية المسلمة القليلة (المترجم) .

المنطقة وربما . . . في العالم كله . وكلا البلدين يعيشان على اقتصاد زراعي يستند إلى طرق الري الصناعي المتقنة باستعمال مياه الفيضانات وتشغيل عدد كبير من العمال الزراعيين والفنيين المهرة تحت رقابة سلطة إدارية مركزية . وهذه الحاجة هي التي دعت إلى تطور نظام امتلاك الأراضي ، وهي التي شجعت قيام حكومات مركزية قوية بيروقراطية وفردية في بعض الأوقات، مع قيام تقاليد تناسبها في الفكر والسلوك السياسي .

ومنذ ألف عام إلى الآن مثلت هاتان الدولتان مصر والعراق – مراكز القوى المتنافسة وكان طابعها الفكري والتنظيمي ذا أثر عميق على البلاد المجاورة ؛ وكانت هذه المراكز في مصر والعراق منطلق الحضارات الأولى التي انتشرت في الشرق الأوسط في التاريخ القديم .

وبعد خسوف طويل دام من عهد (سيروس) إلى عهد (محمد ﷺ) ، عادت هذه المراكز في مصر والعراق إلى دورها الأول ، وكان منها إشعاع الحضارة الإسلامية بعد أن نمت فيها وترعرعت حتى بلغت أوجها العظيم . ومنذ القرون الوسطى كانت مصر تتقدم العرق انظراً لتفوقها في عدد السكان ، وفي غنى مصادر الثروة ، إلا أن الثروة النفطية التي في العراق كانت تحجب أحياناً الفرق بين البلدين .

لم تكن مصر والعراق دائماً البلدين السيدين المتنافسين في الشرق الأوسط ، فلقد كانت هناك « مراكز » أخرى للقوة والنفوذ وكانت مهداً لإمبراطوريات حكمت لمدة طويلة البلاد القديمة في المنطقة .

ففي الشمال والشرق من السهول والوديان التي تشكل الهلال الخصيب تقع هضاب فارس والأناضول متميزة عن أراضي الهلال جغرافياً وبشرياً . . . وحتى طوبوغرافياً ، بالإضافة للتقاليد والمواريث الحضارية والتجارب السياسية . ولقد كان لحضارة الهلال الخصيب السامية تأثير عميق على هذه المناطق في عهد تاريخها القديم وفي عهد الإزدهار الإسلامي .

وعلى الرغم من أن هذه المناطق عاشت تقلبات كثيرة عرقية ولغوية وطبقت واستعملت حروفاً سامية كثيرة ، إلا أنها لم تعتمد أبداً « لغة سامية » ، وأهل فارس في الشرق ، والحثيون واليونان والأتراك في الشمال كانوا محدودين جغرافياً بحدودهم العرقية المطابقة إلى حد كبير ولقد استعاد العثمانيون والصفويون في القرن السادس عشر صورة الصراع بين البيزنطيين والغسانيين في القرن السادس وأثاروا أكثر الذكريات قدماً وتاريخاً .

واليوم تشكل الهضبات الشمالية الشرقية دولتي تركيا وايران حيث تقطن هاتين الدولتين شعوب مسلمة لم تشارك العرب لغتهم ولا تاريخهم الحديث . . . من الإحتلال إلى الإستقلال ، والخط الذي يفصل العرب عن غيرهم هو خط قديم ، والحدود الجغرافية المختلفة بين السفوح والجبال هي حقيقة أقدم .

وما بين جبال طوروس وصحراء سيناء شمالاً وجنوباً ، وما بين الصحراء والبحر المتوسط شرقاً وغرباً تقع الدول الحديثة الأربع سورية ولبنان والأردن واسرائيل ! ! ! (١) ولقد كان الروم يسمون تلك المنطقة سورية وفلسطين وكان العرب يسمونها « بلاد الشام »، أما التجار الأوربيون فكانوا يطلقون عليها اسم (المشرق). وتختلف الأراضي المتقطعة لهذه المنطقة اختلافاً بارزاً عـن الوديان والهضاب التي كانت مهداً للإمبراطوريات المجاورة، وانعكس هذا الإختلاف الطوبوغرافي على الوضع الحضاري والسياسي للمنطقتين فلم تظهر دولة قوية في سورية إلا في فترة « مغيب » الدول القوية الأخرى في المنطقة ؛ وفي أغلب الأحيان كانت سورية مجموعة من الولايات « الموزاييك « التي » تشكل «هدفاً »و« مسرحاً » في نفس الوقت للقوى المجاورة المتصارعة . وعندما كان يقوم في مصر حكم قوي كانت أولى طرق الحكم للتوسع هي احتلال فلسطين وسورية وهذا ما فعله « تحتمس » الفرعوني و « بطليموس » و » بومبي » وابن طولون والفاطميون والمماليك ونابليون ومحمد علي والإنكليز.

ومصر شديدة الحساسية بالنسبة لحدودها ولذلك كانت الحكومات المصرية المتعاقبة تحاول دائماً إبقاء جسر لها على أقصى حدود سيناء وفي الأيام التي لم يكن في مصر حكم قوي كان غزو « المشرق » يأتي عن طريق الشرق كما فعل الآشوريون والفارسيون والعباسيون أو يأتي عن طريق الشمال كما فعل الحثيون والبيزنطيون والعثمانيون أو عن طريق البحر من الغرب .

والصورة الجغرافية الغالبة في هذه المنطقة هي سلاسل الجبال التي

تقع في أواسط المنطقة . فهناك سلسلة غربية تتشكل من جبال لبنان التي تمتد شمالاً وجنوباً ، وسلسلة شرقية موازية لها تقسم البلاد السوريـــة إلى سفوح غربية مقابلة للبحر المتوسط وأوربا وسفوح شرقية تواجه الصحراء ومن ورائها آسيا . والتمييز بين هذه السفوح أمر قديم كانت تؤكده من وقت لآخر موجات الغزو والمتعاقبة من الشرق والغرب فالفلسطينيون والفينيقيون كانوا من الشعوب التي تقطن السواحل ، ولقد جاء الفلسطينيون من الغرب ، والفينيقيون كانوا على الشاطىء المواجه للغرب ، أما بنو اسرائيل القدماء فقد كانوا يمثلون شعوب الصحراء والهضاب الشرقية ، وقد أوْقَفوا ثم دحروا الفلسطينيين الغزاة ؛ وكذلك الحضارتان اليونانية والرومانية فقد ازدهرتا في البلاد الساحلية وذبلتا في الداخل .

كانت (انطاكية) تمثـــل حاضرة يونانية دينية وكانت بلدة (بيريتوس ـــ أي ـــ بيروت) الساحلية تضم مدرسة مرموقة تدرّس التشريع الروماني وكانت تسمى (الجامعة الرومانية في بيروت) .

ولم تثبت حضارة الداخل وجودها في البلاد الساحلية إلا مرات قليلة تمكنت بها أن تغلب النفوذ (الهيليني) المنكسر ، ومن أمثلة هذه الغلبة كان عهد « الماكابيين » في أرض الميعاد أي (فلسطين) ثم جاء العرب ليؤكدوا مرة أخرى زعامة وسيادة الشرق ، وأصبحت دمشق إلى مدة غير طويلة عاصمة الإمبراطورية . وعندما زحـــف الصليبيون من انطاكية جنوباً حتى مدينة غزة أعادوا لفترة ما السيطرة الغربية الأوربية على بلاد المشرق الساحلية ولكنهم لم يتمكنوا من

التغلغل إلى داخل البلاد ، فلقد امتنعت عليهم دائماً حلب ودمشق ، ولقد استطاعوا احتلال القدس التي كانت الهدف الرئيسي ، مدة قصيرة من الزمن . وإلى يومنا هذا هنالك تمييز بين الساحل والداخل وهذا الفرق يظهر بالمقارنة بين دمشق وبيروت ، أو بالمقارنة بين عمان وتل أبيب (! !) مع اعترافنا بأن نوعية الإختلافات بين هاتين المدينتين الأخيرتين لاتشبه نوع الفروق الكائنة بين دمشق وبيروت. وإذا عدنا إلى مئة وخمسين عاماً خلت، عندما كان علم التاريخ المصري لا يزال يحبو خطواته الأولى في ذلك الوقت كانت المعلومات عن تاريخ الشرق الأوسط القديم أي قبل غزو الإسكندر المكدوني كانت تستقى من التوراة ومن كتابات اليونانيين .

لقد بقي مصريون في مصر . . . وفارسيون في بلاد فارس . . . وأحفاد الشعوب القديمة في البلاد المجاورة أما الدول القديمة والأديان القديمة والحضارات القديمة فقد ماتت . . . ودُفنت وأهملت لغاتها القديمة ثم نسيت أما أسرارها الموجودة في المخطوطات القديمة فلم تكتشف لعدم وجود أحد قادر على فك رموزها .

بقي فقط شعبان من هذه الشعوب القديمة النشيطة التي كان لها شأن في تاريخ الشرق الأوسط القديم . لقـــد بقيا ، وحافظا على هويتيهما وذكرياتهما ، وهما اليونانيون وبنو اسرائيل ، وبقيت لهما اللغة اليونانية واللغة العبرية ، بقيت هاتان اللغتان القديمتان حيتين وحافظتا على مؤلفاتهما الدينية والأدبية التي أصبحت فيما بعد تراثاً عاماً لجميع البشرية وفي هذه الآثار جمعت كل الذكريات الحية عن تاريخ الشرق الأوسط القديم . ثم جاء المسلمون فلم يعرفوا عن

التاريخ القديم أكثر مما كتب في آثار اليونان واليهود بالإضافة إلى بعض الأساطير الغامضة الأصل .

لذلك فإن إعادة اكتشاف الشرق الأوسط القديم كان كلية على أيدي الباحثين الأوربيين ، فعلماء الآثار وجدوا مراجع المعلومات ، وعلماء فلسفة اللغات فكوا رموزها وترجموها ، وعلماء التاريخ محّصوا هذه المعلومات وقيموها واستفادوا منها .

والخطوة التالية كانت ظهور حواريين من الشرق الأوسط لهؤلاء العلماء الأوربيين ، وبذلك ساعدوا على تعميق أبعاد هذه الدراسات وزادوا في المعلومات التاريخية لشعوب هذه المنطقة التي كانت تعتبر أن تاريخ الشرق الأوسط بدأ فعلاً منذ بعثة محمد ﷺ فقط[١] .

كان الشرق الأوسط مهبط الديانات الكبرى الثلاث ولا زالت هذه الديانات الثلاث تعيش بين ظهرانيه مع سيادة إحداهما فيه. ومنذ ثلاثة عشر قرناً ونصف والشرق الأوسط هو أرض الإسلام وهو يمثل قلب العالم الإسلامي جغرافياً وفكرياً وروحياً . ففيه ولد ايمان المسلمين وعلى أرضه صيغت للمرة الأولى الحضارة الإسلامية . والإسلام كعقيدة وايمان يتعدى حدود الشرق الأوسط ، فهناك في آسيا وافريقيا شعوب مسلمة كثيرة بعضها يتجاوز تعداده وحده تعداد مسلمي الشرق الأوسط مجتمعين. غير أن المسلمين الآسيويين والأفارقة يتطلعون في توجيههم وقيادتهم لمسلمي الشرق الأوسط وصلة هؤلاء

---

(١) يؤكد المؤلف دور اليهودية العالمية والاستعمار وربيبته التبشير في محاولاتهم اليائسة للتقليل من شأن الإسلام وأثره في الشرق الأوسط .

بأولئك تشبه إلى حد ما صلة بلاد ما وراء البحار بأوربا . وفي الشرق الأوسط تسلسلت الأحداث الإسلامية الكبرى التي شكلت تراثاً تاريخياً مشتركاً لجميع المسلمين في سائر أنحاء العالم ، وحددت معالم هويتهم العلمية المعتبرة . وفي الشرق الأوسط سكبت القوالب الأساسية للشخصية الإسلامية ثم قامت الخلافة والسلطنات والإمبراطوريات الإسلامية في القرون الوسطى وسادت في غالبيتها على أرض يتكلم سكانها العربية والفارسية والتركية .

ومنذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي سيطرت هذه اللغات الثلاث في المنطقة وحلت محل اللغات القديمة التي كانت واسطة التفاهم والثقافة كاللغات الإغريقية والقبطية والسورية وأبادتها تماماً ،أو على الأقل حصرتها في مجال الطقوس الدينية والتراتيل المعبدية أو حجرتها وجمدتها . واللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية غير متشابهة ، وهي تمت لألسنة ليس بينها قرابة فاللغة العربية هي لغة سامية مثل العبرية والسورية ، أما الفارسية فهي هندية ـ اوربية لها صلة بالسنسكريتية من جهةوبأكثر اللغاتالأوربية من جهة أخرى أما اللغة التركية فهي تنتمي لمجموعة أخرى وهي اللغات (التركية ـ التترية) التي تعم آسيا الوسطى حتى الشرق الأقصى شرقاً ، والقطب شمالاً ؛ وعلى الرغم من اختلاف اللغات الثلاث (العربية والفارسية والتركية) من الوجهة التركيبية فإنها متقاربة جداً من الوجهة الثقافية والحضارية ؛ فهناك مجموعة ضخمة من التعابير العربية مستعملة في اللغة الفارسية ، وكثير من الكلمات العربية والفارسية مستعملة في

اللغة التركية . ولقد استعانت اللغة الفارسية والتركية باللغة العربية كما استعانت اللغات الأوربية باللغتين اليونانية واللاتينية ، ولقد اعتمدت التركية والفارسية على اللغة العربية في أخذ تعابير جاهزة لمعان موجودة وفي استنباط كلمات جديدة لأشياء مستحدثة . كذلك اللغات الأوربية ، فكلمتا (ميتافيزيك) و (تيليغراف) هما كلمتان انكليزيتان مشتقتان من اليونانية تماماً كبعض الكلمات التركية المشتقة من المفردات العربية .

وشعوب هذه اللغات الشرقية الثلاث (العربية والفارسية والتركية) ظهرت على التوالي على مسرح الشرق الأوسط ممثلة الدور الرئيسي في الأحداث . وأول هذه الشعوب كان العرب ، ففي مطلع القرن السابع الميلادي كان العرب في شبه الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد على حدودها أما الدول الكثيرة الموجودة الآن في جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا والتي تسمى الآن عربية فقد كانت تقطنها مجموعة من الشعوب أكثرها مسيحي المذهب ، وبعضها ، وليس كلها ، سامي اللغة . لقد كانت تتكلم لهجات مختلفة كالآرامية في الهلال الخصيب والقبطية في مصر ، والبربرية في شمال افريقيا ، بالإضافة إلى اللغة اليونانية في الشرق واللغة اللاتينية في الغرب اللغتين اللتين كانتا تستعملان في مجالات الحكم والتجارة والثقافة .

ونتيجة للغزوات المتكررة وموجات الفتوحات الإسلامية المتعاقبة التي تلت ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، انضمت هذه

البلاد (أي في شمال افريقيا وجنوب غربي آسيا) إلى الإمبراطورية (!) الحديثة الواسعة الأطراف التي امتدت من الأطلس وجبال البيرينيه في الغرب حتى حدود الهند والصين في الشرق . ولقد بقي العرب الفاتحون لعدة قرون يحكمون هذه الإمبراطورية إذ شكلوا طبقة حاكمة لهذه الدولة الشاسعة الواسعة ؛ وكانت عقيدتهم التي حملوها ، ولغتهم التي نشروها ، وهي لغة قرآنهم ، هي الإساس والوسيلة لحضارتهم الفنية الحديثة ، والتي أسهم في بنائها أناس من شعوب متعددة ، ولكنها كانت تنشر باللغة العربية وتُسكب في إطار الأفكار الإسلامية وتوزن بالمعايير الإسلامية .

ومع الزمن أُجبر العرب على مشاركة غيرهم في الحكم ، بل على التخلي كلياً عنه وتركوا المجال لطبقة من الموظفين المدنيين والعسكريين من أصل غير عربي ؛ غير أن اللغة العربية بقيت على قوتها في المجال الثقافي إلى مدة طويلة لم يكن للعرب فيها شأن وسلطان في الحكم .

ومن حدود فارس والعراق عبر الهلال الخصيب حتى شمال افريقيا بلغت اللغة العربية المكانة الأولى بعد أن أزاحت اللغات الرسمية السابقة وأصبحت اللغة العامة لجميع هذه البلاد . . . وبقيت كذلك حتى اليوم مع بعض الإستثناءات هنا وهناك .

ولقد نجح العرب الفاتحون في البلاد الواقعة شرقي ايران والعراق بفرض عقيدتهم وقرآنهم وفرضوا لمدة معينة لغتهم الأدبية والعلمية

غير أنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا لغتهم للإستعمال الشعبي اليومي ولا أن يفرضوا هويتهم القومية (!) .

لقد أسلم الفرس وبدأوا يكتبون بالعربية ، والحقيقة أنهم أسهموا إسهاماً جليلاً في إغناء الآداب الإسلامية المكتوبة باللغة العربية ؛ ولكنهم بقوا فرساً يختلفون عن العرب لغة ومشاعر ، ولقد كانوا مثل غيرهم من شعوب البلاد التي فتحها الإسلام ، إذ كان لهم لغة وآداب قديمة ، واختلفوا مع غيرهم من شعوب تلك البلاد ، إذ بقيت لهم ذكريـــات حديثة العهد عن الاستقلال وعن عظمة الإمبراطورية الفارسية السابقة ، وبقيت لهم خبرة عملية من تجاربهم الماضية في إدارة شؤون الدولة ، والتي أكسبتهم بسرعة دوراً بارزاً في الحكومات العربية ؛ وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عاد الفرس إلى المسرح السياسي وظهرت دول فارسية مستقلة ، وحلت محل ما كان يسمى بالولايات الإسلامية التي كانت تشكل جزءاً من الإمبراطورية العربية ، وظهرت نهضة أدبية إسلامية باللغة الفارسية وكانت غنية قيمة ، تناسبت وأذواق المحافل الفارسية ، وعكست وعياً ذاتياً حديثاً للفرس تميز كوحدة ثقافية بارزة ضمن إطار الإسلام ، وكانت تمثل الطليعة في عدة مجالات وحقول حضارية . ومنذ القرن العاشر بدأ الفرس المسلمون يحلون مكان العرب في توسدهم المجالس الأدبية والمحافل الفكرية خارج الرقعة العربية من بلاد الإسلام ، ولم تعد اللغة العربية عالمية مسيطرة في الأوساط الثقافية الإسلامية كما كانت اللاتينية بالنسبة لأوربا القرون الوسطى .فلقد انحصرت اللغة العربية ، باستثناء الأمور الدينية والشرعية ، في البلاد التي سميت

بعد قرون بلاداً عربية وإذا اتجهنا شرقاً نجد أن اللغة الفارسية لم تقتصر على بعض مناطق تركيا التي تقع في مجال النفوذ الثقافي الفارسي بل تعدت اللغة الفارسية الحدود إلى آسيا الوسطى والهند ، وأصبحت لغة الأدب السائـــدة ، وحلت محل اللغة العربية الكلاسيكية ، وصارت هي المثل الذي يحتذى .

وبأفول نجم البلاد العربية وبزوغ فجر التجديد والإنبعاث في ايران تخلت القاهرة وبغداد ودمشق عن مجال الصدارة ، لتحل محلها المدن الايرانية والتركية وأصبحت هذه المدن مراكز المدنية الإسلامية المبدعة التي دخلت في طورها الثاني — الفارسي الطابع من الإنجازات والأعمال الباهرة .

وفي الوقت نفسه أو بعد مدة وجيزة برز الشعب الثالث من شعوب المنطقة التي تمثل قلب بلاد الإسلام (منطقة الشرق الأوسط) ، وظهر الترك على المسرح ؛ لقد جاوزوا الشرق الأوسط من آسيا الوسطى . . . من بلادهم فيما وراء نهر سرداريا (الجاكزرت Jaxarte) .

كان أغلبهم وثنيين ، والبعض القليل منهم خليط من مسيحيين « ومانويين » « وبوذيين » « ويهود » . ومع الزمن أصبح الترك جميعهم بلا استثناء مسلمين ، ولعبوا دوراً هاماً وطويلاً في حكم العالم الإسلامي . وأول ما وفد الترك إلى الشرق الأوسط كجنود أو كأفراد ، ثم سرعان ما سيطروا على قيادة الجيوش الإسلامية ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي جاوزوا غزاة فاتحين ، وأقاموا مملكة جديدة واسعة في قلب العالم الإسلامي الذي كان مركز ثقله في بلاد

فارس . ولقد توقف العرب المسلمون في فتوحـــاتهم الأولية عند جبال طوروس ولم يتعدوها ، وبقيت حدودهم على تخومها حتى القرن الحادي عشر الميلادي . وكانت جبال طوروس تفصل العالم الإسلامي عن العالم المسيحي آنذاك . وعندما جاء الأتراك نجحوا في الأمر الذي فشل فيه أسلافهم من العرب المسلمين ، ووسعوا حدود الإسلام بإدخالهم آسيا الصغرى في عالمه حين فتحوها وبدأوا يستوطنونها بأعداد كبيرة حتى أن الزوار والسياح الغربيين بدأوا يسمون تلك المنطقة «تركيا» إستناداً إلى العرق الذي يقطنها ، واللغة المتداولة فيها . وهكذا أصبحت آسيا الصغرى « أرضاً » تركية في غالبيتها متصلة بحزام من الشعب التركي بالأراضي التركية القديمة في أواسط وشرق آسيا . وشكل الأتراك ، على قلتهم في بعض أجزاء الشرق الأوسط الطبقة الحاكمة في سائر المنطقة . حتى أنهم حكموا بلاد فارس وسورية ومصر ووصلوا في حكمهم حتى الهند فلقد كان حكام الهند وجيوش الهند من الأتراك رغم أن غالبية سكان الهند لم يكونوا منهم ؛ وبعد فترة طويلة من حكم الأتراك صار يعتبر طبيعيـــاً أن تكون الزعامة في كل مكان لهم ، أما غيرهم فعليه السمع والطاعة وكان يعد أمراً غريباً أن يستلم شخص غير تركي منصباً رفيعاً في الدولة ، وفي هذا العهد بالذات أصبحت اللغة التركية ثالث لغة هامة في المنطقة ، وكما (أسلمت) اللغة الفارسية كذلك (أسلمت) اللغة التركية ، وكانت تكتب بالأحرف العربية ودخلتها مفردات كثيرة العدد من اللغتين العربية والفارسية ، وكانت هذه المفردات ممثلة للتراث

الإسلامي الضخم وعلى الأخص في حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية على يد الفرس . وهكذا مثلت اللغة التركية البيئة الثقافية التي نما فيها الدور الكبير الثالث لحضارة الإسلام في الشرق الأوسط . وكانت مراكز الإشعاع في « بخارى » « وسمرقند » « وهرات » ثم ازدهرت في الدولة العثمانية أكبر وآخر الإمبراطوريات التركية . وفي القرن السادس عشر الميلادي بسط العثمانيون نفوذهم على كل البلاد الناطقة بالضاد ، ما عدا بعض الجيوب البعيدة ، كمراكش وجبل لبنان ، والصحراء حيث بقي العرب يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وكان استقلال البلاد العربية السياسي الذي حصلت عليه بعد ألف عام من الإنحطاط ، هو أحد الأحداث الهامة في القرن العشرين ؛ فالإسلام إذاً هو العقيدة المسيطرة ، واللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية هي الغالبة في مجال التعبير كتابة وقراءة وحديثاً . ولم تمت تماماً الأديان ولا اللغات القديمة في المنطقة فلقد عاشت حتى الآن كأقليات دينية وعرقية وهـذا ما يجعل الشرق الأوسط الآن أشبه بمتحف يحوي (موزاييكا) من اللغات والقوميات والأديان .

وعندما فتح العرب فارس كان سكانها يدينون بالزرادشتية أما بلاد الهلال الخصيب ومصر فكان بها مسيحيون من مختلط الطوائف وبعض اليهود ، ولم تتأثر هذه الأديان كلها بالفتح الإسلامي إلا قليلاً ما عدا الزرادشتية ، فدولة الفرس تهدمت وامّحت تماماً بعكس دولة الرومان التي انهزمت ولكنها لم تتحطم . ولم يكن للزرادشتيين . . . لا الأصدقاء خارج حدودهم كما كان للمسيحيين الشرقيين ، ولا كان لهم براعة اليهود الذين تمرسوا في الصراع من أجل البقاء

ولذا ، تهاووا واندثروا ولم يسهموا في الإنبعاث السياسي والفكري الذي شمل ايران ما بعد الفتح الإسلامي ، والزرادشتيون الآن هم بضعة آلاف يعيشون في ايران وأقل من هذا العدد يعيشون في شبه القارة الهندية .

ولقد اندحرت المسيحية ولكنها لم تتحطم بظهور الإسلام في الشرق الأوسط ؛ لقد تناقص عدد المسيحيين في الشرق الأوسط بعد الفتح الإسلامي بعد أن انتقل بعضهم إلى الإسلام ، وبازدياد عدد المسلمين الجديد بالإضافة إلى المسلمين الفاتحين أصبح المسيحيون أقلية في الشرق الأوسط غير أنه بقي لهم وزن لا بأس به لما كان لهم من حرية العقيدة والعبادة ولعبوا — بسبب تسامح الدولة الإسلامية — دوراً صغيراً ولكنه مهم ، في بناء الحضارة الإسلامية الشهيرة . وعندما جاء الصليبيون يحملون معهم (تراثاً) ضخماً من التعصب والشك أثّروا على علاقة العرب المسيحيين بجيرانهم المسلمين وأضعفوا الوثيق من الصلات التي كانت قائمة قبل قيام الحروب الصليبية .

وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية أبقت للمسيحيين الشرقيين حقوقهم كاملة التي كفلتها لهم الشريعة الإسلامية إلا أن المسيحيين الشرقيين عزلوا أنفسهم عن المجتمع الإسلامي وابتعدوا عن الحياة الايجابية الفاعلة في ميدان السياسة والفكر بعد أن اشتركوا فيها في الماضي .

وفي أوائل حركة « التعريب » وإحياء الشعور الوطني الذي حدث في الشرق عادت الأقليات المسيحية إلى دور هام في حياة الشرق

الأوسط وأموره العامة ، ولكن عندما انتقلت مرحلة الوعي الوطني إلى مرحلة القومية وبسبب تزايد شعور العداء في الشرق والغرب تقلصت مجدداً نشاطات المسيحيين في الأمور العامة في الشرق الأوسط.

وفي بلد واحد فقط لا يزال المسيحيون يلعبون دوراً حياً وحاسماً وهذا البلد هو جمهورية لبنان . فجمهورية لبنان بشكلها الحالي هي دولة خلقت حديثاً إلا أنها ترمز إلى حقيقة قديمة .

فجبل لبنان كان منذ القرون الوسطى ملاذاً وحصناً للمخالفين (سياسياً ودينياً (ومنذ القدم اشتهر سكان لبنان بالنشاط والإستقلال في الرأي ، حتى في عهود خضوعهم للماليك والعثمانيين ، نجح أمراء جبل لبنان بالإحتفاظ بقدر كبير من الإستقلال الذاتي والحكم المحلي . ومسيحيوا لبنان لهم صلة بالعرب عن طريق لغتهم العربية وصلة بالغرب يرجع تاريخها للعهود الصليبية ، وهذا الوضع مكنهم من أن يلعبوا دوراً كبيراً في نشر الثقافة الغربية في الشرق الأوسط وفي بعث ! وعي عربي جديد مستوحىً من هذه الثقافة ! ! ! .

أما الآن فلقد تقلص دور اللبنانيين في الشؤون العربية إلى حد كبير وحتى دور مسيحيي لبنان في شؤون لبنان لم يبق على قوته السابقة . ومع ذلك فلا زالت مدينة بيروت أحد أهم المراكز التجارية والمالية والفكرية في العالم العربي . ولقد مر اليهود في القرون الوسطى بتجربة مماثلة بصورة عامة لتجربة المسيحيين غير أنهم انحرفوا عنهم بصورة جادة في الأزمنة الحديثة . ففي الإمبراطورية الفارسية عوملوا معاملة طيبة أما في دولة البيزنطيين فقد كانت معاملتهم غير مثالية . وفي عهد

الفتوحات العربية كان لليهود مجتمعات محدودة منتشرة في كل الشرق الأوسط وقد أسهم الفاتحون المسلمون في تحسين حال هذه المجتمعات اليهودية من ناحية الأمن والمعاش . وكانت المراكز العبرية الثقافية في العراق على عهد الإمبراطورية الفارسية وفي فلسطين على عهد البيزنطيين . ولما جاء الحكم الإسلامي للعراق وسورية وفلسطين ازدهرت الأقليات اليهودية في العراق أما في فلسطين ، وقد كانت ولاية على حدود الدولة الكبيرة ، فقد انحطت الأقلية اليهودية وذبلت ولقد كانت أحوال يهود فلسطين صعبة للغاية في عهد الصليبيين ، فعندما احتل الصليبيون القدس ذبحوا المسلمين واليهود وكان ذلك سنة ١٠٩٩ ميلادية .

وعندما عاد المسلمون واحتلوا (عكا) سنة ١٢٩١ ذهب اليهود ضحية مع الصليبيين المهزومين وما بين هذين التاريخين نجح اليهود الباقون في أن يكيفوا حياتهم حسب المصلحة !!! ويحتفظوا بطريقة معيشتهم والواقع أنهم بدأوا بعض الهجرة إلى فلسطين في القرن الثالث عشر من شمال افريقيا الإسلامية ومن أوربا المسيحية وكان بين المهاجرين ثلاثمئة من (الحاخامين) من فرنسا وانكلترا وصلوا إلى القدس سنة ١٢١١ وبعد الفتح العثماني في أوائل القرن السادس عشر بدأت موجات جديدة من الهجرة من بلاد حوض المتوسط وأدت إلى ايجاد مركز فكري يهودي قوي في القدس وصفد وكان لهذا المركز نفوذ كبير على اليهود في بلاد أخرى . . . وحتى في اوروبا المسيحية.

واليهود كالمسيحيين أسهموا (! !) ولو بأسلوب أضعف في الحضارة العربية الإسلامية وكذلك أصابهم ما أصاب المسيحيين الشرقيين من اضمحلال نفوذ ، وفتور علاقات مع العرب المسلمين بعد الحروب الصليبية التي سببت هذا الفتور . وبقيام الدولة العثمانية وبفضل هجرة بعض يهود البرتغال واسبانيا إلى فلسطين وبسبب الفرصة التي سنحت لهم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عاد اليهود وحصلوا على بعض النفوذ في الدولة العثمانية ولكن سرعان ما فقدوه في القرن السابع عشر ثم طغت عليهم وحجبتهم الطوائف المسيحية الشرقية التي بدأ نجمها يرتفع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ومن آن لآخر طوال مدة تشرد اليهود كان بعضهم يحاول الهجرة إلى فلسطين ليستوطن فيها ولكن عددهم كان قليلاً والهدف المحرك لهم كان دينياً بحتاً . أما في القرن التاسع عشر فلقد تغير العامل المحرك لهم وبدأت هجرة من نوع جديد من أواسط وشرق اوروبا حيث انتشرت الأفكار القومية التي هيأت نفسية الأوربيين في شرق وأواسط اوروبا لاضطهاد اليهود ، وأعطت اليهود في نفس الوقت فرصة للبعث القومي اليهودي وكان المهاجرون الجدد (المستوطنون والمستعمرون) جماعة من الشباب يحدوهم العامل القومي وليس العامل الديني ، ولم تكن غايتهم الصلاة والتعبد ثم الموت . . . بل كانت غايتهم العمل والاستغلال الإقتصادي والحياة . ونمو فكرة مكافحة السامية في اوروبا أعطى اليهود سبباً جديداً للميل إلى القومية اليهودية وفي سنة ١٩١٤ كان عدد اليهود في فلسطين (٨٥٠٠٠)

وفي سنة ١٩٤٨ وصل عددهم إلى نصف مليون وتمكنوا من إقامة اسرائيل أول (دولة) يهودية في فلسطين، منذ ألفي عام ولم تكن الأولى في مناطق أخرى من العالم ؛ وبنتيجة قيام اسرائيل تبعثرت وانتهت تقريباً المجتمعات اليهودية الصغرى الأخرى التي كانت في سائر أنحاء العالم العربي وذلك بهجرتها إلى فلسطين .

وصاحب قيام اسرائيل وبروز القومية (! !) اليهودية إحياء للغة العبرية التي لم تكن مستعملة إلا للعبادة أو في أوساط بعض الباحثين أو في المراسلات بين المتعلمين اليهود المستشرقين في أنحـــاء العالم والحاملين لجنسيات مختلفة . وأصبحت العبرية اللغة الرسمية في اسرائيل واللغة العربية اللغة الرسمية الثانية . وفي بعض القرى القليلة يتكلم بعض المزارعين الآرامية . وفي البلاد العربية تتكلم الأقليات اليهودية والمسيحية اللغة العربية وفي ايران يتكلمون الإيرانية أما في تركيا فالمسيحيون هم من أصل أرمني ويوناني ويتكلمون هاتين اللغتين أما الأقلية اليهودية في تركيا فهي من أصل اسباني وتتكلم الإسبانية ، والظاهر أن اللغة التركية لم تستطع حتى الآن دمج هذه الأقليات في محيطها اللغوي .

هناك أقلية عرقية ولغوية مهمة واحدة عاشت في قلب الشرق الأوسط المسلم وهي الأقلية الكردية وتعدادها بعض الملايين وهم يعيشون في جزء من تركيا وايران والعراق ، والأكراد مسلمون متدينون غير أن هذا لم يمنعهم من المحافظة على لغتهم ؛ ولقد بدأوا مؤخراً يظهرون اتجاهاً قومياً جعل القوميات الغالبة في الشرق الأوسط

لا تنظر بارتياح لها فإن القوميات الغالبة العربية والفارسية والتركية تعودت أن تصنع هي الدعاوى القومية ولم تتعود أن تسمعهـــا من مواطنين ينادون بقومية جديدة .

وعلى حواشي منطقة الشرق الأوسط تعيش لغات أخرى متعددة فالأفغانستان لغتان رسميتان : الفارسية و (الباشتو) ، وفي شمال افريقيا لاتزال اللغة البربرية مستعملة بين عدد قليل من سكان ليبيا وتونس ، وبين عدد أكبر من الأقليات في الجزائر ومراكش ، وفي كل بلاد الشمال الإفريقي تتراجع هذه اللغة البربرية بانتظام أمام اللغة العربية ، أما في القوقاز فهناك مجموعة واسعة من اللغات المزدهرة فبالإضافة إلى التركية والفارسية هناك « الغريغورية » و « الأرمنية » « والشركسية » « والشاشانية » « والأفار » . وللغات الرئيسية الثلاث في الشرق الأوسط استعمالات مختلفة ، أمـــا الفارسية فهي أكثرها وحـــدة وأقلها اتساعاً ، وهي اللغة القومية لايران ، وعلى أطراف هذه الدولة توجد بعض اللهجات المختلفة ضمن الحدود الوطنية للدولة ؛ وفي بعض أجزاء أفغانستان يستعملون الفارسية وهي قريبة (للتاجيك) التي تكتب بأحرف مختلفة . وتنتسب لغة « الباشتو » واللغة الكردية وبعض لغات الأقليات الصغيرة الأخرى إلى اللغة الفارسية ، ولكنها مع ذلك تختلف عنها ، أمـــا اللغة العربية فهي مستعملة في منطقة واسعة من العراق إلى المغرب مع اختلاف واسع في اللهجات المحلية المتداولة بين العامة ، إلى درجة أن بعض اللهجات يصعب فهمها من مواطني منطقة عربية أخرى . أما اللغة الأدبية

المكتوبة فبقيت واحدة وتزداد قوة ربطها للعالم العربي بانتشار التعليم والصحافة والإذاعة والسينما .

أما اللغة التركية فهي أقل اللغات الثلاث وحدة ، ففي وقت من الأوقات كان هناك لغتان أدبيتان رئيسيتان بالرغم من وفرة اللهجات المستعملة في التكلم ، وهما : التركية العثمانية في تركيا وما يسمى بالتركية (الشاغاتاي) التي ازدهرت في أواسط آسيا . وكلتاهما كانتا تكتبان بالأحرف العربية ، وفقدان الألف باء العربية لبعض الأحرف الصوتية حجب اختلاف اللهجتين العثمانية و(الشاغاتاي) وهذا ما يسّر لعدد أكبر من الناس أن يتفاهموا بهاتين اللغتين على الرغم من اختلافهما . وفي القرن التاسع عشر كانت للغة التركية المستعملة في ازربيجان شأن في إحياء نهضة أدبية ملحوظة ، وكانت هذه اللغة قريبة جداً للتركية العثمانية ، وفي هذا العصر ترك الأتراك الأحرف العربية واستعملت الأحرف اللاتينية في تركيا والأحرف الروسية في البلاد الخاضعة للإتحاد السوفياتي ؛ وتراجعت لغة (الشاغاتاي) في الشرق الأوسط السوفياتي وحل محلها مجموعة من اللغات الوطنية المحلية مبنية على لهجات لا تفهم إحداها الأخرى.

لقد عرفنا الشرق الأوسط جغرافياً وتاريخياً ودينياً ولغة وحضارة . ومن المستحسن الآن أن نحاول تعريفاً أقرب له بتحديد المجموعات السياسية التي تعيش فيه . وليس من الممكن طبعاً رسم حدود واضحة هنا كحدود الدول والمناطق ولكن يمكننا أن نقول : إذاً استثنينا — المناطق الساحلية — فإن أراضي الشرق الأوسط تنتهي على حدود دول تشبه دوله إلى حد كبير غير أنها لا تعتبر جزءاً منه .

وفي الإستعمالات اليومية لتعبير الشرق الأوسط يقصد الناس البلاد التالية : تركيا وايران وربما أفغانستان ، والعراق وشبه الجزيرة العربية ودول الشرق الأربعة سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، ومصر وإذا توسعنا جنوباً وغرباً يمكننا أن نشمل دول الشمال الإفريقي التي تتكلم العربية . أما حدود الشرق الأوسط الشمالية فهي الاتحاد السوفياتي على الرغم من أن هذا التحديد لا ينطبق على الوقائع التاريخية والجغرافية ؛ فحتى القرن التاسع عشر كانت القوقاز وآسيا الوسطى جزءاً لا يتجزأ من عالم الشرق الأوسط ، وقبل هذا القرن كانت جزءاً من الممالك العربية الإسلامية والفارسية الإسلامية والتركية الإسلامية وكانت مدنها الإسلامية الكبيرة كبخارى وسمرقند أساسية في الحضارة الإسلامية كبغداد والقاهرة وأصفهان واستنبول . أما جيورجيا وأرمينيا فهما بلدان مسيحيان على حدود الشرق الأوسط غير أن سكانهما لعبا في وقت من الأوقات أدواراً متنوعة في الأراضي الإسلامية .

وهناك جمهوريات أخرى يسكنها مسلمون يتكلمون اللغة التركمانية والفارسية متشابهون تماماً في تقاليدهم الدينية والسياسية والثقافية مع مسلمي المنطقة التي نسميها الآن الشرق الأوسط ، ويمكننا القول الآن إن المحميات في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي هي المناطق الوحيدة التي لا تشترك مع النظم السياسية للشرق الأوسط الإنكليز لا يزالون فيها .

قد يبدو أننا أكدنا بصورة واضحة على الإسلام أو على الواقع

الديني في تعريفنا لتعبير هو على كل حال من مستحدثات القرن العشرين . وللدين مفاهيم مختلفة في أذهان مختلف الناس . ففي الغرب يعني الدين بصورة رئيسية نظام ايمان وعبادة يتميز عن الولاء الوطني والسياسي ، ويعتبر في هذا العصر ثانوياً بالنسبة للولاءين السابقين المذكورين : أما بالنسبة للمسلمين فالدين يعني أكثر من ذلك بكثير .

فالإسلام يشمل في معناه ما تعنيه في الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحي مجتمعين ولا شك أن هناك تقاليد وصفات محلية ووطنية وإقليمية عاشت وتعيش في المجتمعات الإسلامية ولقد نالت أهمية كبيرة في العصر الحديث . غير أن جميع الشعوب التي قبلت بهذه التقاليد لها قاسم مشترك واحد من الايمان والولاء للشريعة الإسلامية يطبعها بطابع هوية واحدة يبقى ويدوم حتى ولو فقد الايمان وأهملت الشريعة . وعلى الرغم من أن هذه الهوية تضمحل في هذه الأيام شيئاً فشيئاً إلا أنها حتى الآن لم تمح أبداً .

والوحدة التي تجمع هذه الشعوب على قاسمها المشترك هي عقيدة « أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وثانياً القرآن والسنة ، وثالثاً النظام الماهر المعقد المبني على نظرية الإسلام الدينية وعلى الفقه الذي استند إليها .

فتعاليم الإسلام المنبعثة من منابعه الأصيلة تضم بالإضافة إلى المعتقدات والعبادات تشريعاً يمكن تسميته بلغة الغرب الحقوق المدنية والحقوق الجنائية وحتى الحقوق الدستورية فكل مسلم مؤمن يعتقد

أن هذه التشريعات الإسلامية جاءت من النبع نفسه ولها سلطة وقوة التشريعات الإعتقادية والعبادية نفسها .

ولقد وضع فقهاء المسلمين أسس التقاليد السياسية للمجتمعات الإسلامية ، وبقيت هذه التقاليد سائدة المفعول لقرون طويلة وكان لتاريخ المسلمين الأوائل رصيد ضخم من القوة المعنوية في قلوب المسلمين ؛ وكل لغات المسلمين كانت تكتب بالأحرف العربية على الرغم من اختلاف أصولها ، وكلها استعارت ما لا حـــد له من المفردات العربية خصوصاً في حقلي الفقه والثقافة من جهة وحقل التشريع والحكم من جهة أخرى .

أما الفن الإسلامي فليس من الصعب التعرف عليه فكل إنسان حتى ولو كانت ثقافته الفنية والهندسية محدودة ، فإن باستطاعته أن ينظر إلى مجموعـــة صور فوتو غرافية لأبنية أو حاجات ويميز الإسلامية منها . فالقناطر ومنائر الجوامع والمساجد والهندسة العربية والنقوش والنظم التي تتحكم في الشعر والتي تتحكم في فن الطهي كل هذه رغم اختلاف حقولهـــا تظهر وحدة أساسية من التقاليد والأخلاق والسلوك ، وهي وحدة إسلامية تكونت أساساً في الشرق الأوسط على نماذج متشابهة عربية وفارسية وتركية . في الموسيقى ، والبناء والسجاجيد والقباب وترى هذه الوحدة في فروع الحضارة الإسلامية المتشعبة وتسمعها وتلمسها وتتذوقها ، وهـــذه الوحدة موجودة أيضاً ، ولو أنها غير سهلة التحديد والفهم للرجل العادي في موضوعات مثل القوانين والحكم والمؤسسات ، وفي المواقف والأفكار السياسية والإجتماعية .

والتاريخ الإسلامي للشرق الأوسط بدأ مع بدء الفتوحات العربية الإسلامية العظيمة في القرنين السابع والثامن الميلاديين والتي شكلت مملكة متحدة منظمة من شمال افريقيا إلى حدود الهند والصين والتي لم يعهد التاريخ مثلها منذ عهد الإسكندر .

ومع مرور الزمن ونتيجة الغزوات المعاكسة والخصومات الداخلية بدأت الوحدة السياسية والإقليمية الإسلامية تضمحل وتتآكل ثم تتجزأ ، ولم يتمكن العرب من الصمود للتحدي مدة طويلة فغابوا عن مسرح الحكم وبرز نجم غيرهم من الشعوب المسلمة ؛ غير أن الوحــدة الدينية والثقافية للشرق الأوسط المسلم بقيت واستمرت وكانت الخلافة التي احترمها الجميع ، رمزاً لهذه الوحدة .

لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهدداً فيها في الوقت نفسه من الشرق والغرب ، غير أن الإسلام تغلب عليهــا واجتازها دون أن يتأثر . جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحولوا إلى مسلمين مؤمنين وتمثلهم المجتمع الإسلامي الكبير فانصهروا في بوتقته وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الإسلام التي أقامت مجتمعاً متدهوراً كاد يغنى اجتماعياً وسياسياً . وبهذه القوة والحيوية تمكن الإسلام من الصمود بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيين الذين جاؤوه من الغرب .

ثم واجه الإسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر فلقد سحق الشرق الأوسط الإسلامي مرتين واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا

تحطيم حضارته الإسلامية القديمة الأصول فإنهم (لغموا) ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم ، وهكذا حولوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة .

أولى هاتين اللطمتين كان الغزو المغولي من أواسط آسيا التي حطمت الخلافة القائمة وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة ، قلب العالم الإسلامي لحكم غير إسلامي .

أما اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث .



الفصل الثاني

تأثير الغرب

لقد اعتدنا نحن الأوروبيين منذ مدة أن نطلق على مجموعة البلاد التي ننتمي إليها اسم : الغرب ولم يعد هذا التعبير يعني وضعاً جغرافياً خالصاً بقدر ما يعني كياناً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً . فما هي الحدود الجغرافية لهذا الكيان، ولا نقصد به فقط بلاد الحلف الغربي وهي معروفة للجميع، بل نعني الكيان الذي يجسد الحلف إرادته في الحياة والبقاء .

الحدود الغربية للغرب واضحة : فهي شواطئ الباسيفيك وما يتبعها في أميركا الشمالية ، أما الحدود الشرقية فأمر معقد إلى حد ما إذا وضعنا جانباً الفكرة الأمريكية بالنسبة للغرب الذي تنتهي حدوده عند نهر المسيسبي ، أو نهر الهدسون ، كما يعتقد النيويوركيون، نقول إذا وضعنا هذه الفكرة جانباً ، نرى أن الأمر المتعارف عليه هو أن «الغرب» يشمل كل سواحل الأطلنطي، ويمتد في أوروبا إلى نقطة معينة ، وباختلاف الأوقات والغايات اختلف موضع هذه النقطة

من القنال الإنكليزية إلى نهر الراين . . . إلى جبال الآلب إلى نهر الأودر . . . إلى البوسفور . . . إلى جبال الاورال وهي الحدود التي اتفق على أنها تفصل ما بين اوروبا وآسيا .

أما تحديد « الغرب » بالنسبة للشرق فأمر سهل جداً ، وبالمناسبة فهناك أكثر من « شرق » واحد ! ! فعندما نتحدث هنا في الغرب عن المنافسة الدائرة بين الشرق والغرب فإننا نعني عادة الحرب الباردة وما يتفرع عنها ؛ وبهذا المعنى نعتبر كلمة الشرق : الكتلة السوفيتية والكتل الشيوعية (وهي ليست واحدة . . . الآن) ؛ أما الغرب فيعني الحلف الغربي والمسهمين فيه ؛ ويسمى الغرب بعض الأحيان العالم الحر ! ! ! على سبيل المزاح ! ! ! .

ويشمل العالم الحر ! ! ضمن نطاقه سلسلة من الأنظمة الديكتاتورية المتفاوتة الدرجات القائمة في أكثر من قارة ويستبعد السويد وسويسرا وايرلندا وفنلندا . والشرق السوفيتي ليس الشرق الوحيد الذي نعنيه فهناك أيضاً ما نسميه الشرق الشرقي ! ! (The Oriental East) ويشمل مجموعة من الشعوب والمجتمعات والبلاد في قارة آسيا وفي افريقيا ، وعلى الرغم من اختلاف الآسيويين والإفريقيين فإن لهم قاسماً مشتركاً واحداً يجتمعون حوله وهو أن الحضارة المسيحية (البيضاء) الأوروبية مع بناتها اللواتي خلفتهن ، غريبة عنهم بل إنها أخضعتهم لسيطرتها ونفوذها مدة طويلة ، وهم الآن ــ الآسيويون والإفريقيون ــ يضعون حداً لهذه السيطرة وذاك النفوذ ؛ وهناك عدد كبير من أبناء الشرق الأوسط وعدد أقل من أبناء البلاد الأخرى

في آسيا يعتبر أن المنافسة الحقيقية بين الشرق والغرب هي بين الآسيويين والإفريقيين من جهة وبين اوروبا المسيحية المسيطرة المستعمرة ؛ وهدف الصراع هذا هو استئصال جذور الإستعمار الأمبريالي الغربي من أرض الشرق . والصراع السوفيتي — الغربي بالنسبة لهؤلاء أمر غير مهم على الرغم من استفادتهم منه ، غير أنهم يشعرون أنه لا يخصهم مباشرة ، ولا يهم الشعوب الشرقية بل إن بعضهم يعتبر أن الاتحاد السوفياتي هو جزء من « الغرب » .

فهناك أكثر من صلة أولاً : غالبية سكان الاتحاد السوفياتي من الاوربيين من أساس يهودي — مسيحي ويوناني — روماني ؛ وثانياً : تنميته العلمية والصناعية ؛ ثالثاً : وبعضهم يعتبر أن الصلة الثالثة بينه وبين الغرب هو عادته في السلب والإستغلال .

غير أن هذه النظرة لا تحظى حتى الآن بتأييد عام كبير ، وغالبية الشرقيين يستعملون تعبير « الغرب » في حدوده الضيقة المتعارف عليها

وفي الشرق الأوسط لم يستعمل تعبير « الغرب » بمعنى الكيـــان السياسي والثقافي إلا منذ مدة قريبة ، وربما بدأ استعماله في الوقت الذي راج فيه استعمال « الشرق الأوسط » ، في المحافل الغربية لكن هذا لا يمنع من القول أن كلمة « الغرب » مثل كلمة « الشرق الأوسط » ، تعبر عن حقيقة قديمة قائمة معروفة بأسماء مختلفة .

وفي السنوات الأخيرة رُكز بعض الإهتمام على مشكلة الطابع القومي في الشرق الأوسط وحاول بعض الكتاب وصف تبويب الأحداث التاريخية والأحقاد القديمة وأثرها على شكل السياسة الغربية

تجاه الشرق الأوسط ؛ ولم يركز الإهتمام نفسه على أصل وشكل موقف الشرق الأوسط بالنسبة للغرب ، مع أن هذا الأمر مهم أيضاً في تحديد العلاقات بين الشرق الأوسط والغرب ؛ وقد يكون أكثر أهمية مما نظن لعدم وجود عادة التحليل والنقد الذاتي في الشرق الأوسط .

ودرجت كلمة « الغرب » لأول مرة في القرون الوسطى على ألسنة الكتاب المسلمين ولم يكن يقصد بها اوروبا المسيحية ، فللإسلام غربه الخاص به في شمال افريقيا والأندلس حتى شواطئ الأطلنطي ولم يكن هناك داع لإطلاق كلمة « الغرب » على بلاد غير المسلمين والتي تقع شمال البحر المتوسط ؛ وكان المسلمون يقسمون العالم إلى منطقتين : دار الإسلام ، ودار الحرب ، وبين الدارين حرب دائمة ، وفي أفضل الأحوال تقوم بين الدارين هدنة .

وفي الجنوب والشرق من دار الإسلام كانت دار الحرب مأهولة بالوثنيين ، وكانت هذه الدار قابلة للغزو وهي أرض خصبة للدعوة للإسلام ، أما في الشمال والشمال الغربي فكانت الممالك المسيحية المنافسة الأولى للدعوة الإسلامية والعدو القاتل ! ! للقوة الإسلامية ؛ وأول من تلقى ضربات الفتح الإسلامي كانت دولة بيزنطة المسيحية وبعد أن اضمحلت قوى هذه الدولة واستسلمت للغزو (العثماني) قام الفرنجة في غرب اوروبا بهجوم مضاد كان ميدانه من اسبانيا إلى فلسطين على أرض افريقيا وآسيا . ومنذ أواخر عهود القرون الوسطى بدأت صورة اوروبا المسيحية تتغير في أذهان المسلمين .

لقد أصبح اليونانيون الأرثوذوكس مواطنين تابعين للسلطان العثماني ولم يعودوا أعداء يخشى جانبهم بعد أن تحولوا إلى جيران مسالمين ، وحل محلهم في مكان العدو الأول للمسلمين الفرنجة ، ويسميهم الكتاب العرب المعاصرون « الصليبيين » ، وكان تعبير الفرنجة يشمل (الكاثوليك) فقط ثم ضم إليهم بعد ذلك (البروتستانت) سكان أوروبا الوسطى والغربية ، وأطلق هذا التعبير أي (الفرنجة) لتمييزهم عن المسلمين من جهة وعن اليونان الأرثوذكس من جهة أخرى .

وكان الفرنجة في أعين المسلمين في ذلك الوقت جنساً من البرابرة المشركين لا يهمون المسلمين في كثير أو قليل؛ وفي نظر العالم الإسلامي كانت المسيحية واليهودية دينين سماويين وأصلهما حقيقة ايمانية صحيحة عند المسلمين وهمـا حلقتان قديمتان في سلسلة الأديان السماوية التي اكتملت بظهور الإسلام في رسالة محمد بن عبد الله ﷺ . وكل مافي الديانتين من عقائـد احتفظ بها الإسلام واعترف بها وقدرها أما ما عدا ذلك فكان من الزيادات والتشويهات والتحريفات لذلك فالمسيحية في حالتها التي آلت إليها ، ومعها الحضارة الاوروبية المسيحية التي بنيت على أساس تلك الحالة ، ليست كاملة في نظر المسلمين فهي ناقصة محرفة منسوخة .

وفي نظرة المسلمين هذه إلى الحضارة المسيحية ، والمسيحية نفسها تسامح وتساهل أكثر بكثير مما في نظرة اوروبا المسيحية المعاصرة التي تنظر إلى الإسلام على أنه كله باطل وشر . وهذه النظرة المتسامحة

من المسلمين تنعكس في المعاملة الحسنة والتسامح الكبير الذي يلقاه أتباع الديانة المسيحية في المجتمعات الإسلامية بالرغم من موقف المسيحيين كديانة منافسة للإسلام .

ولم يقم المسلمون اعتباراً كثيراً لأوروبا المسيحية ، فلقد اقتبس المسلمون من اليونان وكان هؤلاء أصحاب حضارة تليدة ، ونمت بين المسلمين واليونان حالة من التعايش السلمي على مرور القرون ، أما القبائل المتوحشة التي كانت في عهود اوروبا المظلمة فلم يكن لها ملامح ذات قيمة يستفاد منها ، لذلك كان من الملاحظ أن العرب المسلين قد ترجموا كتباً كثيرة عن اليونان والسورية والفارسية القديمة وعن لغات أخرى ، إلا أنهم لم يترجموا إلا كتاباً واحداً فقط عن « تاريخ الرومان الحديث » عن اللاتينية ولم يترجموا عن أي لغة اوروبية غربية أخرى طيلة عهود القرون الوسطى .

ولقد نجد مبرراً لموقف المسلمين هذا في عصور الظلام عندما كان فرنجة اوروبا غارقين في التأخر والجهل والإنحطاط ، وزاد في بلورة هذا السلوك ما قام به الصليبيون في الشرق الأوسط وخارجه من أعمال عدائية قاسية . إلا أنه كان على هذا الموقف أن يتغير قليلاً منذ أواخر القرون الوسطى ، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر ركب الاوروبيون متن سفينة امتدت بحركتهم ونشاطهم إلى أجواء واسعة في ميدان التجارة والسياسة والثقافة والتوسع البشري ، وبقدوم القرن العشرين أصبح العالم كله يتحرك في « مدار » المدنية الاوروبية ، وكان هذا امتداداً للعالم الغربي من طرفيه ، وعندما كان البرتغاليون

والإسبان والإنكليز والهولنديون والفرنسيون يبحرون عبر المحيطات لاكتشاف العالم الجديد واحتلال العالم القديم تقدم الروس باتجـــاه الجنوب والشرق عبر سهول آسيا الوسطى نحو الشرق الأوسط وآسيا.

ومرت هذه الحركات التوسعية بأشكال وأدوار مختلفة، وعرّفت بأسماء عدة: الإسم الأول هو: «الاستعمار». الثاني «حِمْل الرجل الأبيض» أو «القدر الظاهر» بالإضافة لمرادفات عـــدة استعملهـــا الروس للتعبير عن عملية انتقالهم من موسكو إلى جبال الاورال، ومنها إلى المحيط الهادي؛ ولقد كانت عملية الإستعمار هذه تامة وناجحة نجاحاً استأصل السكان الأصليين للبلاد المستعمرة نهائياً أو أبقى منهم فلولاً لا تذكر، وتمكن المستعمرون أن يقفوا على أقدامهم (وحيدين) في البلاد الجديدة المستعمرة دون الإعتماد كثيراً على وطنهم «الأم».

ولم يستطع الفرنسيون في شمال افريقيا التوصل إلى هذا الحد من النجاح!! أما الإنكليز فقد توصلوا لذلك في شمال أميركا؛ ففي معظم آسيا وافريقيا كانت الحضارت الأصلية والشعوب الأصلية أقوى وأعرق واعمق جذوراً من أن تستأصلها موجة الإستعمار، واكتفى المستعمرون بدور الملاك والحكام. وكان من نتيجة ذلك قيام النظم الإستعمارية الكلاسيكية الحاكمة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

أما في الشرق الأوسط فقد ظهر تأثير الإستعمار الاوروبي متأخراً وقصيراً، وفي أكثر المناطق كان تأثيراً غير مباشر. أما تأثر اوروبا

نفسها في الشرق الأوسط فكان عميقاً وطاغياً ولقد خيّل للبعض في أول الأمر أن منطقة الشرق الأوسط كانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع بين فكي كماشة يمثل أحد مخلبيها تقدم البرتغاليين في البحر من الجنوب الشرقي ، من قواعدهم في شبه القارة الهندية ، وثاني المخلبين كان زحف الروس من الشمال ، إلا أن هذا الخطر زال وظهرت قوة جديدة في الشرق الأوسط تمكنت من ايقاف المهاجمين الشماليين والجنوبيين وحفظت للإسلام البحر الأحمر والبحر الأسود

وقد صادف بدء التوسع الأوربي قيام دولتين جديدتين في الشرق الأوسط : دولة العثمانيين في تركيا ودولة الصفويين (Sapaiud) في بلاد فارس ؛ وقام بين الدولتين في أوائل القرن السادس عشر صراع على مركز السيطرة انتهى بانتصار العثمانيين ،ومن ثم أصبحت الأراضي العربية جزءاً من الدولة العثمانية ، بعد أن ألفت حكم الأتراك وغيرهم في حكم الطوائف والعسكريين من غير العرب ، وبقيت هكذا مدة اربعمئة (٤٠٠ سنة) .

ولقد حمت قوة الدولة العثمانية العسكرية شعوب الشرق الأوسط من الغزو الخارجي ، وحجبت علومهم التقليدية عنهم واقع الحياة فظلوا يعتزون بالأسطورة الإنسانية القديمة عن الاكتفاء الذاتي ، وظلوا يعتقدون ـــ كما اعتقد قوم من قبلهم وبعدهم ـــ بتفوقهم غير المحدود في أسلوب حياتهم ، وفي كرههم للبرابرة الاوروبيين الغربيين واستمروا في نظرتهم إليهم من مركزهم السامي الذي تعززه عقيدة صحيحة وتدعمه قوة عسكرية مرهبة . ولقد كانت الإنتصارات العسكرية العثمانية المتعاقبة على أعدائهم المسيحيين في

القرن السادس عشر سبباً في تدعيم وتشجيع هـذا الموقف الآنف الذكر . ولم يتغير هذا الموقف في القرن السابع عشر بالرغم من توقف هذه الإنتصارات ، إلا أن التغيير الحقيقي بـدأ عندما أصيبت الإمبراطورية العثمانية بهزائم جادة فاصلة ، هزائم في ميدان القتال أعقبها ضياع بعض أراضي الإمبراطورية ومعاهدت صلح امليت عليها من أعدائها المنتصرين .. ولقد كانت هـذه الحالة تجربة قاسية وجديدة ، واحتاجت شعوب الشرق الأوسط لمدة طويلة وشاقة لتعتادها ، وحتى هذا الموقف لم تتكيف أحوال هذه الشعوب تماماً بما يلائم أوضاعها التي انتهت إليها .

ولقد بدأ الأمر بحصار فيينا الثاني سنة (١٦٨٣) وانهزم الأتراك في هذه المرة وتراجعوا وتقدم النمساويون وحلفاؤهم بسرعة ، وتغلغلوا في أراضي الدولة العثمانية ؛ وفي سنة ١٦٩٦ استولى الروس على (أزوف) وهكذا كانت هذه المدينة أول موطئ قدم لهم على على البحر الأسود ؛ وفي سنة ١٦٩٩ فرض النمساويون معاهدة (كرلويتز) وهـذه أول اتفاقية توقعها الدولة العثمانية كدولة مهزومة . وبالرغم من محاولة لمّ الشتات وإعادة تجميع الصفوف من آن لآخر توالت سلسلة الهزائم والإهانات ، واستمر التراجع طيلة القرن الثامن عشر ، وكانت أشد الصفعات مرارة احتلال الروس سنة ١٧٨٣ للأراضي التركية الإسلامية القديمة : شبه جزيرة القرم .

وأول المشاكل التي ظهرت بعد ذلك كانت عسكرية ، وأول علاج اقترح لحلها كان أيضاً عسكرياً ولقد اندحر الجيش العثماني في الميدان على يد الجيوش الاوربية ، لذا كان التفكير أن من الحكمة

تطبيق أسلوب التسليح الاوروبي والتدريب الاوروبي والتكنيكية الأوروبية ، وكانت الحكومة العثمانية طوال القرن الثامن عشر ما بين آن وآخر تستقدم مدربين وخبراء اوروبيين للتعليم في تكنيكية جديدة افتتحتها الدولة للضباط وللطلاب الضباط ، وبالرغم عن كون هذه التجربة محدودة إلا أنها كانت ذات مغزى كبير جداً ؛ فللمرة الأولى قبل الشباب المسلمون أن يكون موجهوهم ومعلموهم من الغربيين الأفظاظ ! ! ، وأن يتعلموا لغة الغرب ويقرؤوا كتبه ،وقد كانوا من قبل يكرهون الغرب ويتهمونه بالبربرية ؛ وفي أواخر القرن الثامن عشر كان ضباط المدفعية الشبان قد تعلموا اللغة الفرنسية ليتابعوا دروس المدفعية في كتبهم الفرنسية ، ثم توصلوا بعد ذلك إلى قراءة كتب أخرى كانت أكثر تفجراً وأعمق أثراً .

ولم يكن الإصلاح العسكري — مع أنه كان الأول والأهم — الثغرة الوحيدة في جدار فكرة « الإكتفاء الذاتي » ؛ ففي سنة ١٧٢٩ أنشئت أول مؤسسة صحفية طباعية في استنبول وفي سنة ١٧٤٢ عندما أغلقت كانت قد طبعت سبعة عشر كتاباً منها كتاب عن فرنسا كتبه أحد السفراء الأتراك الذي أرسل إلى فرنسا سنة ١٧٢١ ومنها أيضاً دراسات عسكرية وتطبيقاتها في الجيوش الاوروبية ؛ وبدأ فقدان الثقة بالنفس — على الصعيد الحضاري — يظهر في النفوذ الاوروبي الذي وصل تأثيره إلى الهندسة المعمارية . . . حتى الهندسة الدينية ، كما جرى مثلاً في تزيين جامع «نور عثمانية» الذي تم بناؤه سنة ١٧٥٥ .

وزاد الإحساس بالضعف الذي أحدثته الهزائم العسكرية عندما ازدادت الصادرات الاوروبية إلى الشرق الأوسط . . . الصادرات التي تعدت الكماليات إلى المواد الضرورية كالسكر والبن ؛ وبعد أن كانت هذه المواد تصدر في السابق من الشرق الأوسط إلى اوروبا صار التجار الاوروبيون يستقدمونها من أميركا ويبيعونها في الشرق الأوسط . وقامت فترة من التخاذل واليأس ظهرت في عديد من الوجوه التي عبرت عن عدم الثقة بالسيادة العثمانية وفي محاولة لتلمس الطرق الاوروبية تردد القول الإسلامي القديم بمعنى جديد وعزم جديد (إن هذا العالم هو سجن للمؤمنين وجنة للكافرين) ! ! [1] .

وفي القرن الثامن عشر ظهر أول تهديد لسيادة العثمانيين على أراضي الشرق الأوسط . . ظهر في الشمال حيث تقدمت روسيا باضطراد نحو البحر الأسود والقوقاز ، وكانت فرنسا وانكلترا في ذلك الوقت قوتين اوروبيتين وآسيوتين تتنافسان على أسواق مصر وايران والمشرق ؛ وعندما احتلت حملة فرنسية عسكريـــة بقيادة (بونابرت) ، مصر سنة ١٧٩٨ بدأ عهد جديد في تاريخ تأثير الغرب في الشرق الأوسط ، ولقد نظر المؤرخون الشرقيون والغربيون إلى هذه الحادثة التاريخية على أنها «شلاّل جارف» ؛ فهي أول قوة مسلحة عبدت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط ، وكانت أول صدمـــة للسماحة الإسلامية وأول شرارة كهربائية في طريق «التغريب» والإصلاح ! ! في الشرق الأوسط .

---

(١) لم أستطع أن أجد اثراً مماثلا لما يورد المؤلف ولا حتى أثراً قريباً منه .

ولقد كان هذا متوقعا ـ إلى حد ما ـ بعد الهزائم المتلاحقة التي أصيب بها العثمانيون في الشمال، وردة فعل العثمانيين لهذه الهزائم، ولقد شاهد المسلمون كيف برهن بونابرت بسهولة قدرة أي جيش اوروبي أن يهاجم ويحتل ويحكم بقعة من قلب العالم الإسلامي؛ وكانت حملة بونابرت أيضاً بالنسبة للإنكليز مناسبة برهنت لهم عن السهولة التي تستطيع بها قوة عدوانية أن تقطع طريقهم البري إلى الهند؛ وهكذا تعلم المسلمون والإنكليز دروساً قيمة من حملة السويس كل بطريقته الخاصة، واستخلصوا منها أشياء وآراء، واتخذوا إجراءات مناسبة.

ورفعت حملة بونابرت أزمة التأثير الغربي إلى أوجها الحاد في العالم العربي، ثم افتتحت عهداً دام قرناً ونصف من التدخل المباشر الأنكلو فرنسي في أمور الشرق.

ولم ينته الخطر المحدق بالدولة العثمانية في الشمال، ولقد سيطر الروس في أواخر القرن الثامن عشر على الشاطئ الشمالي والشرقي للبحر الأسود ولم يعد هذا البحر بعد ذلك بحراً... (إسلامياً). !

وفي سنة (١٨٠٠) ضم الروس مقاطعة جيورجيا إليهم، وفي سنة ١٨٠٦ استولوا على (باكو) وفي أوائل القرن التاسع عشر أخذوا من ايران ومن الحكام المحليين هناك المقاطعات التي تشكل اليوم، جمهورية أرمينيا السوفيتية وأذربيجان.

وكانت الفترة مابين (١٨٥٠ ـ ١٨٧٠) فترة تطورات سريعة وهامة في الشرق الأوسط، ولقد كان لحرب القرم نفس النتائج

التي تحصل في أي حرب كبيرة من تبدلات سريعة وتغييرات في صفوف المعسكرين المتخاصمين أدت إلى توتر الأحاسيس والأعمال فلقد تحالفت فرنسا وانكلترا وأدى وصول القوات الفرنسية والإنكليزية إلى تركيا ، إلى احتكاك الأتراك بالغرب على خط واسع لم يسبق له مثيل . وبعد أن أوقف زحف الروس نحو الشرق الأوسط في حرب القرم وجه هؤلاء اهتمامهم إلى آسيا الوسطى ، وما بين سنة (١٨٦٠ــ ١٨٨٠) أخضعوا مناطق « بخارى وكيفا وكوكاند » لسيطرتهم وكان إلحاق المناطق الواقعة ما بين بحر الخزر **Caspeay Sea** ونهر الأوكسوس بعد ذلك سبباً في تدعيم مركزهم في آسيا الوسطى وعلى الحدود الشمالية الشرقية لايران .

وقام في القسم الاوروبي للدولة العثمانية مشكلاً من نوع آخر حيث كانت الحركات القومية الجديدة تهدد الأتراك بخسارة أراضيهم هناك ، وبخطر عدوى هذه الأفكار الخطرة وانتشارها في الدولة العثمانية .

وفي البلاد العربية مرّ التدخل والنفوذ الغربي بمراحل عدة ، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان اهتمام الغربيين مركزاً على التجارة والترانزيت ؛ وصحيح أن انكلترا أخذت موطئ قدم لها على الخليج العربي (الفارسي) وفي جنوب الجزيرة العربية حيث احتلت (عدن) إلاأن ذلك كان محدوداً بأطراف الدولة العثمانية البعيدة ، وكانت عدن مهمة جداً ، لأنها تقع في نقطة بحرية هامة وهي على طريق الهند . وكان جل اهتمام انكلترا ــ أكثر الدول الاوروبية نشاطاً في الشرق الأوسط في ذلك الوقت ــ منصباً على استقلال الدولة العثمانية ووحدة أراضيها .

وكان من الطبيعي المنطقي أن نفترض أن الأتراك ، كقوة موجودة مسيطرة ، سينحازون مع الذين يبدون اهتماماً اقتصادياً واستراتيجياً فقط ضد الأعداء الذين يهدفون إلى التوسع وإلى تفتيت دولتهم ولم تتخل انكلترا عن سياستها هذه إلا بعد تردد وتماهل طويلين ، وتعلق عاطفي كبير بتلك السياسة [1] ومثلنا على هـــذا التعلق ما جرى في السنين الأخيرة إذ حاولت انكلترا ، ومن بعدها أميركا ، محاولات فاشلة لاكتشاف ، بل لخلق قوة (شرق أوسطية) تحفظ وحدته واستقلاله ، وجاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتغييرات هامة ، فلقد تقدمت وتحسنت بسرعة طرق الترانزيت ، ونمت الإهتمامات الغربية الإقتصادية والمالية في المنطقة ، ومنذ ١٨٨٠ بدأت السياسة الإنكليزية تغير مواقعها خصوصاً بعد توسع النفوذ الألماني في تركيا وأصبح احتلال مصر سنة ١٨٨٢ ـ الذي كان لأهداف محددة ووقت محدود ـ دائماً بل توسع حتى شمل السودان .

وفي سنة ١٩١٨ تبعثرت الدولة العثمانية بعد أن هزمت واندحرت وقامت سلسلة جديدة من الكيانات السياسية غير المعهودة في المنطقة جمعت من أشلاء هذه الدولة .

وما بين ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ كانت فرنسا وانكلترا القوتين المسيطرتين في الشرق العربي وكانت بينهما منافسة ، وتعاون متقطع متقلب وحكمت عدن وفلسطين والسودان بنظام استعماري مباشر ، أما المناطق الأخرى فكانت السيطرة عليها غير مباشرة ! ؟ (إذا صح

---

(١) هذا أمر مشكوك فيه .

التعبير) . فلقد أقيمت حكومات محلية كان قسم منها تحت الإنتداب والقسم الآخر مستقلاً (إسمياً) . وله درجات متفاوتة من الصلاحيات والمسؤوليات المتغيرة وغير المؤكدة في سياسة أموره الخاصة .

وانتهت كل هذه الترتيبات في السنة الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، فلقد نالت جميع الدول العربية في الشرق الأوسط استقلالها السياسي ، وظهر قادة وموجهون جدد لممارسة هـذا الإستقلال باسم شعوب المنطقة ولم تبق إلا بعض المناطق القليلة في شبه الجزيرة العربية ، التي لم تنل استقلالها حتى الآن ، وهي آخر مناطق الإستعمار البريطاني .

وفي فترة قرن ونصف قرن من السيطرة الأنكلو- فرنسية في الشرق الأوسط - منذ الصراع المخيف بين نلسون - نابليون إلى التعاون العقيم بين (إيدن - موليه) مضافاً إلى الفترة الأطول من تأثير « التغريب » في تركيا ، نقول أحدث هذا التأثير والسيطرة تغيرات واسعة عميقة غير قابلة للعودة إلى الوراء على مختلف مستويات الوجود الإجتماعي ، ومن الطبيعي أن تكون أسباب هذه التغيرات نتيجة أعمال الحكام الغربيين الذين كان أكثرهم يمثلون المحافظة والحذر في سياساتهم ، إلا أن أكثر التغيرات الجذرية العنيفة التي حدثت ، قام بها (متغربو) الشرق الأوسط من حكامه الشرقيين بعزم وشجاعة !! ومغامرة، لأنهم نشدوا تطبيق الأساليب الاوروبية في الوصول إلى القوة ؛ وحاول التجار تطبيق التكنيكية الغربية في جمع الثروة ، وقلد المتعلمون الشرقيون أصحاب الفكر الغربي بعدما أخذوا بروعة

! ! ! أفكارهم وطاقاتهم العلمية ، وانعكس هذا التأثير الفكري رمزياً في تغيير اللباس وارتداء الزي الغربي .

ولم يترك المسلمون عاداتهم من قبل إلا مرة واحدة حين اتخذوا زياً أجنبياً من اللباس ، وكان ذلك في عهد الحكام المماليك في مصر في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، ولقد أمر السلطان بارتداء الرداء المغولي ، ورداء الرأس المغولي ، وإطالة الشعر على الطريقة المغولية ، ولقد طبق نفس الأسلوب السحري في ارتداء السراويل الاوروبية والستر الاوروبية في القرن التاسع عشر وبدأ ذلك في صفوف الجيش بأمر عسكري . ، ثم كان بعد ذلك في قطاع الموظفين المدنيين بأمر حكومي أيضاً ، وأخيراً عم اللباس بين المتعلمين من أبناء المدن من غير الرسميين عن طريق العدوى ! ! والمحاكاة .

ولقد أهمل اللباس المغولي في بدء القرن الرابع عشر الميلادي ربما لأن المغول اعتنقوا الإسلام .

أما اللباس الاوروبي في السترة والسروال فقد استمر وأصبح رمزاً للعلم والتقدم . وفي أيامنا هذه يسقط آخر عمود للمحافظة الإسلامية بزوال الطربوش والعمة ، ويحل محلهما غطاء الرأس الاوروبي .

ولقد بدأ الأمر كله في المحيط العسكري ، والسبب البسيط هو حب البقاء في عالم تسيطر عليه اوروبا المتوسعة المتقدمة ، واقتضى الأمر جيشاً على النمط الاوروبي ، فظهر الأمر سهلاً بالنسبة للعثمانيين

فقد ظنوا أنه سيكون فقط في حدود التدريب والمعدات ، ويمكن حل ذلك باستعارة بعض الخبراء ، وشراء المعدات والذخيرة اللازمة. إلا أن تأسيس جيش عصري يحتاج إلى بناء كليات للضباط ، وتطوير البرامج التعليمية وإنشاء أقسام جديدة ، وإجراء إصلاح في جهاز الحكم وخلق جهاز إداري جديد وبناء مصانع للتسليح والذخيرة وأخيراً . . . قاد كل ذلك بالضرورة إلى الإصلاح الإقتصادي .

وكان التقدم التكنيكي (التقني) والإقتصادي من صنع الغربيين ، فهم الذين بنوا الطرق وسكك الحديد والجسور والموانيء ، وأحضروا القاطرات البخارية في القرن التاسع عشر ، والقاطرات التي تسير بالبترول في القرن العشرين ، وكذلك الغاز والكهرباء ، والبرق والهاتف والراديو وبدأوا هم أول لبنة في التطور الصناعي .

وكان الغربيون إما خبراء يمثلون دولهم ، أو شركاتهم الغربية أو خبراء تستقدمهم حكومات الشرق الأوسط ، وتدفع لهم أجورهم ومرتباتهم ؛ وكان هؤلاء يشرفون على عمال محليين غير فنيين ولا حرفيين ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً ، فلقد أصبح عند الدول المحلية مصادر كبيرة للفنيين والحرفيين الوطنيين والذين حلوا بعد ذلك محل الخبراء الأجانب .

ومع قدوم السلاح الاوروبي والفنيين الاوروبيين استوردت الأفكار الاوروبية والتي كانت ، كالتكنيكية والعتاد ، محطمة للنظام السياسي والإجتماعي القديم ، فحتى القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي بعيداً كلياً عن كل احتكاك فكري وثقافي مع الغرب ؛

ولم تجد حركة الإنبعاث الاوروبي وما جلبته من علم ومعرفة وفن ، وما صاحبها من حركات فكرية في كل اوروبا المسيحية ، نقول لم تجد كل هذه أي صدى ولم تثر أي ردة فعل في أوساط المسلمين الذين كانوا يعتبرون اوروبا أجنبية غير ذات قيمة تستدعي الإهتمام.

حتى أن تأثير الصدمة على الصعيد الدبلوماسي والتجاري والتي لم يكن هناك مجال لتجنبها تماماً ، كان يضيع قبل أن يصل إلى المسلمين فقد كان هناك طبقة من الوسطاء المسيحيين واليهود الشرقيين يعملون كعملاء ووسطاء ومترجمين يمنعون عن أسيادهم المسلمين « لوثة » الإحتكاك المباشر مع الغربيين .

لم تكن للإمبراطورية العثمانية في إبان عظمتها أية سفارات في الخارج حتى أن علاقاتها بالسفارات الأجنبية في استنبول كانت تجري عن طريق « المترجمين » الكبار ، والذين كانوا عادة من اليونان ، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من المسلمين يتقنون لغة غربية ، وإذا استثنينا بعض الكتب التافهة القليلة فإن من الممكن القول أنه لم تجر أية ترجمة للكتب الغربية ، لا للعربية أو التركية أو الفارسية ولقد قال أحد المؤرخين العثمانيين : « إن الإختلاط بالكفار محرم على المسلمين ، ومن غير المرغوب فيه أن يختلط طرفان متناقضان بينهما من الإختلاف ما بين الليل والنهار » وجاء الإصلاح العسكري فغير كل ذلك ، وبدل أن ينعت الفرنجة بالبرابرة الجهلة ، أصبحوا معلمي أنبل وأخطر الفنون وهو فن الحرب ؛ ولم تعد لغة الفرنجة . . . رطانة أجنبية ــ كما سماها أحد الكتاب ــ بل أصبحت مفتاحاً للمعلومات الأساسية ولقد أراد المصلحون العسكريون أن يفتحوا ثغرة لمجرى محدود

في الحاجز تمرّر تياراً يمكن السيطرة عليه ولكنهم جاؤوا بالطوفان : طوفان ثائر جارف يعلوه الزبد ويتدفق من آلاف الشقوق والثغرات ويحمل الدمار . . . مع بذور الحياة الجديدة ! !

وظهر أن الطوفان ليس له نهاية . . . مثل مستحدثات اوروبا التي لا ينضب معينها ، فمع كل جيل تظهر أفكار جديدة . وفي القرن التاسع عشر ظهر تياران بارزان توافقا واختلفا مرات عدة : تيار الأحرار الراديكاليين الذي نتج عن الثورة الفرنسية ، وتيار المصلحين المتسلطين المتنورين . ولقد كان هناك أقنية عدة تسربت خلالها الأفكار الغربية إلى العالم الإسلامي المنعزل ، إذ كان الزوار المسلمون مثلاً يفدون من الشرق الأوسط ليظهروا بأعداد متزايدة في العواصم الاوروبية . ولقد زار منذ زمـــن بعيد بعض السواح المغامرين اوروبا بقصد اكتشاف ما فيها من مجهول بالنسبة لهم إلا أن الفترة التي مرت مابين الحروب الصليبية . . . حتى القرن السابع عشر لم تسجل أي رسالة أو كتاب لأحد هؤلاء السواح ، فلقد كان معظمهم من الموفدين في مهمات خاصة . وفي سنة ١٧٩١ أرسل السلطان سليم الثالث السيد (أبوبكر راتب أفندي) إلى فيينا حيث كتب هذا الأخير تقريراً مفصلاً عن الحكم الفردي المتنور وأسلوبه في العمل ، وسجل اقتراحات وتوصيات للإصلاح في الإمبراطورية العثمانية ؛ وفي السنوات التي تلت عيّن السلطان أول سفير دائم له في لندن وفيينا وبرلين وباريس . ثم افتتحت سفارة ايرانية في القرن التاسع عشر في اوروبا ، وبعد ذلك ظهر ممثلون للقوة المستقلة الجديدة التي برزت في مصر بزعامة محمد علي باشا ومن جاء بعده .

ولقد كان هناك حاجة ملحة لرجال يتقنون لغات أجنبية ويعرفون البلاد الأجنبية ، فكانت هذه السفارات المدارس الأولية التي خرجت هؤلاء والذين شكلوا بعد ذلك « صفوة السياسيين » .

ولم يبق العلماء والعسكريون الأبواب الرئيسية الوحيدة للنفوذ والسلطة بل أصبح المترجمون وموظفوا السفارات من المفاتيح الرئيسية أيضاً .

بعد الدبلوماسيين ... ظهر طلاب الشرق الأوسط ... في اوروبا ولقد كان لهم على المدى الطويل أهمية أكثر مما كان للدبلوماسيين ، وأول بعثة طلابية ذهبت من مصر إلى ايطاليا أرسلها محمد علي باشا سنة ١٨٠٩ ، وفي سنة ١٨١٨ كان هناك ثلاثة وعشرون طالباً مصريا في اوروبا .

ووصلت أول بعثة ايرانية إلى انكلترا في نفس الوقت تقريباً ، وفي سنة ١٨٢٦ أرسل باشا مصر أول بعثة كبيرة مؤلفة من أربعة وأربعين طالباً إلى باريس ؛ وما يستطيع أن يفعله الباشا . . . يستطيع أن يفعله السلطان أيضاً ! ! لذا أرسل السلطان محمد الثاني سنة ١٨٢٧ أول بعثة تركية مؤلفة من مئة وخمسين طالباً لعدة دول اوروبية ، وذلك بالرغم عن معارضة رجال الدين . وبعد ذلك بسنوات ارتفع عدد الطلاب كثيراً وبلغ الآلاف ؛ والطلاب يتعلمون عادة من بعضهم البعض أكثر مما يأخذون من معلميهم ، وما بين عام ١٨٢٠ ــ ١٨٤٠ كان في اوروبا أشياء كثيرة تعلمها الطلاب الشرقيون . ولعل هذه المعلومات كانت أحد أسباب ظهور طائفة جديدة من

الشرقيين في اوروبا وهم طائفة : « المنفيين والمبعدين » «فالشبيبة العثمانية » هم مجموعة من الوطنيين المتحررين ! الذين وجدوا أن من الأصلح ترك تركيا والبقاء في اوروبا والقيام منها بحملة انتقادية على وزراء السلطان ولقد أصدروا جرائد معارضة في كل من لندن وباريس وجنيف ، وأخذوا بتهريبها إلى داخل تركيا . ثم تبعهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مجموعة أخرى غير منظمة تماماً دعت نفسها « الشبيبة التركية » ومن آن لآخر كانت تصل فئات أخرى من المنفيين القادمين من الشرق الأوسط ، إلا أنهم كانوا قلة لم يظهروا أية حيوية .

وبالإضافة للزوارالشرقيين في الغرب كان هناك زوار غربيون للشرق الأوسط كمعلمين وباحثين وخبراء ومستشارين ومبشرين ودعاة وسياسيين وأصحاب أعمال ومقاولين .

وأول من أثر في الشبيبة المسلمة كـــان المدرسون العسكريون الاوروبيون الذين كانوا في تركيا ثم مصر وبعد ذلك في ايران . وكان أكثرهم من الفرنسيين واللغة التي استعملت للتفاهم كانت طبعاً الفرنسية ؛ ولم تقطع الثورة الفرنسية هذه الصلات مع الدولة العثمانية وحتى أنه في سنة (١٧٩٦) أرسلت حكومة الإمبراطورية العثمانية طلبـــاً للجنة الأمن القومي في باريس لتزويدها بعدد من الخبراء العسكريين والفنيين .

ولقد جاء هؤلاء الخبراء بقيادة سفير فرنسا الجديد في الدولة العثمانية وكان الجنرال (اوبر دوبايه) Aubert Du Bayet

وهو موا طن أصله من مقاطعة نيو اورلينز بأميركا ، ولكنه كان ثائراً متحمساً حارب في أميركا تحت قيادة لافاييت Lafayette
ولقد قيل لنا أن الكلية الحربية في استنبول كانت تحوي اربعمئة كتاب ، وأكثر هـــذه الكتب بالفرنسية ، وكان ضمنها مجموعة « الاناكلوبيديا الكبيرة » ولكننا نعلم أن وجود الكتب في مكتبة جامعية لا يعني بالضرورة وجود قراء لها ، خصوصاً إذا كانت بلغة أجنبية ، وتعبر عن أفكار غير مألوفة . والذي نستطيع قوله أن الكتب كانت بمتناول الشباب وأن بعض آرائها ظهرت في الأجيال التي تلت .

ولقد استعمل محمد علي باشا في مصر ضباطاً فرنسيين بقي عدد منهم حتى ما بعد سنة ١٨١٥ ، وكان معهد الرياضيات في القاهرة يضم مكتبة تحتوي على كتب فرنسية : منها كتب فولتير وجان جاك روسو ، وكتب لمؤسسات اوروبية أخرى . ولقد جاء مصر عدد غير قليل من البعثات العسكرية من دول مختلفة ، منها بعثة عسكرية أميريكية مؤلفة من الضباط وكـــان ذلك بعد الحرب الأهلية في أميركا . لذا كان العسكريون في الشرق الأوسط يشكلون الفئة التي تعرضت لأقوى وأطول احتكاك مع الغرب ، وكان لهذه الفئة مصلحة حيوية مهنية في الإصلاح الجديد و « التغريب » وهذا يساعدنا على تفسير أحداث وتفاعلات الشرق الأوسط غير المألوفـــة في المناطق الأخرى من العالم ، ودور الضباط المحترفين « كحربة » في ميدان التغيرات الإجتماعية .

لقد كان المدربون العسكريون الغربيون أول المعلمين، وكان هناك موجهون غيرهم في كل موضوع في مختلف أنواع المعاهد والمدارس.

وكان بعضهم يعلم في المدارس الحديثة التي افتتحت بأعداد متزايدة في الشرق الأوسط . وكان بعضهم يعلم في المدارس الأجنبية التي كانت تفتحها المؤسسات التبشيرية والحكومات الغربية كخدمة للإنسانية ! ! ! ووسيلة للسياسة الثقافية . ثم انضم لهؤلاء المعلمين الغربيين مجموعة من الشرقيين (المتغربين) الذين درسوا إمـا في اوروبا أو في المدارس الاوروبية في الشرق الأوسط وأتقنوا اللغة والأساليب الغربية .

وساعدت الكتب الاوروبية مساعدة قيمة في نشر أفكار وأخبار الغرب في الشرق الأوسط وبازدياد تعلم اللغات الاوروبية ازداد عدد القراء، والأهم من ذلك ازداد عدد المترجمين وعدد الكتب المترجمة . وفي القرن السادس عشر ترجم كتابان إلى التركية عن اللغات الغربية أحدهما ترجم سنة ١٥٧٢ بأمر من (ريّس أفندي) السكرتير الأول للشؤون الخارجية في الحكومة العثمانية ، وهو عن (تاريخ فرنسا) والثاني ترجم حوالي (١٥٨٠) وكان يضم مجموعة من الإكتشافات وعجائب العالم الجديد جمعت مواده من مختلف المصادر الأوروبية ، أما القرن السابع عشر فجاءبعدد من الكتب عن التاريخ والجغرافيا ودراسة عن تشخيص ومداواة مرض(السيفيلس) Syphilis وكان يسمى (الفرنجي) .

وجاء القرن الثامن عشر فزيدت الكتب المترجمة بعض كتب فرنسية تبحث في العلوم العسكرية وقد طبعت في استنبول ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر لم يكن هناك أكثر من عـدد قليل من الكتب التركية المترجمة عن اللغـات الأجنبية وكـان أكثرها

معلومات وحقائق مجمعة للإستعمال الرسمي ولم يكن هناك كتاب أجنبي واحد مترجم إلى العربية أو الفارسية .

وأول مبادرة إلى حركة الترجمة جاءت من فرنسا لأغراض الدعاية البحتة ، وإذا ترجم النداء الذي أصدرته لجنة المؤتمر الوطني للشعب الفرنسي في تشرين أول سنة (١٧٩٤) ، إلى اللغة العربية وطبع في كتيب صغير جمع النص الفرنسي والنص العربي معاً كمساعد لطلاب اللغات ولغيرهم من الناس . وترجمت كتب سياسية فرنسية أخرى إلى العربية والتركية ووزعت في الشرق الأوسط ؛ وقامت الحملة الفرنسية على مصر بترتيبات مفصلة لنشر الأخبار والآراء الفرنسية باللغة العربية . ولقد كان التأثير المباشر لكل هذا النشاط محدوداً على ما نعلم . والشيء الذي كان له تأثير أكبر هو حركة الترجمة التي نمت في القرن التاسع عشر في مراكز رئيسية ثلاث : تركيا ، ومصر ، وايران . وكان الأمر في مبدئه حكومي الطابع ينشر الآراء الرسمية التي تتبناها الدولة . والكتب التي ترجمت تحت رعاية حكام الشرق الأوسط تضم مواضيع عن نابليون وكاترين في روسيا وكتاب فولتير (بطرس الكبير) وتشارلز الثاني عشر . ولروبرتسون : « شارل الخامس » وتعليمات فريدريك الكبير لقواده ؛ ثم انتقلت حركة الطباعة والنشر والترجمة من رعاية الدولة إلى أيدي الناشرين والمترجمين .

وقد قدم الغرب أجواء جديدة للإتصال ، ففي القرن الثامن عشر ظهرت المطابع والكتب وفي القرن التاسع عشر : الصحافة ، وفي القرن العشرين : الراديو والتلفزيون وكل هذه الطرق لعبت دوراً

هاماً في نشر الأفكار الغربية وغيرها من الأفكار . وكانت الصحف في البدء رسمية ، وكانت أول افتتاحية لأول عدد من الجريدة الرسمية العثمانية في ١٤ أيار سنة ١٨٣٢ تبحث موضوع وظيفة الصحافة في نقل الحقائق والأخبار الصحيحة وتوضيح أعمال الحكومة وقراراتها لمنع سوء الفهم ، وقطع دابر الإنتقادات التي تبنى على المعلومات المغلوطة . ومن عمل الصحافة الإتيان بالمعلومات المفيدة عن الحركة التجارية والعلمية والفنية والأدبية . والصحيفة الأولى المستقلة في تركيا كانت صحيفة أسبوعية أسست سنة (١٨٤٠) بواسطة أحد الرعايا الإنكليز ! ! واسمه (وليم تشرتشل) ثم تبعتها صحف عدة بالتركية والعربية والفارسية وبعض اللغات الأخرى. ومع الصحافة ظهر الصحفيون كوجه جديد غير مسر في حياة الشرق الأوسط ، ثم ظهرت طائفة جديدة لا تقل أهمية عن الصحفيين وهي طائفة المحامين ، ولقد كان التشريع في الماضي هو الشريعة المقدسة وهي فرع من العلوم الدينية ، وكان العلماء هم وحدهم الذين يعملون كمحامين . ولقد جاءت الإصلاحات التشريعية والقانونية ثم أصدرت القوانين الجديدة وفتحت المحاكم لتطبق هذه القوانين . كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة جديدة من المحامين العلمانيين الذين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة السياسية الجديدة . وفي تطبيق الأساليب والأفكار السياسية الجديدة ولقد احتاج الصحفيون والمحامون والنماذج الجديدة من الضباط والموظفين المدنيين ، احتاجوا جميعاً إلى نظام تعليمي وبرامج تدريسية جديدة بدل الأسلوب التقليدي القديم في تعليم الدين والأدب .

وكان « غذاؤهم » في اللغات الغربية والأدب الغربي ، وفي التاريخ والجغرافيا والحقوق ، ثم بعد ذلك الإقتصاد والسياسة ، وأكثر هذه الموضوعات كان جديداً وغريباً إلا أنها كانت سهلة الفهم والحفظ عن طريق الكتب والمحاضرات ؛ وكان يمكن تمثل هذه الموضوعات مع الموضوعات التقليدية جنباً إلى جنب ؛ وكان اتقان هذه الموضوعات كلها متوقفاً على قوة المدرس وذاكرة الطلاب.

أما العلوم التطبيقية والفيزيائية فأمرها يختلف عن ذلك ، فبعد اندثار الروح العلمية العظيمة التي كانت عند المسلمين وحبهم للبحث والتجربة نشأ مجتمع يقاوم بشدة الفكر العلمي ، وفي تعبير لمؤرخ تركي في العلوم : « لقد تبدد تيار العلم أمـــام حواجز الآداب والتشريع ».

وكان هناك عائق لا يقل أهمية في سبيل انتشار الروح العلمية وهو نظرة المسلمين المتأصلة الجذور بالنسبة للجهد والعمل والسكون ... نظرة تجعل من المسلم حتى في هذه الأيام سائقاً شجاعاً فطناً وميكانيكياً كسولاً غير متفطن ! ! !.

وفي الكليات العسكرية الجديدة كانت علوم الطب والهندسة من أولى الموضوعات التي درست بالإضافـــة للعلوم المفيدة الأخرى التي كانت أول ما ترجم من نتاج الفكر الغربي إلى اللغتين التركية والعربية ، إلا أن كثيراً من خريجي المعاهد الطبية كانوا يفضلون العمل الإداري ولا يريدون «تلويث» أيديهم بجراثيم المرضى ؛ وبقيت المعاهد العلمية كنمو غريب وغير طبيعي بقي الغرب يرعاه ويحقنه

دورياً بدم جديد . ولم يكن هناك نمو علمي ذاتي كما جرى في اليابان والصين والهند مثلاً ، فكل جيل من الطلاب الجـدد يعتمد على المصادر الغربية ، أما الغرب فكان يتقدم بسرعة مذهلة . وكانت النتيجة هي الفرق الكبير في المعلومات العلمية والإمكانيات الفنية ، ومن ثم القوة العسكرية بين الشرق الأوسط والدول الغربية المتقدمة ؛ والفرق الآن بينهما هو أكثر مما كان عليه قبل مئة وخمسين عاماً وذلك عندما بدأت عملية « التغريب » .

وما بين آونة وأخرى يطرح مفكروا الشرق الأوسط في الأعوام الأخيرة سؤالاً يحتاج إلى جواب : ما هي نتيجة عملية « التغريب » ؟

وهذا سؤال يجدر بنا نحن الغربيين أن نوجهه لأنفسنا ؛ لقد كانت عادتنا التي تعودناها في العالم الغربي هي : كلما اتجه الشرقيون إلينا كلما ازداد تمسكنا بالغرب لنجعل أنفسنا مثالاً للفضيلة والتقدم . فإذا تشبهوا بنا عددنا ذلك أمراً حسناً وإذا لم يكونوا كذلك عددنا ذلك سوءاً وشراً .

فالتقدم هو في التشبه بنا أما إذا لم يقتدوا بنا فذلك هو التقهقر والإضمحلال ! ! إلا أن الأمر ليس كذلك بالضرورة ، فعندما تصطدم مدنيتان تسيطر إحداهما وتتحطم الأخرى ؛ .

قد ينبري المثاليون والمفكرون فيتحدثون بطلاقة وسهولة عن تزاوج بين أحسن العناصر من المدنيتين ، إلا أن النتيجة العادية في هذا التلاقي هي تعايش بين أسوأ العناصر من الإثنين .

وتأثير الغرب في الشرق الأوسط أتى بفوائد كبيرة ! ! وسيأتي حتماً بفوائد أخرى في مجال الثروة والرفاه والمعلومات والمصنوعات وفتح أبواب جديدة كانت مغلقة في الماضي . إنها دروب جيدة إلا أنه ليس من المؤكد والمعروف أين ستقود هـذه الدروب ؟ ! « والتغريب » الذي كان من عمل الغربيين بل كان أكثره من عمل (المتغربين) من أبناء الشرق ، جاء بتغييرات يُشك كثيراً في قيمتها. أول هذه التغييرات هو الإنحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها . فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر ، فالشاه يحكم ايران والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التي تشمل كل ما بقي من الشرق الأوسط ، وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم ، ولكنهم كانوا في موضع احترام ، والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم فالسلطان هو الحاكم بلامنازع ، لأنه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم تقريباً . . . ثم عزل السلطان . . . وهدمت الخلافة وقام مقامه عدد من الملوك والرساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم . . . ولكنهم لم يكونوا أبداً موضع الرضى التام والقبول الطبيعي والولاء الأكيد الذي كان ممنوحاً لحكومة السلطان الشرعية ، وهـذا الولاء والقبول والرضى جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماغوجية السياسية في الحكم .

وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط « هويتهم الواحدة » القديمة ، فبعد أن كان كل مواطن عضواً من أعضاء

امبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة ، والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة والتي تحاول الآن ايجاد جذور لها في ضمير الشعب وولائه . وصاحب نسف وانهيار النظام السياسي القديم على أية حال انحلال اجتماعي وثقافي مواز له وربما كان النظام القديم في حالة تفسخ ، ولكنه على أية حال كان قائماً بوظيفته حيث كانت الولاءات والمسؤوليات واضحة الحدود والمعالم تجمع جميع فئات الشعب في إطار واحد ثم دمرت الأساليب القديمة وسُخِر من القيم القديمة ثم أهملت ، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب ، والتي بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين في الشرق الأوسط بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم .

من الجائز أن هذه التغييرات كانت « ضرورية . . . لا مفر منها » كما يقول بعض المؤرخين إلا أن الحقيقة الأكيدة هي أن هذه التغييرات جاءت بفترة من الضياع والفوضى كانت بصورة عميقة الأذى بالنسبة للمجتمع ولنظام الحكم في الشرق الأوسط .

أما نتائج « التغريب » على الإقتصاد فهي واضحة لا تحتاج لشرح طويل . فالنمو السريع في عدد السكان وخاصة في — مصر — دون ازدياد مقابل في المواد الغذائية ، والفروق الشاسعة أحياناً بين الأغنياء والفقراء وظهور « شهيات » جديدة من المطامح ليس لها ما يكفيها

ويشبعها . كل هذه الأمور جعلت التوتر يتعاظم إلى درجة وصلت معها الحالة الآن لدرجة الإنفجار أو الإنهيار .

ولقد مرت أحاسيس أهل الشرق الأوسط نحو الغرب بعدة مراحل ففي القرون الكثيرة التي مرت كانت اوروبا ترتفع إلى مراكز أسمى وإنجازات أكبر بينما كان الشرق غارقاً في خدر مريح من التفسخ هذا إلى أنه ما أراد ، ولا تمكن من فهم التغييرات التي كانت قائمة على قدم وساق . وفي القرن التاسع عشر تحطمت التصورات الخاطئة في التعالي والإكتفاء الذاتي واستيقظ أهـــل الشرق الأوسط على الحقائق المرة التي كانت فيها بلادهم ، ومواردهم ومدنيتهم حتى أن « أرواحهم » كانت مهددة من اوروبا الفنية ذات القوى التي لا يمكن تصورها ؛ ولقد أبدت اوروبا ثقة لا حد لها بنفسها بالإضافة إلى رغبة عدوانية في الربح والسيطرة مما جعلها تظهر وكأنها تضع العالم كله في قبضتها.

وفي هذه الحالة بدأ مزاج الشرقيين يتغير من جهل وعدم اهتمام إلى منافسة قلقة حين أصبح الغرب قوياً وكبيراً . وقد تكون الدراسة والمحاكاة طريقاً لاكتشاف سر كبره وقوته ، ومن ثم تطبيق أساليب المراوغة السرية للوصول إلى عظمته وقوته ، ولذا ظهرت أحياناً من الطلاب المشوقين للدراسة بالإضافة إلى المصلحين ، الذين وهبوا أنفسهم للبحث والتنقيب. ومن الجائز أن لا يكونوا من محبي الغرب بل ولا من الذين يفهمونه إلا أنهم كانوا معجبين به ويكنون له الإحترام . أما اليوم فهم لا يفعلون لا هذا ولا ذاك : أي لا إعجاب ولا احترام .

وتغيرت الأمزجة فبدل الإعجاب والتقليد حل الحقد والحسد ؛ والحق أن فشلنا نحن الغربيين ، الفشل الخلقي والسياسي المحزن ، ساعد بدون شك على هذا التغير في النظرة والشعور . والشيء الثاني الذي ساعد على هذا التغير هي الدروس التي ألقيناها نحن الغربيين في الحرية ! واحترام القيمة الإنسانية للفرد ! ! ! ولقد قال محمد إقبال في قصيدة موجهة لإنكلترا عن رغبة الشرقيين في الحرية :

« كان عبير الورود هو الذي اجتذب العندليب إلى الحديقة
ولولا هذا العبير لما عرف العندليب أصلاً بوجود الحديقة »

إلا أن معظم هذه الموجة الحاضرة من العداوة نشأت عن أزمة ردة الفعل التي أظهرتها مؤخراً مدنية الشرق ضد تأثير قوى غريبة سيطرت عليها ، وأزاحتها بل وبدلتها . ومن الواجب الآن أن نهتم ونركز انتباهنا على التفاعلات الجارية بين التأثير الغربي وردة الفعل الشرقية تجاهه .

الفصل الثالث

العمل في سبيل التحرر

في سنة (١٨٧٨) ذهب دبلوماسي تركي شاب يدعى سعد الله ليشاهد المعرض الكبير الذي أقيم في باريس . ولقد كتب في رسالة يصف بها ما شاهد :

« أمام المدخل الرئيسي يوجد تمثال الحرية ، والتمثال جالس على مقعد وبين يديه رمز ، إن منظر التمثال وشكله يوحي بالنداءالتالي : أيها الزوار الفضلاء عندما تتملون هذاالعرض المدهش للتقدم الإنساني لا تنسوا أن هذه المنجزات كلها هي من صنع . . . الحرية ، وفي ظل الحرية تبلغ الشعوب والأمم هدفها في السعادة ، فبدون الحرية لا توجد الطمأنينة وبدون الطمأنينة لا يقوم الجهد وبدون الجهد لا يكون الرفاه وبدون الرفاه لا تتأتى السعادة » .

فالحرية إذن هي من متطلبات العمل على السعادة عن طريق المراحل التي عددها هذا الدبلوماسي التركي وفي هذه الكلمات عبر سعد الله

عن وجهة نظر جميع (الشرق أوسطيين) الذين « اكتشفوا » اوروبا في القرن التاسع عشر ، وجهة النظر التي تقول إن الحرية السياسية هي سر مصدر القوة والنجاح في الغرب ، فهي إذن المصباح السحري الذي يمكن للشرق أن يتوسل به ليحصل على عبقرية التقدم وهذه بدورها تكسبه الكنوز الخيالية الفاخرة التي يمتلكها « الغرب » الغامض !

وعلينا أن نقف هنيهة في هذا المجال لنحدد مفاهيم بعض التعابير : الحرية والإستقلال ، كلمتان استعملتا في بعض الأحيان كمترادفتين ، إلا أن بينهما فرقاً بيناً ، ولتوضيح ذلك نحددهما مؤقتاً بقولنا .

الحرية : هي تعبير سياسي يدل على وضعية شخص ضمن مجموعة من الأشخاص وعلى حصانة هذا الشخص المواطن ضد أي عمل اعتباطي أو غير قانوني من جهة الحكومة ، وعلى حق هذا الشخص المواطن في المشاركة بتشكيل وسلوك الحكومة .

والإستقلال : يرمز لوضعية مجموعة بالنسبة لمجموعة أخرى ، ويرمز لقيام الدولة وسلطتها غير الخاضعة لأية سلطة أجنبية عليا : فالحرية والإستقلال تعبيران غير مترادفين في بعض الحالات يرمزان إلى أهداف مختلفة تماماً .

وتحفظ الحرية وتمارس عن طريق شكل من التنظيم السياسي سماه الذين يمارسونه الآن « النظام الديموقراطي » وفي هذه الأيام تستعمل كلمة الديموقراطية مع نعوت مختلفة لها مثل الديموقراطية الإجتماعية

والديموقراطية العضوية ، والديموقراطية الأساسية ، والديموقراطية الشعبية ، والديموقراطية الموجهة ، وكل واحدة تعني شيئاً معيناً مختلفاً عن الآخر . وهناك الآن الديكتاتورية الماركسية الجديدة ، وهناك الاستفتاء الشعبي الذي يكون عادة بالإجماع لتبرير الحكومات الإنقلابية العسكرية ، وهناك الملكيات الوادعة والأحزاب الشعبية ، ولا علاقة لنا في هذا البحث بكل ما ذكر من نظم وأشكال ، إن اهتمامنا فقط هو في التمثيل الحر والحكومات الدستورية والمحاولة التي جرت لإدخال هذا الشكل من الحكم إلى الشرق الأوسط ؛ وقصة هذا الموضوع محزنة حقاً ! ! .

وفكرة الحرية السياسية في الشرق الأوسط ظهرت للمرة الأولى في أواخر القرن الخامس عشر ثم نمت وترعرعت خلال القرن التاسع عشر ومن ثم . . . ماتت في أكثر بقاع المنطقة في أواسط القرن العشرين .

ورغماً عن العقيدة الشورية التي جاء بها الإسلام وفسرها فقهاؤه والتي طبقت في بدء الخلافة الإسلامية ، كانت التجربة السياسية في الشرق الأوسط في عهود الخلفاء والسلاطين صورة لحكم الفرد في أكثر الأحيان ، حيث كانت طاعة الحاكم واجباً دينياً وسياسياً وعصيانه خطيئة وجرماً دنيوياً .

وبرغم كون العاهل المسلم حاكماً فرداً إلا أنه لم يكن مستبداً ظالما فلقد كان خاضعاً نظرياً ، وإلى حد كبير عملياً ، لشريعة الإسلام المقدسة ، ففي القرن الثامن عشر كانت السلطة الفعلية للسلطان

العثماني محدودة بقوة العلمــاء وحصانتهم من جهة ، وبالجيش الإنكشاري وحكام الولايات من الجهة الأخرى ، إلا أنه لم يكن لهذه القوى مجالس تمثيلية منظمة .

فالشرع الإسلامي لا يعرف المجــالس التمثيلية الشرعية [١] وليس في التاريخ الإسلامي أخبار عن مجالس أو مجامع أو برلمانات ولا أي نوع من الجمعيات التمثيلية والإنتخابية ، ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء المسلمين لم يقبلوا أبداً فكرة (قرار الأغلبية) . لم يكن هناك حاجة لبحث هذا الموضوع عند فقهاء المسلمين لأن الفرصة لم تسنح أبداً لقيام أسلوب القرارات الجماعية . ففي السماء إله واحد لا إله غيره ، وعلى الأرض لاتوجد محاكم قضائية بل قاض واحد وليست هناك دولة بل حاكم واحد [٢] .

وأول ثلمة في هذا الحكم الفردي التقليدي حدثت بتأثير أفكار الثورة الفرنسية وبــدأ الإهتمام ينمو شيئاً فشيئاً ، ففي نيسان سنة ١٧٩٧ كان للرحالة الإنكليزي و . ج . براون محاورة مع السيد حسن جنبلاط أحد زعماء الدروز في كسروان في شمال لبنان وكان الزعيم الدرزي كثير الأسئلة مشوقاً لمعرفة دوافع وتاريخ الثورة

---

(١) يعمد الكاتب هنا للمغالطه أو أنه يقع في غلط عن غير قصد (هذا إذا احسنا النيه) لم يكن في التاريخ الإسلامي برلمانات ، هذا صحيح ، ولكن المجالس الشورية ولو لم يكن لها الرأي النهائي كانت شكلا من اشكال تبادل الرأي ، والمبايعه كانت شكلا من اشكال الانتخابات والاختيار .

(٢) إن عرض الواقع التاريخي الإسلامي بهذا الشكل المتجني يجعلنا نشك ، رغما عنا ، بحسن نية الكاتب فالعرض ليس سليما ولا دقيقا ولا موضوعيا .

الفرنسية ومعتقدات الشعب الفرنسي الدينية بعد الثورة . ولما سمع من الرحالة الإنكليزي تفاصيل ما أراد لم يعقب مباشرة عليها بأي شيء . وفي السنة التالية تيسرت تفاصيل مثيرة ودقيقة أكثر ، مع وصول الفرنسيين لمصر. وفي تركيا ، عرفت الأفكار الثورية قبل هذا التاريخ وكان للسفارة الفرنسية وأصدقائها ايجابية نشر هذه الأفكار. وفي الرابع عشر من تموز عام ١٧٩٣ احتفلت الجالية الفرنسية في الدولة العثمانية احتفالاً مهيباً تلت فيه وثيقة حقوق الإنسان وأقسم الفرنسيون يمين الولاء للجمهورية وشربوا نخب الجمهورية الفرنسية والسلطان سليم الثالث ونخب جيش الوطن الأم وأصدقاء الحرية والأخوة العالمية ؛ وفي السنة التالية أتاح يوم رفع علم الجمهورية ، الفرصة لاحتفالات أكبر بلغت أوجها بتحية قامت بهـا قطعتان بحريتان فرنسيتان كانتـا راسيتين في (سيراغليو) ، وانتهى الإحتفال برقصة الجمهورية حول شجرة الحرية التي زرعت في الأراضي التركية في حديقة السفارة الفرنسية .

وليس هناك أي دليل على أن الأتراك اهتموا كثيراً بهذه التظاهرات إلا أن الأفكار التي مثلتها هذه التظاهرات بدأت تتسرب أولاً في دائرة ضيقة محدودة ، ثم انتشرت بين مجموعات أكبر فأكبر من « صفوة » المثقفين وأثمرت بعد ذلك شجرة الحرية . وكانت الثورة الفرنسية هي الحركة الكبيرة الأولى في اوروبا التي لم يعبر عنها تماماً بالأسلوب المسيحي ، ولذا كان من السهل لمبادئها أن تنتشر دون عائق وتمر خلال الأقنية التي فتحت في العالم الإسلامي ؛ وقام جيل جديد أخذ بروعة فكرة « حرية ، مساواة ، إخاء » . وبعد مدة

جاء خلفاء هذا الجيل الجديد ليقرروا رضاهم بالحرية والمساواة أما الإخاء فموضوع يحتاج إلى إعادة تحديده .

وأول خطوة اتخذت في سبيل حكومة دستورية كانت سنة (١٨٠٨) عندما دعا الوزير الأكبر (بيرقدار مصطفى باشا) لاجتماع حضره الأشراف وأعيان المقاطعات ووجهاء استنبول وبعد مفاوضات وقعوا ووقع السلطان على اتفاقية للعمل . وكان لهذا الإجتماع تفسيرات مختلفة إلا أن الإجتماع والإتفاق لم ينتج عنهما شيْ . وفي سياق حكم الإمبراطورية العثمانية كـــان يدعى لعقد اجتماعات تسمى « مشاورة » لبحث أمور الساعة الطارئة ، إلا أن الجديد والمهم في موضوع اتفاقية العمل هو أنها عقد متبادل حقق التفاوض بين السلطان كفريق أول وبين مجموعة من أتباعه ورعاياه وكان هذا الفريق الثاني يمثل طرفاً مستقلاً حصل على بعض الحقوق والإمتيازات التي تنازل عنها الفريق الأول أي السلطان والمشاورة واجب يفرضه القرآن الكريم وقد مارسها من آن لآخر حكام المسلمين مع مستشاريهم وكبار موظفيهم وعلمائهم وموظفي الحاشية[1] .

وجاء القرن التاسع عشر بأول محاولة لتوسيع وتنظيم الشورى ولقد كان للفرنسيين سابقة بإعطاء مثل ذلك حين عينوا بعض اللجان الإستشارية عند احتلالهم لمصر ، وفي سنة ١٨٢٩ شكل محمد علي باشا (مجلساً للمشاورة) مؤلفاً من مئة وستة وخمسين عضواً (١٥٦)

---

(١) يعود الكاتب هنا ويعترف ، منا قضا نفسه ، انه الشورى طبقت في بعض عهود الحكم الأسلامي بعد الخلفاء الرشدين ، ولقد انكر الكاتب ذلك ، الصفحة السابقة .

على أساس التسمية . وكانوا مؤلفين من ثلاثــة وثلاثين (٣٣) موظفاً رسمياً من الإدارة المركزية ، وأربعة وعشرين (٢٤) موظفاً رسمياً من المقاطعات وتسعة وتسعين (٩٩) عيناً من الأعيان . وكانوا يجتمعون فقط مرة واحدة في السنة، ليوم أو أكثر ، ليناقشوا مواضيع مثل الزراعة والتعليم والضرائب ؛ وعندما احتل محمد علي باشا فلسطين وسوريا عين ولاته مجالس شورى في كل بلد رئيسي وكان لهذه المجالس وظيفة استشارية وقضائية ؛ وفي سنة ١٨٤٥ جرب السلطان عبد المجيد العثماني مجلساً لممثلي الولايات، فكل ولاية كانت تختار اثنين من أبنائها الموثوقين المعتبرين من أصحاب الحكمة والذكاء ، الذين يعرفون متطلبات التقدم والرفاه ، ولهم إطلاع أكيد على خصائص الشعب وحاجاته . وبالرغم عن هذا المستوى العالي من الشروط التي وضعت للممثلين ، لم ينتج عن التجربة شيء يذكر ، ولذلك أهملت بعد ذلك؛ وقام الشيء نفسه وأدى إلى النتيجة نفسها في ايران ، بعد ذلك الوقت بقليل .

وفي الوقت الذي كــان فيه السلطــان والباشوات يجرون التجارب لتشكيل مجالس استشارية كــان بعض رعاياهم يتبنون أفكاراً جذرية أكثر تطرفــاً . وكلمة حرية باللغة العربية الأدبية تعني وصفاً شرعياً معيناً يدل على الإنسان الحر تمييزاً له عن الإنسان العبد ، وعندما بدأ استعمال تعبير الحرية السياسية كان رد فعل الكتاب المسلمين بالنسبة لها عدائياً متشككاً ، فهي شر . . . مثل التحرر المنطلق بدون قيود . . . ومثل الفوضى . ولم يدم ذلك طويلاً . . . إذ اتخذ الكتاب المسلمون بعد ذلك موقفاً أكثر ايجابية

بالنسبة للحرية السياسية ؛ وما بين عام ١٨٢٠ ــ ١٨٤٠ بدأ الشباب المسلمون يفدون على اوروبا للبحث عن العلم وعن السر الغامض في قوة الغرب ، وكان في اوروبا آنذاك أصوات تدعوا لحسنات التحرر ، وكان الهدف الذي يدفع هذه الأصوات سواء أكانت تمثل رجال الفكر ، أم رجال الأعمال ، واحــداً في الحالتين والذي أدهش الزائر الغريب في الغرب هو الدعوة إلى حكومة نيابية دستورية ، لذا لم يكن من المستغرب أن أكثر هؤلاء الزوار الشرقيين اقتنعوا أن هذه الدعوة هي « التعويذة » أو « الرقية » التي يحتاجها الشرق الأوسط .

وأول (شرق أوسطي) بدأ يناقش ويمدح النظام البرلماني هو مصري أزهري يدعى الشيخ رفاعة الرافعي الطحطاوي ؛ ففي سنة (١٨٢٦) عندما كان هذا الشيخ في سن الخامسة والعشرين صاحب البعثة الطلابية المصرية إلى باريس ، وبقي هناك حتى عام (١٨٣١) ولم يكن هو في عداد البعثة بل كان المشرف الديني عليها ؛ والظاهر أنه تعلم واستفاد أكثر من أي عضو آخر في هذه البعثة . ولقد أصدر كتابه بالعربية سنة ١٨٣٤ ثم تُرجم الكتاب إلى التركية سنة ١٨٣٩ وفيه وصف لمشاهداته في فرنسا فهو يصف النظام البرلماني ، وغاية هذاالنظام هوتأمين حكومة خاضعة للقانون تحمي المواطن من الطغيان أو على الأصح كما قال ، (تعطي المواطنين فرصة لحماية أنفسهم) ولقد كان الشيخ رفاعة شاهد عيان لثورة (١٨٣٠) وفسر سببها بقوله إن الملك قد خلع لأنه خالف الدستور وحاول الحد من الحريات التي نص عليها الدستور . ولقد علق أهمية كبرى على الصحافة تلك

الأوراق المسماة : (الجورنالات والفازيتا) ! ! كأداة ضد سوء استعمال سلطة الحكم وكطريقة لنقل وتبادل المعلومات والأفكار ويضم الكتاب ترجمة كاملة للدستور الفرنسي مع التعليق . لم يكن الشيخ رفاعة (متحرراً ثورياً) بل مواطناً مخلصاً من رعايا محمد علي وخلفائه ، وقد خدمهم بأسلوب متميز عدة سنين . أما تعاليمه السياسية ، بعد أن عاد لمصر ، فقد كانت تميل للحذر والإعتدال فللحاكم أن يملك ، وأن يحكم ، ولكن عليه أن يستعمل سلطته بحكمة ، وعدل ، واحترام أكيد للقانون ولحقوق المواطنين ؛ وهذا هو اتجاه أقرب إلى الحكم الفردي المتنور منه إلى الثورة : وهذا الحض والنصح للحاكم ليحكم بالعدل هــو من صميم التقاليد الإسلامية الكلاسيكية الموجودة في الكتابات الإسلامية السياسية ؛ أما الجديد في الموضوع الذي طرقه فهو فكرة حق الرعية في العدل ، وأن نوعاً من الجهاز يجب أن يقوم ليؤمن هذا الحق[1] .

وظهر نفس الأسلوب المعدل . . . للمحافظة في كتابات السيد صادق رفعت باشا السفير العثماني في فيينا سنة ١٨٣٧ وقد يكون ذلك بتأثير « مترنيخ » فهو يتكلم أيضاً عن حقوق الشعب وحقه في الحرية ، ويعني التحرر من الضغط الذي تمارسه الحكومات الإعتباطية

---

(١) ليس هذا جديداً على الكتاب المسلمين ، بل إنه الخليفة الثاني بعد رسول الله الفارق عمر اعلن ذالــك قبل الف وثلاثمئة عام حين قــال « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » وفي هذا القول تأكيد لما تقول به تعاليم الإسلام من ان حرية المواطن حق منحه الله له وعلى أولياء امور المسلمين ان يؤمنوا هذا الحق لكل مواطن من المسلمين وغير المسلمن في الدولة الإسلامية .

والواقع أن اتجاه الحكومات كان لزيادة الضغط لا لتخفيفه ، فظهور الأجهزة الأدارية الحديثة من جهة ، وإدخال الأساليب الحديثة في الإتصال والتماسك بين الأطراف من جهة أخرى ، جعلت الحكومة أقدر على السيطرة وسياسة الدولة بحزم وقوة أكثر أما القوى المعدلة التي كانت تقف بين الحكومة والشعب كالعلماء والعسكريين وأصحاب الأراضي والمصالح الزراعية فقد أبطل مفعولها ، أو ضعفت إلى حد كبير ، وهكذا تُركت الحكومة وحدها لا يردع أعمالها ويحدها إلا الفرامانات والمراسيم التي تصدر من آن لآخر .

وبسبب من عدم استيعاب الشعب لمفهوم الفرامانات التي تحدد الحقوق المدنية ، وبسبب تباطؤ المو ظفين الرسميين في التطبيق المخلص ، وبسبب عدم وجود فئات قوية ذات مصلحة أو ذات رأي ، بسبب ذلك كله لم يكن لفرامانات الحقوق المدنية تأثير يذكر.

وعند هذه النقطة بدأ الإنشقاق والتباعد بين دعاة الإصلاح ، ودعاة الإنقلابية الجذرية أي بين الأمراء العثمانيين المتنورين وبين الثورة . فدعاة الإصلاح محافظون يؤيدون الحكم السياسي القوي ويسعون لتطبيق الأساليب الحديثة لتقوية وإغناء بلادهم ، ويستعملون كل القوى التي تكتسبها الدولة في هذا السبيل . أما دعاة الثورة ففيهم تقدميون ورجعيون ! ! ينتقدون الإصلاحات وينتقدون أكثر منها أساليب تطبيقها ويرون العلاج في الدستورية وفي آراء اقتبسوها من

المتحررين الاوروبيين إلا أنهـا كانت تنسب في الغالب للتعاليم القرآنية والعقيدة الإسلامية [1] .

وكانت الخلافات العقائدية القائمة تتعقد بعوامل شخصية ومناحرات سياسية وخصوصاً المنافسة التي كانت قائمة بين عثماني استنبول وخديويي القاهرة ، والتي شكلت عاملاً هاماً في سياسة الشرق الأوسط طيلة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وما بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ ، تقدمت الفكرة الدستورية في الشرق الأوسط خطوة مهمة . ففي سنة ١٨٦١ أعلن باي تونس الدستور وهو أول دستور في البلاد الإسلامية وكان الباي حاكماً له استقلال ذاتي إلا أنه تابع إسمياً لسيادة العثمانيين التي كانت ضائعة مائعة . وبقي الباي حاكماً دينياً ودنيوياً وأبقى السلطة التنفيذية بيده وبيد وزرائه غير أنه كان معهم مسؤولاً أمام المجلس الكبير المؤلف من ستين عضواً بعضهم معين بواسطة الباي وبعضهم منتخب لمدة خمس سنوات . وكانت السلطة القضائية مستقلة يمارسها مجلس قضاء مستقل أما السلطة التشريعية فكان يمارسها المجلس الكبير والحكومة مجتمعين .

ولقد اوقف العمل بالدستور التونسي سنة ١٨٦٤ ، إلا أن الموجة الدستورية تتابعت في مناطق أخرى ؛ وفي سنة (١٨٦٦) حصل تطور هام جديد في أراض أخرى تحت السيادة العثمانية وقريبة من

---

(١) هذه الأراء اسلامية الأصل تركمت عليها طبقة من غبار الإنحطاط . وعندما حمل الأوروبيون آراء شك ، كان كل ما صنعوه بالنسبة للعالم الإسلامي هو تذكير المسلمين بما عندهم ، دون ان يقصد الأوروبيون هنا التذكير طبعاً . فـلا مجال للقول ان المسلمين اقتبسوها من الأوروبيون

تركيا وهي رومانيا ، فلقد أعلن فيها دستور متحرر استند إلى الدستور البلجيكي الذي أعلن عام (١٨٣١) . وفي مصر ألّف الخديوي اسماعيل « مجلس شورى النواب » وكان مؤلفاً من خمسة وسبعين عضواً منتخبين بطريقة مدرسية غير مباشرة لمدة ثلاث سنوات وكانت الشبيبة العثمانية الدستورية التي لجأت سنة ١٨٦٧ إلى انكلترا وفرنسا ، تنال مساعدات مالية من شقيق الخديوي مصطفى فاضل باشا وبعد ذلك صارت تنال مساعداتها المالية من الخديوي اسماعيل مباشرة . وبعد نكسات عدة لاح النجاح لهؤلاء اللاجئين الدستوريين سنة ١٨٧٦ ، وذلك عندما أعلن السلطان الجديد عبد الحميد الثاني الدستور في استنبول وكان هذا الدستور متأثرا مباشرة بالدستور الملكي البلجيكي المتحرر ، وبصورة غير مباشرة بالإعلان البروسي الذي صدر سنة (١٨٥٠) مستنداً إلى المبادئ البلجيكية المتحررة التي عدلت بصورة طفيفة لتتناسب مع تقاليد السلطة البروسية في الحكم الفردي .

وكانت هناك مواد في الدستور العثماني تنص على انشاء مجلس شيوخ يعين أعضاؤه بالإنتقاء ومجلس منتخب للنواب ، مع اعتراف متكلف إلى حد ما ، بمبدأ فصل السلطات . ولم يطل عمر هذا الدستور فبعد انتخابات عامة اجتمع أول برلمان عثماني في آذار (مارس) سنة(١٨٧٧) وبقي حتى حزيران ، ثم قامت انتخابات جديدة في كانون الأول وبدأ يظهر فيها عزم ينذر بالخطر . . . ثم حل السلطان البرلمان في ١٤ شباط (فبراير)ودامت حياة البرلمان العثماني

الأول دورتين نيابيتين دامتا خمسة أشهر ولم يجتمع أي برلمان بعد ذلك إلا بعد ثلاثين عاماً .

لم تكن الإصلاحات الدستورية الأولية عبارة عن حركة منافسة أو مناظرة لاوروبا ، فلقد كانت لها صفة الاسترضاء ، وقصد منها أن تظهر أن مؤلفيها هم أيضاً متمدنون وتقدميون ــ بالمقاييس الأوروبية ــ ! ! ولذا فهم أهل للإحترام ، وهم مؤهلون لينالوا قروضاً أو أشكالاً أخرى من الإعتبار ؛ وفي الحالات المتطرفة . . . كان القصد من هذه الإصلاحات درء أي تدخل أو احتلال أجنبي

ولم تصب هذه الإصلاحات الدستورية حظاً كبيراً من النجاح فلقد كانت متقطعة ومحدودة التأثير ولم يمنع الدستور التونسي القصير العمر ولا تجربة البرلمان المصري الذي دام أكثر بقليل، لم يمنعا التدهور نحو الإفلاس والفوضى والسيطرة الأجنبية ثم . . . الإحتلال الأجنبي ويظن بعض المراقبين أن هذه التجارب الدستورية كانت عاملاً في الإسراع بالتدهور . وفي تركيا قرر السلطان عبد الحميد وهو آخر حاكـــم فرد مصلح في القرن التاسع عشر أن يتخلص من شباك الديموقراطية ليحقق لبلاده التقدم الحديث المرغوب بأساليب أكثر اعتدالاً وتقليدية . وفي السنوات الثلاثين التي تلت لم يكن في الشرق الأوسط كله مؤسسات دستورية باستثناء مصر ، فلقد أتم مجلس (١٨٦٦) عمره المحدد ثم خلفه مجالس مماثلة سنة (١٨٦٩) و (١٨٧٦) و (١٨٨١) وفي سنة ١٨٨٢ إبان ثورة عرابي أعد البرلمان مشروع دستور برلماني . وعندما فشلت الثورة ألغي المشروع وحل المجلس .

ثم بدأت مرحلة جديدة بعد الإحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ ، فلقد أرسل لورد (دوفرين) إلى مصر ليعيد تنظيم حكومة البلاد المصرية وكتب اللورد إلى ناظر الخارجية البريطانية اللورد كسرانفيل في لندن أن علـى الإحتلال البريطاني أن يقوم على أساس الإستقلال الوطني . . . ! ! والحكم الدستوري ! ! ! [1] ولم يحظ القسم الأول من طلبه بالاهتمام اللازم بسبب الأحداث المتطورة بالرغم من أنه لم يهمل ! ! .

أما الطلب الثاني فلقد كان دائماً موضع اهتمام السلطات الإنكليزية في لندن والقاهرة التي قامت بمسعى جدي (! !) لإقامة الحكومة على أساس دستوري (! !) وإعطاء الصحافة حرية محدودة إلا أنها كانت كافية لاجتذاب كتاب وصحفيين ونقاد من الدول المجاورة وكان لهؤلاء الكتاب استقلال مطلق . . . وحرية محدودة (! !) ولقد نص قانون أجهزة الحكم في مصر الذي أعلن سنة ١٨٨٣ على تأليف مجلسين شبه برلمانيين أولهما مجلس تشريعي مكون من ثلاثين عضواً ، أربعة عشر منهم معينون دائمون والستة عشر الآخرون منتخبون لست سنوات بالإقتراع غير المباشر .

أما الثاني فهو جمعية عامة مؤلفة من وزراء الخديوي وأعضاء المجلس التشريعي وستة واربعين آخرين منتخبين لست سنوات . ولم يكن هذا الجهاز شبه الدستوري بديلاً لما تطلع إليه المتحررون من غايات دستورية ؛ فالناخبون محدودون وسلبيون ، والمجلسان

---

(١) كيف يكون الإستقلال والحكم الديموقراطي مع وجود الإحتلال الأجنبي ؟؟

محدودا السلطة الإستشاريـــة ، وعدد اجتماعاتهما قليل ، ومدة الإجتماعات قصيرة ، مما جعل هذا الشكل الدستوري ضعيفاً فقيراً في معانيه وامكاناته ، بالرغم من وظيفته التي كان يؤديها بانتظام منذ عام (١٨٨٣ — ١٩١٢) . ومن الأمانة أن نذكر أنه كان لهذا الجهاز الدستوري أكثر من فرصة برهن فيها عن استقلاله ! بتأكيد آرائه التي كانت تخالف رأي الخديوي والسلطات المحتلة . وفي سنة (١٩١٣) اعترف بسلطته النامية عندما دمج المجلسان في مجلس واحد أقوى مما كـــان عليه الإثنان منفردين أو مجتمعين وسمي الجمعية التأسيسية . وكانت هذه الجمعية تتألف من الوزراء وسبعة عشر عضواً معينـــاً وستة وستين منتخبين على درجتين لمدة ست سنوات يتجدد ثلثهم كل سنتين . وربما كان هذا التجديد الدوري لبعض أعضاء المجلس بتأثير من النظام الأمريكي . وكان الإنتخاب الأولي في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٣ وبقيت الدورة مفتوحة من كانون الثاني (يناير) حتى حزيران (يونيو) من عام ١٩١٤ ؛ ولم تقم بعد ذلك أيـــة انتخابات أو مجالس إلى ما بعد انتهاء الحرب .

وفي الوقت نفسه قامت في الشمال من الشرق الأوسط تطورات أكثر جذرية ، ففي سنة (١٩٠٥) طافت نشوة عارمة في رؤوس الآسيويين عندما نجحت للمرة الأولى إحدى القوى الآسيوية وهي اليابان في دحر قوة اوروبية وهي روسيا في البر والبحر . واستغل بعض الناس هذا الحدث ليروجوا أن الدولة الشرقية المنتصرة لم تنجح في معركتها إلا لأنها الدولة الآسيوية الوحيدة التي مشت على نظام

الحكم الدستوري البرلمـــاني ، ولم يكن انكسار الدولة الاوروبية (روسيا) إلا لأنها رفضت اتباع هذا السبيل في الحكم .

وفي روسيا قامت ثورة أجبرت (القيصر) وهو حاكم البلاد على التنازل عن بعض قوته وأعلن بما سماه بالدستور ، ودعا أول مجلس نيابي واسمه (Duma الدومـــا) . وفي مصر أصدر الزعيم الوطني مصطفى كامل كتاباً سماه (الشمس الطالعة) عرض فيه مَثَل اليابان واستخلص منه أن كل شعب شرقي قادر على القيام بتجديد نفسه والنجاح في ذلك . وفي تركيا أصدر ضابطان عسكريان كتاباً في خمسة أجزاء فصّلا فيه الحرب اليابانية الروسية . وفي ايران قامت ثورة دستورية في صيف عام ١٩٠٦ وأجبرت الشاه على دعوة جمعية وطنية نظمت مشروع دستور تحرري . وبعد عامين خاف الضباط المنتمون إلى حركة الشبيبة التركية من أن يكون اجتماع العاهلين الإنكليزي والروسي في (ريفال) ، لتصفية الرجل المريض في اوروبا (وثبت بعد ذلك أن الأمر لم يكن لهـــذا الموضوع) فقرروا استعمال « جرعة » جديدة من العلاج الدستوري ، وأجبروا السلطان المتردد على إعادة إعلان دستور عام (١٨٧٦) وبذلك افتتحوا عهداً دستورياً ثانياً أطول من الأول وأكثر منه حيوية وانفعالاً .

وبانتصار الحلفاء على خصمهم ــ الذي كان نوعـــاً ما ــ أقل ديموقراطية في نظامـــه ، وبانهيار الدولة الوحيدة ذات الحكم الفردي في معسكر الحلفاء ، ظهر الرأي القائل : إن الديموقراطية تجعل الدولة غنية وسليمة وقوية .

وفي دمشق نشر المؤتمر السوري الأول بزعامة فيصل الأول مشروع دستور لحكومة برلمانية ملكية ولكن ذلك انتهى بدخول الفرنسيين في ١٩ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ ؛ وخلق الإفرنسيون والإنكليز في المنطقة التي انتدبوا أنفسهم عليها جمهوريات دستورية وملكيات مماثلة لما عند الفرنسيين والإنكليز – في الشكل فقط ! ! – ولقد قامت برلمانات وظهرت دساتير في مناطق أخرى من الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فظهر منها أن المبادئ الديموقراطية المتحررة سجلت انتصاراً عالمياً .

أما اليوم فيجب أن يقال أن هذه التجربة في الشرق الأوسط انتهت تقريباً إلى فشل ذريع وأقدم نظام دستوري يعمل به في الشرق الأوسط الآن هو في ايران حيث أعلن الدستور بعد الثورة التحررية في عام ١٩٠٦ ، ولا يزال الدستور حتى الآن على الرغم من أنه لم ينفذ بحذافيره ! ! ؛ والنظام الذي يليه في القدم هو في لبنان حيث أعلن الدستور سنة١٩٢٦ واحتفظ به حتى الآن بعد كثير من التحوير والتغيير .

أما في المناطق الأخرى من الشرق الأوسط فلقد اوقف العمل بكل الدساتير التي أعلنت سابقاً وحل محلها نظام آخر وذلك بطرق تتفاوت قوة وعنفاً .

وفي تركيا بقيت الرغبة والأرادة ، فلقد تراجع الإنقلابيون سنة ١٩٦٠ بأسلوب فريد وتناسوا ذواتهم ليقوم حكم دستوري ديموقراطي جديد . وحكومة الجمهورية الثانية في تركيا مصممة على

إثبات أن الديموقراطية تعيش في تركيا لدرجة أنها تعاقب بالسجن كل من يتفوه عكس ذلك .

وفي مصر — حيث سجلت تجربة النظام البرلماني أول حقبة لها ، والتي كانت إلى حد ما أنجح التجارب في العالم العربي — أهمل العمل بأسلوب التمثيل الغربي في الديموقراطية الليبرالية . . . وكان تركه نهائياً وكاملاً أما المناطق . الأخرى الباقية فيتقاسم الحكم فيها صغار الضباط والملوك ولا يظهر على أي من الفئتين ميل . . . لترك الحكم ! ! .

وفي الشرق الأوسط الآن ثلاث دول فقط تعمل فيها الديموقراطية السياسية : تركيا ولبنان وإسرائيل[1] وهذه الدول الثلاث هي أكثر الدول (تغريباً) ! ! في الشرق الأوسط : الأولى إسلامية كاملة إلا أنها تحولت بتأثير ثورتين علمانيتين ؛ والثانية نصف إسلامية والثالثة غير إسلامية . وهذا ما حدا ببعض المراقبين أن يستخلصوا أن الإسلام والديموقراطية أمران لا يجتمعان ! ! ! بمعنى أن نظام الإسلام الإجتماعي والسياسي يمنع أو يعرقل — على الأقل — قيام مؤسسات برلمانية سليمة ! ! ومثلهم على ذلك انهيار النظم الديموقراطية في كل الدول الإسلامية — القديمة منها والحديثة — التي جربت هذا النظام بما في ذلك باكستان حيث الإنهيار الديموقراطي مناقض تماماً

(١) كيف يكون في اسرائيل ديموقراطيه سياسيه وسكان الأرض المحتلة مقسمون إلى فئتين مواطن درجة أولى و مواطن محروم و الفئات العربية الباقية هناك هي طبعا من الفئة الثانية .

للديموقراطية الهندية القوية مع أن الدولتين كانتا خاضعتين لنظام استعماري واحد ! .

يقول (ت. إ. لورنس) : « ليس للساميين – في قاموسهم – أنصاف أبعاد ، فهم يستبعدون دائماً النظرة الوسط ويتبعون منطق أفكارهم حتى . . . نهايته المجهولة » وكل مراقب لشؤون الشرق الأوسط لا يستطيع الإنكار أن في رأي لورنس شيءٌ من الصحة والذين يتبنون الرأي القائل أن العرب والمسلمين غير قادرين أبداً على إقامة حكم ديموقراطي ، هم أيضاً لا يتحلون بالمنطق المعقول في نظرتهم هذه . فهناك ظواهر كثيرة في الحضارة الإسلامية التليدة تتميز بوضوح بقابليتها للنمو الديموقراطي ، ولقد نجح الإسلام ، حيث فشلت المسيحية بمزج الايمان العميق والتسامح الديني الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى بل شمل هذا التسامح حتى الهراطقة والكفار . وتعايش مدارس فكرية عدة في التشريع الإسلامي المقدس هو برهان آخر على التسامح الإسلامي والإعتدال الإسلامي .

ولقد كان الإسلام دائماً من الوجهة الإجتماعية ديموقراطياً أوعلى الأصح : عادلاً يرفض دائمـــاً نظاماً كنظام الطوائف في الهند وامتيازات كامتيازات الطبقة الأرستقراطية في اوروبا ؛ وما احتاج الإسلام إلى ثورة دامية لينشر فكرة تكافؤ الفرص ، وتقدير المواهب في العالم الإسلامي فلقد جاءت الفكرة مع بدء الدعوة الإسلامية ؛

وعلى الرغم من أن في سياق تاريخ بعض الدول الإسلامية ميلاً لتشكيل طبقة ارستقراطية ؛ إلا أن الفكرة لم تنمح ولم تستبعد من المجتمع الإسلامي في أي وقت من الأوقات ؛ والنظرية الإسلامية تؤكد دائماً سيادة القانون وواجب انصياع الحكام له . ولقد استطاعت قوة العلماء في العهد العثماني أن تفرض احترام هذا المبدأ الإسلامي فالصعوبـــة السياسية ، إذن ، هي في عدم وجود تصور واضح وتجربة تاريخية معينة لنظام حكم نيابي ، أو حكومة مقيدة السلطة من أي نوع في تاريخ الدول الإسلامية ، وذلك على الرغم من مناداة فقهاء المسلمين بمبدأ الإنتخاب والشورى .

وهذه الصعوبة هي التي بنى عليها البعض فكرة استحالة قيام النظام الديموقراطي في أرض الإسلام . هناك لا شك ميل لحكم الفرد بين الشعوب المسلمة ، أما القول بالإستحالة الغريزية لقيام أي نوع آخر من الحكم فأمر لم يثبت بعد ببرهان .

وهناك دائماً شيء مقلق غير مريح في افتراض النظرية التي تستند إلى نوع من الخطيئة السياسية الأساسية في المجتمعات الإنسانية . ولا ضرورة لبحثها في حالتنا هذه لأن في تاريخ الشرق الأوسط الحديث أشياء كثيرة تفسر الأسباب التي أدت إلى فشل الديموقراطية الدستورية فيه دون محاولة تمحل الأسباب في النظرية الدينية . ومن الأمور السهلة والمغرية بالنسبة لنا ، نحن الغربيين ، أن نتخذ وضع الإستعلاء — مغروراً كان أو متسامحاً — وأن نعزو انهيار المؤسسات الديموقراطية في الشعوب الأخرى إلى نقص تكويني فيها وفقدانها بعض فضائلنا

المميزة ! ! ! هذاأمر سهل . . . ولكنه ليس حكيماً والشيء الأكيد أنه لا يفيدنا أبداً .

نحن نعتقد بلاشك – أن الديموقراطية الليبرالية مع كل نواقصها – هي أفضل وسيلة ابتدعها الجنس البشري لتسيير أموره السياسية ؛ ولكن يجب أن نتذكر أيضاً صفة هذا النظام المحلية والبلاد التي ظهر فيهـــا ، ونحاول أن نتحاشى « التعالي » . . . البدائي بجعل طريقتنا في الحياة المقياس العالمي الوحيد للأخلاق السياسية ! !

« هذا بربري » . . . كلمة قالها قيصر لبريتانوس في مسرحية برناردشو وهو يظن أن تقاليد عشيرته وجزيرته هي « قوانين الطبيعة » ! !

الديموقراطية تقليد حسن ، ولقد انتشرت في مناطق بعيدة عن مكان نشأتها ، ومع الزمن سيزيد انتشارها بالتأكيد ولكنها ليست على كل حال قانوناً طبيعياً ؛ لقد جُربت في بعض بقاع العالم التي احتاجت إليها . . . ثم . . . أهملت وعلينا أن نسأل أنفسنا : هذا السؤال : لماذا ؟ ؟ ؟

لقد جرت محاولة جدية في الشرق الأوسط لتطبيق وممارسة الديموقراطية الليبرالية فكتبت الدساتير ، وعمم الإنتخاب ، وقامت برلمانات لها سيادة كاملة ، وشرعت لها القوانين التي تحميها ، وأنشئت الأحزاب وعملت صحافة حرة ، إلا أن كل التجارب فشلت باستثناء البعض القليل منها – والتي لم تكن وليست الآن – كلاسيكية ففي بعض البلدان نرى المؤسسات الديموقراطية في حالة تفكك وانهيار ،

وفي الحالة الأخرى اهملت كلياً واوقف العمل بها وبدأ البحث عن طريق بديلة لها توصل إلى السعادة .

واليوم باستطاعتنا أن نرى كثيراً من الأسباب بوضوح كاف إذا استعنا بأحداث التاريخ الماضي .

إن أخذ أي نظام سياسي جاهز ليس فقط من بلد مختلف ، بل من حضارة مختلفة وفرض بواسطة الغربيين أو الحكام (المتغربين) في الشرق من فوق مجتمع الشرق الأوسط ومن خارجه عمل خاطئ ولا يمكن لهذه العملية أبداً أن تناسب حاجات ومتطلبات وآمال الشرق الأوسط الإسلامي ، فلقد فرضت الديموقراطية بأوامر وفرمانات الحاكم المطلق ، وشكل البرلمان في العاصمة وكانت تديره وتسنده أقلية هزيلة لم يؤبه لانغماسها المحبب في اللعبة الجديدة للأحزاب والبرامج والدبلوماسية ؛ وكان مجموع الشعب يراقبها بخيبة أمل ، فكانت النتيجة قيام نظام سياسي لا صلة له بماض أو بحاضر البلد ولا صلة له بحاجات مستقبله .

قام البرلمان في (وستمنستر) بلندن نتيجة قرون من التاريخ وكانت جذوره تتصل بـ (وايتناجوموت) الأنكلوسكسوني (أي مجلس المستشارين) القديم . إنه قمة هرم من مؤسسات الحكم الذاتي وقاعدته قائمة على مجموع الشعب . لقد نما وترعرع بواسطة الإنكليز وعلى أساس تجربة انكليزية لسد حاجات المجتمع الإنكليزي ، أما برلمان القاهرة فقد « استورد » في علبة وجمع وصار جاهزاً للعمل بدون . . . حتى لائحة تعليمات عن كيفية استعمال هذه البضاعة

الأجنبية المستوردة ! ! ولم يأت ملبياً لحاجة أو طلب من الشعب المصري ولم يحظ بتأييد أو اهتمام أية مجموعة من حملة الأفكار أو أصحاب الأعمال ! ! وعندما تتعطل أو تخرب في أيدينا أية آلة مستوردة لا نلوم أنفسنا عادة بل نلوم المعمل الذي أنتجها والموردين الذين زودونا بها . وكان الغرب « صانعاً » و« مورداً» ! ولذا فقد نال أكثر من نصيبه من الملامة لانهيار الديموقراطية في الشرق الأوسط وكان عدم مساندة الغرب لدعاة الديموقراطية في الشرق الأوسط هي إحدى أخطاء الغرب ، والخطأ الثاني هو في نظام الإنتداب الذي كان يفترض فيه أن يدرب (الشرق أوسطيين) على المسؤولية إلا أنه على العكس من ذلك قام بتدريب عال لهم على «عدم المسؤولية».

وكان الأمر مماثلاً إن لم يكن أكثر تردياً في البلاد التي بقيت مستقلة « إسمياً » ولكنها كانت في الواقع خاضعة لتدخل أجنبي دائم . ولقد كان على بعض الإمبراطوريات التي حكمت الشرق الأوسط كالفارسية والرومانية والعربية والتركية والفرنسية والبريطانية مآخذ لا يمكن إغفالها ، إلا أنها لها كلها دور متفاوة في نشر المدنية في المنطقة ، أما الإستعمار والأمبريالية التي ابتلي بها الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن العشرين فلا يمكن أن يقال فيه كلمة واحدة لتبريره ، إنه كان تدخلاً بدون مسؤولية لم يخلق ولم يسمح بخلق حكم مستقر منظم ؛ وقد يكون هناك فرق مميز في آسيا وافريقيا بين الدول التي كان يحكمها الإستعمار مباشرة ، والدول كانت تحت نفوذه بطريقة خفية أو بأخرى غير مباشرة . فإن شعوب القسم الأخير من هذه الدول نالت شر العالمين ، فإنها لم تدرب على

الإدارة كما كان يدرب أبناء المناطق المستعمرة ولم يسمح لها بممارسة المسؤولية في بلادها التي كانت مستقلة « ظاهرياً » ؛ وكان لنظام الحكم الإستعماري المباشر فرصة تدريب طبقة من البيروقراطيين وكان لهذا الحكم سمة الوضوح والصراحة ، ففي الهند مثلاً كان انتقال المسؤولية واضحاً من أيد إنكليزية إلى أيد هندية . فحتى ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٧ كان الإنكليز يحكمون وبعد ذلك التاريخ انتقلت المسؤولية كلياً إلى الأيادي الهندية ، ولم يشك مراقب محايد بوضوح هذا الإنتقال الكلي . أما في مصر فمن الصعب تحديد يوم وتاريخ انتقال السلطة الفعلية طيلة نصف قرن ؛ وكانت النتيجة في مصر وفي مثيلاتها في الشرق الأوسط أن قام جيل من السياسيين كانوا دائماً على استعداد لطلب المسؤولية أكثر مما كانوا على استعداد لقبولها فعلاً ، مع ميل للهرب من الواقع والحقيقة . . . التي لم تمت كلياً . وحتى يومنا هذا هناك بعض السياسيين الذين يرددون — نقطة ليس لها معنى الآن — حين يطلبون من الغرب أن يعاملهم كرجال مسؤولين ناضجين إلا أنهم يظهرون بأقوالهم وأعمالهم أنهم يعتمدون على أن الغرب لا يفعل ذلك ؛ وهناك كثيرون يرغبون من الإستفادة من سوء الظن الاوروبي الذي لا ينتظر بل،ويرضى من الشرقيين بمستوى أدنى من المقاييس المطلوبة في السلوك والأداء والعمل .

وإمكانية العيش للديموقراطية موضوع أهم قليلاً من التقاليد الثقافية والاستعداد السياسي . فإسرائيل ولبنان وهما الاستثناءان في سجل الفشل ، ليستا فقط دولتين « متغربتين » بل إنهما نسبياً في مستوى من المعيشة أعلى من باقي دول المنطقة على صعيد الكساء

والغذاء والمأوى . لذا فمجتمع المدينة الصغير بطرق مواصلاتـــه الجيدة ومستواه العالي في المعيشة والتعليم هو بيئة تقبل الديموقراطية أكثر مما يقبلهـــا مجتمع ريفي فقير يعيش في الأكواخ ويشكل قسماً غير قليل من منطقة الشرق الأوسط .

وبعد لبنان واسرائيل تأتي تركيا في الدرجة الثالثة إذا حسبنا دخل الفرد السنوي ، وطول الخطوط الحديدية فيها بالنسبة لمساحتها ؛ ونسبة المتعلمين فيها هي أعلى نسبة في الشرق الأوسط بعد الدولتين المذكورتين آنفاً [١] غير أنه في مقابل ذلك توجد في مصر صناعة أكثر وعدد سكان المدن فيها أكثر وفيها أو على الأقل كان فيها حتى الأمس القريب عدد أكبر من قراء الصحف .

ونتيجة لهذه المقارنة يظهر أن هناك بعض الصلة بين الديموقراطية والتقدم المادي إلا أنه ليس من السهل القول أيهما هو الدجاجة وأيهما هو البيضة .

ويمكننا أن نقول فقط ونحن متأكدون : إن كثيراً من العوامل الإجتماعية والإقتصادية التي ساعدت على قيام وبقاء الديموقراطية في أنحاء أخرى من العالم مفقودة من الشرق الأوسط أو على الأقل كانت مفقودة في الوقت العصيب الذي أجريت فيه تجربة الديموقراطية . ولقد كان المجتمع مكوناً بصورة عامة من الإقطاعيين والفلاحين

---

(١) ان تقدير المؤلف غير دقيق فنسبة الأمين في تركيا ليست أقل من بعض دول الشرق العربي

أما الصناعيون والتجـــار من الطبقة الوسطى فكان أغلبهم من الأجانب وأبناء الأقليات ، ولم يكونوا لذلك مؤهلين لأن يلعبوا الدور السياسي والفكري الذي لعبته البرجوازية في المجتمعات الغربية

ولم يكن للمهنيين المسلمين الجدد كالمحامين والمدرسين والصحافيين أية قوة اقتصادية وأي تماسك وتكاتف ليلعبوا أي دور مستقل . ولم يكن هناك وجود تقريباً للعمال الصناعيين أما كتل الفلاحين وبروليتارية المدن فكانوا فقراء جهلة ، غير منظمين وغير قادرين على المشاركة في الحياة السياسية ، ففي مثل هذا المجتمع لا يقوم ولاء جديد أكبر من الولاء القديم القوي للعشيرة أو الطائفة أو العائلة أو القبيلة ؛ ولا يمكن لأي تقليد جديد من التعاون المحلي أن يقوم ولا للدوافع الفردية أن تنمو لتحطم العادات القديمة في الركون إلى الغير والتسليم بالأمر الواقع . ولقد حاول المتحررون ففشلوا وانتقل النظام البرلماني إلى الأيدي التي تسيطر على المال وتتمكن من الأمر أو من شراء الطاعة ، ولقد استُخدِم النظام البرلماني للإبقاء على القوة الخاصة لهؤلاء ومنع أي تغيير أو إصلاح لأنهم كانوا يعدون ذلك تهديداً لمصالحهم .

ولو أن أهل الشرق الأوسط تمتعوا بفترة طويلة من الهدوء لكان من المحتمل أن يستطيعوا تغيير شكل هذه البنية السياسية المستوردة بما يتناسب وشروطهم وحاجاتهم ، إلا أنهم لم يمروا بهذه الفترة . بل على العكس من ذلك فقد تعرضت ديموقراطيتهم الفتية غير المجربة لسلسلة من الصدمات السياسية العنيفة من الداخل والخارج وواجهت المشكلة الإقتصادية الأفرو–آسيوية المعتادة : وهي الزيادة المضطردة

في عدد السكان . وفي أغلب البلاد لم تستطع الديموقراطية البرلمانية أن تصمد لهـــذا الضغط فانهـــارت ؛ ونتيجة خيبة الأمل بالزعماء الديموقراطيين ظهر نوع من الزهد عند الشعب وسخرية أهانت الأخلاق والشعور الديني عند الذين رشحوا للزعامة والقيادة وشوهت تماماً سمعة المؤسسات الديموقراطية الليبرالية ، فبالنسبة للمواطن المصري (ابن الشعب) ليست الحكومة الديموقراطية التمثيلية « وستمنستر » أو « واشنطن » بل فاروق . . . والباشوات ، ومن الذي يلوم ابن الشعب إذا كره ورفض حكم هؤلاء ؟

وحلت الفكرة الجمهورية مكان المثالية الديموقراطية إلى فترة من الزمن ، وكان يعتقد في وقت من الأوقات أن الجمهوريـــة والديموقراطية تعبيران يعنيان شيئاً واحداً والواقع أن اللغة اليونانية الحـــديثة تستعمل لفظة (ديموكراسيا — De mokratix) للجمهورية وللديموقراطية معاً أما اليوم فلقد وضحت معالم كثيرة في عصر الملكيات الديموقراطية وجمهوريات الحكم المطلق .

لذا فالجمهوريـــة والديموقراطية ليستا مترادفتين بل يظهر — أكثر من ذلك — أنهما لا تستطيعان التعايش سوياً في مناطق كثيرة من العالم .

ولم تكن الفكرة الجمهورية متشاركة دائماً مع أفكار الحرية في الشرق الأوسط ولقد قامت أول جمهوريـــة إسلامية في مناطق تركستان في الإمبراطورية الروسية حين تراخت — موقتاً — قبضة الحكومة المركزية في موسكو بعد ثورة ١٩١٧ وسمحت بهذه التجربة

المحلية ؛ وفي مناطق أخرى مثل أزربيجان قامت جمهورية قومية برجوازية ؛ إلا أن الجيش الأحمر احتل كل هذه الجمهوريات في الوقت المناسب وضمها إلى الإتحاد السوفيتي ؛ ولقد وضعت الجمهورية الكمالية في تركيا والجمهوريتان السورية واللبنانية ذات النمط الفرنسي شكلاً جديداً للجمهورية ولكن موجة الدعوة إلى الجمهورية في الشرق الأوسط بدأت فعلاً بقوة بعد الحرب العالمية الثانية بإعلان الجمهورية في مصر في حزيران (يونيو) سنة ١٩٥٢ من قبل جهاز الحكم العسكري . وبعد قيام هذه الجمهورية أعلنت جمهوريات أخرى في المنطقة ـ ولوأنها لم تكن كلها من نوع واحد

فني تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٣ أعلنت باكستان جمهورية إسلامية ، وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٦ أعلنت السودان جمهورية ، وقامت الجمهورية في العراق في تموز (يوليو) ١٩٥٨ وقامت في تونس في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٥٩ وفي اليمن في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٢ ؛ واليوم فالشرق الأوسط ما عدا حفنة قليلة من دوله جمهوريات ، ولو أن كلمة جمهورية تعني مجموعة واسعة من الوقائع السياسية المختلفة ؛ فجمهورية على مايظهر تعني في الشرق الأوسط ـ دولة لا يحكمها ملك ـ ولا صلة لكلمة جمهورية بالطريقة التي وصل فيها رئيس الدولة إلى منصب الرئاسة ولا بالطريقة التي يخرج ! ! بهـا من هذا المنصب ؛ والجمهورية في الشرق الأوسط تعني انتهاء الحكم الملكي وأكثر ما يتعلق به . ولا علاقة لكلمة جمهورية بنظام حكم تمثيلي نيابي ولا بديموقراطية ليبرالية .

وعندما تعثرت الديموقراطية . . . وماتت في الأراضي العربية سار العمل في سبيل التحرر على دروب جديدة .

لم تكن الحرية السياسية موضع جدال في فترة السيطرة الفرنسية الإنكليزية في الشرق الأوسط فعلى الرغم من تحديدها بطرق مختلفة آنذاك ، كانت أكثر انطلاقاً وأكثر حماية من أي عهد سابق أو لاحق . أما الشيء الذي كانت شعوب المنطقة تطالب به فهو الحرية الجماعية لجميع أجزاء وأبناء المنطقة أي الإستقلال . ولقد أعطى الحكم الأنكلو — فرنسي قدراً غير قليل من الحرية الفردية وكان ذلك تمشياً مع نظام الحكم في فرنسا وانكلترا أكثر مما كان تلبية لمطالب شعبية ! ! ، إلا أن الأنكلوفرنسيين مـــاطلوا بالإستقلال لذا كان من الطبيعي أن تركز الأهمية على المعركة الوطنية السياسية في سبيل الإستقلال ويهمل إلى حد ما موضوع الحرية الفردية . وكان إنهاء الحكم الأجنبي هو هدف كل الجهود السياسية المبذولة التي توقفت رأساً بعد نوال الإستقلال . ومع قدوم الإستقلال تبين أن الحرية بمعناها التقليدي الليبرالي القديم قد فقدت ولم يكن هناك إلا . . . قلائل عارضوا . . . أو أشفقوا على زوالها .

وزوال الحكم الأجنبي لم يحل المشكلات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية الأساسية في العالم العربي ، وكـــل الذي حدث هو أن الإستقلال كشف عن طبيعة هذه المشاكل ؛ وبقي الإستعمار رغم قهره أكثر من مرة ، العدو الرئيسي ، ثم حشر معه الإقطاع ، والرأسمالية ، وكـــان هذان التعبيران الأخيران يرمزان للواقع

الإقتصادي السائد . وبدأ عهد من التجارب والفوران ! ! عهد من السياسات التي يصفها أصدقاء المنطقة بالسياسية العملية . . . ويصفها أعداء المنطقة بالسياسية الإنتهازية ! ؛ وأخيراً في صيف عام ١٩٦١ كشفت حكومة الجمهوريــة العربية المتحدة اسم الايدولوجية الجديدة والتي ستسير الدولة على ضوئها، وسميت الإشتراكية العربية. وهدفها هو تأمين الحرية الإقتصادية . . . الشيء الوحيد المهم . وعندما أعلن الرئيس عبد الناصر سلسلة من قرارات التأميم قال « اليوم نمارس حقاً حريتنا الإقتصادية ، فلا توجد أية قوة أجنبية تسيطر على اقتصاد البلاد أو على أهل البلد ، كل مواطن يشعر أنه حر في في بلده في الميدان الإقتصادي ، ولا يخضع لديكتاتورية رأس المال والحرية الحقة هي الديموقراطية الحقة إنها حرية اقتصادية ومساواة اجتماعية » وقبل أيام من خطابه هذا حدد الرئيس عبد الناصر معنى الديموقراطية فقال « الديموقراطية بالأساس تعني إقامـــة العدالة الإجتماعية وتحرير الطبقة الكادحة من المستغلين ، الديموقراطية بالأساس تعني أن لا تكون الحكومة احتكاراً للإقطاع ورأس المال المستغل ، بل يجب أن تكون لمصلحة جميع الشعب ، ولا تقوم الديموقراطية بإصدار الدساتير أو بإقامة برلمان والديموقراطية لا تعني الدستور والبرلمان بل إنها توجد بإنهاء الإقطاع والإحتكار وسيطرة رأس المــال ؛ ولا توجد حريـــة أو ديموقراطية بدون مساواة ولا توجد مساواة مع الإقطاع والإستغلال وسيطرة رأس المال » .

والإشتراكية مثل تعبير الحرية والديموقراطية هي كلمة ترمز لعدة معاني ، فلقد قيل لنا أن الإتحاد السوفياتي يعمل جاهــداً في بناء

الإشتراكية ؛ وكذلك أحزاب العمال في بريطانيا واسكنديناڤيا ومن أهم الأحزاب التي حملت إسم الإشتراكية كان حزب العمال الوطني الإشتراكي الألماني وكان يعرف بالإختصار : بالحزب (النازي) ؛ أما في بحث الحقوق الأميركية فالإشتراكية تعني كل شيء على « يسار » لويس الرابع عشر ؛ وأما بالنسبة لشيخ الأزهر في القاهرة فلقد قال في تصريح له يوم ٢٢ كانون أول (ديسمبر) سنة ١٩٦١ إن الإشتراكية الكاملة الشاملة النافعة العميقة هي ما جاء به الإسلام والتي تستند على أسس الايمان . فلأي من هذه الإشتراكيات تنتسب هذه الإشتراكية العربية ؟

بدأت الإشتراكية في الشرق الأوسط بواسطة فئات صغيرة كشكل غامض من أشكال تقليد « الموضة » الاوروبية ، وقليل من الكتاب أيدوها بجد واهتمام مثلما أيدها السوري المسيحي « شبلي شميل » الذي عاش ما بين (١٨٦٠ — ١٩١٧) والكاتب المصري المسيحي « سلامة موسى » الذي عاش ما بين (١٨٨٧ — ١٩٥٩) ، واتبع الإثنان النموذج الغربي للإشتراكية حيث اتبع « شميل » مدرسة (جورة Jaurés) الفرنسية واتبع « موسى » الغابيين الإنكليز (أصحاب الإشتراكية الغابية) ، كذلك استوحى الحزب الإشتراكي العثماني القصير الأجل ، أفكاره من الإشتراكيين الفرنسيين فلقد أسس هذا الحزب سنة ١٩١٠ وافتتح فرعاً في باريس وأصدر جريدة سماها (بشريت) أي الإنسانية ولم يكن له أي تأثير أو نفوذ ومع قيام الثورة الروسية جاءت دفعة من النشاط الإشتراكي اليساري

في عدة دول ، إلا أنها اضمحلت عاجلاً بتأثير المشاحنات التي قامت بين طوائفها مخلفة حفنة قليلة من الثوريين المحترفين .

وفي فلسطين « المنتدبة » قامت حركة اشتراكية ديموقراطية قوية على النمط الاوروبي ، بين الأوساط العمالية اليهودية ، ولم ولم يكن للإشتراكيين في مناطق الشرق الأوسط الأخرى أي شأن يذكر ما بين عام ١٩٢٠ — ١٩٤٠ إذا قارناهم بالحركات الإشتراكية والسياسية الراديكالية والقومية في الهند وفي جنوب شرقي آسيا .

وبدأت حركة جديدة بعد نجاح حزب العمال البريطاني في سنة ١٩٤٥ في الإنتخابات النيابية وكانت بريطانيا في ذلك الوقت في رأس قائمة الدول الكبرى ، وكانت الإشتراكية في رأس القائمة في بريطانيا . لذا فقد اعتقد الناس أن الإشتراكية شيء جيد بالإضافة إلى أنها العلاج للمشاكل الإقتصادية المتعاظمة في الشرق الأوسط وهكذا ظهرت مجموعة من الأحزاب الإشتراكية في مختلف بلاد المنطقة كان أهمها الحزب العربي الإشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني في سورية سنة ١٩٥٠ ثم توحد مع حزب ميشيل عفلق البعث العربي سنة ١٩٥٣ وسمي حزب البعث العربي الإشتراكي والمعروف باسم « البعث » .

ولقد مزج هذا الحزب فكرة اشتراكية اقتصادية بفكرة قومية غامضة ! ! وربح عدداً كبيراً من الأنصار في الشرق العربي، وكان هذا الحزب بالإضافة إلى الحزب الشيوعي ، الحزب الوحيد الذي

يحمل ايدولوجية منظمة ! وأسس شبكة واسعة من الفروع ، أما أتباعه فكانوا من المتعلمين ومن الطبقة العاملة .

ودخل زعماء البعثيين الحكم في سورية سنة ١٩٥٦ ولعبوا دوراً فاصلاً في ضم سورية إلى الجمهورية العربية المتحدة ؛ وكان لحزب البعث دور مسيطر في سورية بعد قيام الوحدة حتى أنهم ادعوا أنهم يشكلون القيادة الفكرية للجمهورية العربية المتحدة! ! بإقليميها ، وفي أواخر عام ١٩٥٩ بدأوا يفقدون سيطرتهم على الموقف وكانت الحكومات في العراق والأردن ولبنان تعارضهم وفي بعض الأحيان تضغط على بعضهم . . . ثم طُرد زعماؤهم من مناصب الوزارة المركزية في القاهرة وبعد اثنين وعشرين شهراً من قيام الوحدة كان الحزب يعاني الضغط .

ولم يعد البعثيون إلى الظهور إلا في ربيع ١٩٦٣ عندما جاءت بهم ثورتان قامتا في العراق وسورية وبدأ عهد من التقارب والتباعد بينهم وبين الرئيس عبد الناصر . أما الآن فالمكان الوحيد الذي يمكن للناس فيه أن يناقشوا بحرية وجدية الايدولوجية الإشتراكية في الشرق الأوسط هو في بيروت . . . وفي جوها الرأسمالي الليبرالي ! .

كانت الإشتراكية (فوق الريح) ! ! في سنوات ١٩٥٠ وما بعدها . . . تماماً كما كانت سابقتها الليبرالية قبل قرن من الزمان ؛ وكسابقتها ربحت الإشتراكية عدداً من المتعلمين ولكنهم لم يكونوا هم الذين جاؤوا بها إلى كرسي الحكم والسيطرة ، فالثورة الإشتراكية مثل الدستورية الليبرالية فُرضت من فوق لم تأت تلبية لطلب شعبي

أو رغبة جماهيرية ولا جاءت نتيجة لانتصار الحركة الإشتراكية أو نجاح الطبقة العاملة ، بل كانت نتيجة قرار نظام حكم عسكري قضى في الحكم قبل ذلك مدة تسع سنوات واتخذت في أولها خطوات عملية غير عقائدية الأسس لقد أممت بعض المؤسسات الفرنسية وبعض الشركات التي كان يمتلكها اليهود بعد حملة سيناء والسويس سنة ١٩٥٦ ونتيجة لهروب الأموال الأجنبية ورؤوس أموال الأقليات ضاق نطاق عمليات التأميم المعتدلة (إذا جاز التعبير) . وعندما يئست الحكومة من القطاع الخاص قررت أن تلعب هي دوراً حيوياً أكبر في الحياة الإقتصادية ؛ وكانت تصريحات المسؤولين آنذاك في الجمهورية العربية المتحدة تستعمل تعبير العدالة الإجتماعية بدل تعبير الإشتراكية وهي تعني نوعاً من الرأسمالية المحدودة للدولة مع برامج للخدمات . وبقدوم سنة ١٩٦٠ صارت الإشتراكية أصرح وأظهر في الأقوال والأعمال خصوصاً بعد تأميم مجموعات شركة مصر للتعهدات والمقاولات . ولم يكن تأميم الصحف في نفس العام خطوة اقتصادية خالصة .

ثم جاء الدور الثاني بسلسلة من قرارت التأميم في تموز (يوليو) عام ١٩٦١ حيث تمتلك الدولة بها كل النشاطات الإقتصادية الكبيرة مع التعويض لأصحابها ، وحدد الحد الأعلى لتملك الأراضي بمئة فدان (مئة دونم) ، وأعلنت ضريبة تصاعدية عالية على أصحاب الدخول المرتفعة ، ومنع أي متمول من تملك أكثر مما قيمته ١٠٠٠٠ جنيه مصري من أسهم شركات معينة . وفي نفس الوقت صدرت سلسلة من الأحاديث والمقالات تفسر طبيعة وهدف هذه

الإجراءات وتوضح مفهوم الإشتراكية العربية التي أعلنتها الدولة ولقد كتب محمد حسنين هيكل في مقال عقائدي شبه رسمي : « إن البلاد بحاجة إلى خطة واضحة تضم كـــل طاقات الشعب وتؤمن الزيادة اللازمة في الإنتاج في نفس الوقت الذي تؤمن فيه الحاجات الإستهلاكية الضرورية لجماهير الشعب االكادح التي طال حرمانها .

وبهذه الطريقة يتم النمو الإقتصادي والخدمات الإجتماعية دون أي استغلال رأسمالي غربي أو محلي ، ودون تضحية الجيل الحاضر في سبيل الأجيال القادمة كما فعل ستالين وماوتسي تونغ » ولقد قال أحد الدبلوماسيين الفرنسيين مرة : إن الحرب فيها من الجدية ما لا يسمح بترك أمرها . . . للجنرالات ! ! ويظهر أن الضباط المصريين كانوا قد قرروا أن السياسة فيها من الأهمية مالا يسمح بتركهـــا للسياسيين . والآن اقتنعوا بأن الإقتصاد فيه من الأهمية مالا يسمح بترك أموره لرجال الأعمال .

قال المستر (برنارد بيرنس) « إن علم الآثـــار ، كغيره من الدراسات التي تقوم على الأسلوب العلمي ، يستند إلى المقارنة . فهو دائماً مقارنة المجهول مع المعلوم ، ومقارنة غيرالمؤكد مع الشيء المؤكد ، ومقارنة الأمر غير المصنف مع غيره من الأمور المصنفة »

ومما لاشك فيه أن الدراسة الأثرية الناجحة التي أجريت على العهود القديمة في الشرق الأوسط هي التي اوحت المحاولات الدراسية الجديـــدة التي تسعى لتفسير وتصنيف تطورات الشرق الأوسط

الحديثة بمقارنتها بأحداث سابقة مصنفة جرت في أماكن أخرى وفي أزمان ماضية .

وتعرضت « الناصرية » بمختلف مراحلها . وكان آخرها الإشتراكية العربية — إلى عدة تفسيرات بمقارنتها بحركات أخرى . فالبعض حاول التفتيش لهـا عن سوابق في التاريخ المصري فلقد كان في التاريخ تقليد قامت الدولة فيه بالنشاط الإقتصادي، فالحكام المماليك احتكروا التجارة للدولة في القرن الخامس عشر الميلادي ، وكذلك أمم محمد علي باشا الأراضي في اوائل القرن التاسع عشر .

وحاول بعض المراقبين أن يجدوا شبيهاً للنظام المصري الحاضر في تاريخ اوروبا فاتهموا النظـام العسكري القائم أكثر من مرة بتشبيهه بالنازية والشيوعية . ونعت أية حركة بالنازية يعد شتيمة في الغرب وفي الإتحاد السوفياتي وفي أكثر دول آسيا وافريقيا إلا أن الأمر ليس بهذه الشدة في الشرق العربي ، حيث لم يسع أكثر الزعماء العرب لإخفاء عواطفهم ، أو حتى التعاون أثناء الحرب مع المحور . لذا عندما شبه عبد الكريم قاسم الرئيس عبد الناصر بهتلر كان ذلك إشارة خطر تدل على التغلغل الشيوعي آنذاك في بغداد .

فالهتلرية ليست كلمة في قاموس « التشهير » العربي وظهورها هكذا دليل على وجود نفوذ غريب ، ولقد كتبت عدة تقارير منذ بضع سنوات عن استخدام مصر لبعض الخبراء النازيين خاصة في حقل الأمن والدعاية ، وقد يكون لتغلغل المخابرات ذات النفوذ القوي ونجاح جهاز الدعاية صلة بخبرة هؤلاء النازيين ؛ والرئيس

جمال عبد الناصر نفسه ذكر وشجع على قراءة ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » إلا أن ذلك لا يعلق عليه أهمية كبرى ، فالدول الغربية والسوفيت أنفسهم لم يتورعوا عن استخدام الخبراء النازيين في الحقول المختلفة التي احتاجوهم فيها . واتصال الأشرار بالأخيار يفسد عادة الأخيار ، وقد تعني صلة النظام المصري بالنازية بعض الرخاوة في أخلاقية الحكم ولكنها رخاوة منتشرة في كل العالم الحديث ولا تدل على أي تشابه بين الفكر النازي ونظام الحكم في مصر ، وربما عنى البعض بهذه المقارنة النزعة الديكتاتورية فقط . أما تهمة الشيوعية فهي لا تستند أصلاً على أرض صلبة ، وقد يعطف (الشرق الأوسطيون) على الشيوعيين كما عطفوا على النازيين لأنهم في نفس الموقف — أعداء لأعدائهم الغربيين . إلا أن الشيوعية واقع والنازية ذكريات فقط ، وهذا يعني الفرص المواتية والخطر المحتمل . ولقد ظهر في فترة من الفترات أن النفوذ الشيوعي في العالم العربي كبير جداً ولكنه تضاءل مؤخراً فلقد حل نشاط الحكومة السوفيتية محل الجاذبية الشيوعية . وعلى كل حال فقد بولغ كثيراً بخطر الايدولوجيين (النازية والشيوعية) في الشرق العربي . لا شك أن هناك بعض الذين يرغبون في تتبع خطر هتلر في القوة العسكرية وآخرين يرغبون في اقتفاء خطر ستالين القاسية في التصنيع ؛ وفي منطقة كالشرق الأوسط لا تملك امكانيات هتلر العسكرية ولا الموارد الطبيعية والبشرية التي كانت عند ستالين لا يمكن قيام أي من هاتين الطريقتين .

وجرت حديثاً مقارنة بين الإشتراكية العربية واشتراكية حزب

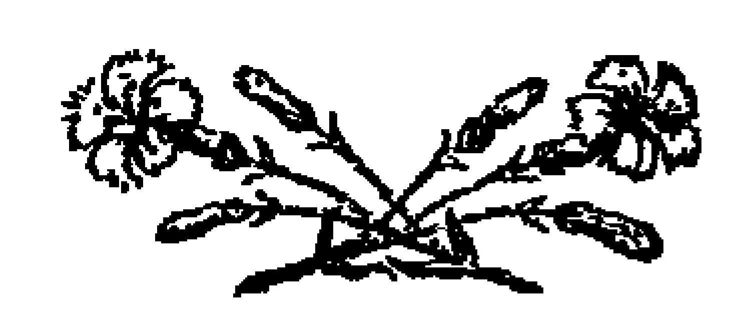
العمال البريطاني والأحزاب الإشتراكية الديموقراطية في غرب اوروبا وعلى الرغم من وجود أسس كافية للتشابه مع الإشتراكية البرلمانية الموجودة في اوروبا الآن فإن من الممكن وجود خيط رفيع من الشبه بين الأحزاب اليسارية غير الشيوعية التي كانت مابين ١٩٣٠ - ١٩٤٠ في سني القحط والمجاعة ، من نفس نوع الجناح اليساري في حزب العمال البريطاني ، فلقد امتد تأثيرها آنذاك متخطياً الميول الفاشية في بعض مناطق الشرق الأوسط ليستميل بقوة الحركات القومية في جنوب وجنوب شرقي آسيا . وبهذا المعنى ، فالإشتراكية العربية في مرحلتها الحاضرة تدين بصلة القربى لهارولد لاسكي ونهرو (في بدء حياته) ، أكثر مما تدين بصلة القربى لهتلر أو لستالين ؛ ولكن الفترة التي مرت مابين ١٩٤٠ - ١٩٦٠ - جاءت بتغييرات كثيرة في الشرق الأوسط فلقد فقدت الحركة الإشتراكية هناك دافعها الأخلاقي وإنسانيتها المتحررة واحتفظت بنزقها الغاضب من بطء العمل البرلماني ، لقد فقدت تفاؤلهـا في العالمية واكتسبت مضموناً جديداً نشأ من مصادر ومثيرات غريبة جداً عن التقاليد السياسية الإشتراكية والليبرالية التي اتسمت بها في الغرب قد يكون من المشوق محاولة تفسير أحداث الشرق الأوسط خلال التجارب الاوروبية أو الأميركية (في الشمال والجنوب) ؛ وقد يكون ذلك في حدود معينة عملاً مفيداً جداً . ولكن هذه المقارنات على العموم أو على الأصح محاولة التشبيه تلقي الظلال أكثر مما تكشف وتفسر وتلقي ضوءاً ، لا شك أن مجتمعات وسياسات الشرق الأوسط معرضة لنفس التغيرات الإنسانية ولذا فهي تخضع لنفس الأحكام والتفاسير الموجودة في الغرب ؛ وبما أن

الشرق الأوسط كان لمدة غير قصيرة خاضعاً لنفوذ الغرب وبما أنه اقتبس الشكل الظاهر للنظـــام الغربي وأساليب التعبير السياسية والإجتماعية فمن السهل و ــ المهلك ــ في آن واحد على المراقب الغربي أن يحسب هذه المظاهر الغريبة عن الشرق كمواد لعناصر المقارنة ويغض الطرف أو يسيء فهم الحقائق والوقائع العميقة التي لم يستطع الشرق الأوسط أن يعبر عنها بوضوح وجلاء فالمجتمع الإسلامي في الشرق الأوسط بنسيجه الخاص المركب من التجارب والتقاليد لا يمكن تصنيفه وتقييمه ببعض الأسماء والتعابير المستعارة من تاريخ الغرب .

ولقد قامت معركة الحرية السياسية وكان الإندحار نصيبها ، ولكنني ــ رغماً عن كوني ليبرالياً من الطرز القديم ــ أجد من الصعب التصديق أن هذا الإندحار يمكن أن يكون في يوم من الأيام وقامت معركة التحرر القومي وانتصرت ــ إلا أن تغلب القومية الأمبريالية جاء بنوع جديد من « الديانة الشرق أوسطية » التي تحتاج في كل فصل من فصول السنة تطبيق الطقوس والشعائر وما يصحبها . . . من أضاحي ! !

أما معركة الحرية الإقتصادية ــ وتعني التحرر من الحاجة والفاقة ــ فلا تزال مستعرة الأوار ولا يمكن لأحد أن يتكهن بنتيجتها ؛ قد يأتي يوم غير بعيد يجد فيه اشتراكيو الشرق الأوسط نظامهم يتساقط هباء كما جرى للديموقراطيين من قبلهم وينتهون إلى الخيبة والضياع وقد يتعلمون من أخطاء أسلافهم فيصلحون ويتأقلمون ويسيطرون .

والشيء الذي يمكن الجزم به بوضوح هو : أنه مهما كانت النتائج ومهما كانت طبيعتها فإن الجذرية السياسية والإقتصادية هي تيار قوي في الشؤون العربية ، ولقد أعطى هذا التيار القومية العربية قيادة جديدة واتجاهاً جديداً . ! !



الفصل الرابع

الوطنية .. والقومية

كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية . وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد (اللات) و (العزى) وبقية آلهة الجاهلية بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها : الدولة ، والعنصر والقومية . وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف . . . الأصنام ! ! فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة « الذات الجماعية » كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكراً وإعلاناً . وإنه لمن المحزن حقاً أن يؤرخ الإنسان المراحل المتعاقبة التي مرت : كيف بدأ الإحتكاك . . . ثم العدوى . . . ثم الإلتهاب . . . ثم الأزمة .

والعادة المتبعة في جميع المجتمعات الإنسانية هي أن يقسم الناس

المجتمع إلى قسمين : أهل مجتمعه والخوارج عنه ؛ ومن العادة أيضاً أن يسمي الخوارج عنه أسماء معيبة .

وأقدم شعبين واعيين في التاريخ كانا يسميان الخوارج عنهم « الكفار البرابرة » . أما المسيحية والإسلام « في القرون الوسطى » فكانا يتبادلان تعبير « المشركين » ، وفي المجتمعات الحديثة تجمع كلمة « أجنبي » أدنى صور البربرية والشرك معاً !

وإذا حوّرنا قليلاً أحد الشعارات اللاتينية القديمة ليصبح كالتالي « ليس هناك من هو أكثر أجنبية من الإنسان ! » نستطيع أن نجعله في هذه الحالة عنواناً لكثير من الدول والإدارات في القرن العشرين .

ولقد اعتدنا في اوروبا وفي غيرها من الدول ذات الحضارة الاوروبية أن نصنف أنفسنا ، لأسباب سياسية ، على أساس الجنسيات Nationality ؛ ولقد استعمل هذا التعبير لمعان مختلفة فالإنكليز والأميركان والفرنسيون يعنون بـ «Nationalit» «Nabonali y» جنسية البلد التي ينتمي إليها المواطن ، أما الألمان فعندهم Nationalital تعني العرق والسلالة أكثر مما تعني وضعاً سياسياً شرعياً . وبالرغم من اشتقاق الكلمة من نفس الأصل ، إلا أن علم تطور المعاني جعلها تعني بالألمانية شيئاً آخر . ولقد ميز السوفييت بين هذين المعنيين ، ففي جواز السفر السوفيتي (حقل) للمواطنية أي الجنسية Grazhanstvo و (حقل) آخر للعرق والسلالة بمعناها الألماني Nationalitd، وليس بمعناها الإفرنسي الإنكليزي الأميركي .

وبالإضافة إلى هذا الإختلاف في استعمال الكلمة باختلاف البلاد ، فلقد كانت بعض الدول تؤكد من آن لآخر أهمية « المواطنية » Citi Zeuslip ، والأصل ، واللغة ، والدين والعوامل الأخرى في تحديد الهوية الجنسية أو القومية . إلا أن باستطاعتنا بصورة عامة أن نقول إن اوروبا وأميركا تعني بالجنسية الهوية والولاء الشرعي أي « المواطنية » التي تعني بدورها البلد الذي نعيش فيه واللغة التي نتكلمها ، وربما السلالة التي انحدرنا منها والدولة التي ننتسب إليها إلا أن هذا الوضع لا ينطبق على العالم الإسلامي ؛ فالسلالة والأرض واللغة كلها أمور ثانوية ولم تظهر نظرية الكيان السياسي إلا في القرن العشرين بتأثير النفوذ الاوروبي فقط . .

فأساس التقسيم عند المسمين ، والأمر الذي يفرق إنساناً عن آخر ويميز بين الأخ والأجنبي هو . . . الايمان والإنتساب أو عدمه إلى أمة الإسلام . وعلينا أن لا نستعمل في هذه الأيام في لغتنا كلمة ايمان لأننا كلنا على علم أن كراهيتنا للأديان الأخرى يغطي أي قدر من ايماننا السليم . فكلمة ايمان ليست في محلها اليوم . والذي قصدناه بالايمان عند المسلمين يعني الدين ويعني أيضاً القوة الإجتماعية في الأمة والمقياس الوحيد لهويتها والبوٌرة التي تتجمع حولها ولاء الجماعة .

ففي المجتمع الإسلامي العالمي كل مسلم أخ لكل مسلم آخر (على الأقل نظرياً) مهما كانت لغته وأصله وسلالته وبلاده . فهو أقرب له من مواطنه الذي قد يتكلم لغته وينحدر من نفس سلالته

ولكنه لا يدين بنفس عقيدته . حتى أن المسلم المؤمن يرفض أي صلة بأسلافه القدامى في العهود الجاهلية لأنــه لا يحس أن بينه وبينهم أي رابطة من هوية عقائدية أو صلة روحية ، وإهمال المسلمين لعلم الآثار وعدم اهتمامهم به في الشرق الأوسط المسلم لا يعني أن المسلمين جهلة برابرة لا يستطيعون فهم أهمية هــذه الأشياء . كــلا فعلى العكس من ذلك إنهم قومٌ حضارة سامية وإحساس قوي مرهف بالتاريخ وبمكانتهم فيه ، إلا أن تاريخ المسلمين بــدأ بظهور الاسلام . وسلفهم الصالح هم أوائل المسلمين عند قبلة الاسلام في قلب جزيــرة العرب ، فقدمــاء المصريين من المشركين والبابليون وغيرهم من الشعوب القديمة هم غربــاء اجانب عنهم ، عــلى الرغم من الصلة العرضية في الدم والتراب .

فأنه لا ارتباط بينهم غير المهمة ابداً – في الحقيقة .

وفي القرن التاسع عشر عندما كشف علماء الاثار الاوروبيون قيمة التاريخ المنسي في الشرق الاوسط بدأ المسلمون يهتمون ، ونما الاهتمام ، بنمو الافكار الاوروبية في الشرق العربي ، بارض الاباء ! ! وبالقوم والقومية والوطن بالصلة القومية الميتافيزيكية الباقية ما بين الجدود الاقدمين والجيل الحاضر الخ .

كانت الإمبراطوريــة العثمانية آخر وأطول الإمبراطوريات

الإسلامية العالمية الكبيرة التي حكمت الشرق الأوسط ، منذ أيام

الخلفاء الراشدين . وفي هـــذه الإمبراطورية كان ولاء المسلمين الأساسي للإسلام ، وللدولة التي تجسد واقع الإسلام السياسي ، وللخلافة التي اكتسبت الصفة الشرعية بالمبايعة على مرور الزمن والتي كانت تسوس أمور الناس ، وكان المعارضون والمتمردون والثائرون يسعون لتغيير الوزراء أو الحكام أو حتى الخلافة الحاكمة كلها ولكنهم لم يسعوا أبداً لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته .

ومن هذه الوجهة كان الموقف في الشرق الأوسط ، حتى القرن التاسع عشر وربما حتى القرن العشرين ،مماثلاً لما كانت عليه اوروبا في القرون الوسطى . لم يكن (دانتي) — أكبر شعراء المسيحية في القرون الوسطى — متأثراً لكون الإمبراطور الروماني جرمانياً وليس ايطالياً وأحلام دانتي في اعادة امبراطورية عالمية مسيحية لم تتأثر أيضاً بهذا الواقع فايطاليا موجودة والايطاليون موجودون ولهم أهمية كبرى بالنسبة لدانتي إلا أن واقعهم السياسي ما كان ليعبر عن جزء من الإمبراطورية المسيحية العالمية الكبرى . وفكرة بناء ايطاليا على أساس ولاء لأرض وهوية قومية لم تظهر إلا بعد ذلك بكثير .

وعلى المنحى نفسه مشى المواطنون العرب في الإمبراطوريـــة العثمانية قبل أن يتأثروا بالأفكار الاوروبية ، لقد كانوا على علم باختلاف لغتهم وثقافتهم وذكرياتهم التاريخية عن الترك ولكنهم لم يبدوا أي رغبة جدية بالإنسلاخ عن الدولة العثمانية ، ولم يعترضوا على وجود سلطان تركي بل على العكس من ذلك كان من المحتمل

أن يستغربوا وجود غيره على رأس الحكم العثماني . ولقد كانت فكرة – قيام الدولة – على أساس الأرض والوطن القومي غريبة أجنبية بالنسبة لهم حتى إن كلمة (aralua) ليس لها مثيل في اللغة العربية وكذلك الأتراك لم يخترعوا كلمة (تركيـــا) إلا حديثاً وهي من أصل اوروبي أما العرب فلم يخترعوا تعبيراً جديداً بل اكتفوا بالتعبير الذي يدل على جزيرة أو شبه جزيرة العرب .

وبقي هذا الوضع سائداً إلى أن بدأت الأفكار الاوروبية الجديدة (تلغم) الأساس المتين للرضى والقبول اللذين كان يستند إليهما ذلك الوضع وبدأ تأثير الغرب . والأمثلة التي قامت فيه بتغيير بنية المجتمع والدولة . وكان نفوذ الأفكار والأعمال الغربية مشجعاً على أفكار سياسية جديدة تؤثر على شكل السلطة في الدولة ، وعلى القاعدة التي ترتكز عليها وحدة المواطنين . وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعدلت وتغيرت الولاءات التي كانت قائمة للخلافة الإسلامية القديمة ، والتي كانت تحكم العرب والعجم والترك ، وحلت محلها أفكار ممزقة مبعثرة اوروبية هي مزيج ، من الوطنية والقومية ونظريات خيالية عن الوطن والقوم حجبت الحقائق القديمة الواقعية في الدولة والعقيدة .

واليوم انعزلت فكرياً أكبر الشعوب الثلاثة في الشرق الأوسط عن بعضها ، وكل شعب شُغل بمفرده في حواره مع الغرب ، ولم يعد له إلا اطلاع ضئيل على الشعبين الآخرين ، واهتمام أقل بهما اللهم إلا المعلومات السطحية عن الأحداث السياسية القائمة .

وفي ايران لا تزال اللغة العربية تدرس في المدارس الثانوية كلغة كلاسيكية تقليدية في حروفها وخطوطها وهذه الدراسة تيسر قدراً من الإحتكاك بالحركات العربية، مماثلاً ! ! للقدر الذي ييسره تعليم اليونانية في المدارس الإنكليزية ، من معلومات عن اليونان الحديثة ولقد أعيد مجدداً تدريس اللغة العربية الكلاسيكية في المدارس الدينية في تركيا ، ولكن هذا التدريس لا يزال على مستوى المدارس المتوسطة كجزء من التوجيه الديني للمسلمين بصورة عامة . وما عدا ذلك فاللغة العربية والفارسية لا تدرسان في تركيا إلا إلى عدد ضئيل من الجامعيين الذين اختاروها كمواد للتخصص . أما الرأي العام المتعلم فـلا يعرف شيئـاً عن هاتين اللغتين ، وهو على جهل تام تقريباً بالتيارات الثقافية والفكرية المكتوبة بهما . وأصبحت الآن القـاهرة ، واستنبول ، وطهران عواصم متباعـدة ثقافياً وفكرياً ، وقد تتطلع حتى الآن كل واحـدة منها خارج حدودها للإستفادة والتوجيه والإستلهام ، إلا أنها لا تتطلع إلى بعضها بعضاً أبداً . ولم يكن الموقف هكذا في الماضي القريب ، ففي القرن التاسع عشر كان كل المسلمين المثقفين يقرأون ويكتبون اللغة العربية ؛ وكانت اللغة التركية لغة ترمز إلى آخر خلافة إسلامية كبيرة مستقلة يتطلع إليها جميع المسلمين بعين الأمل والرجاء .

أما الآن فمن النادر جداً أن ترى عربياً يعرف اللغة التركية ؛ وفي العهد العثماني كانت التركية لغة الحكومة والثقافة في كل مدن سورية والعراق ، ولقد عاشت حتى الأمس القريب كلغة القصر الأرستوقراطية في مصر . وكان اتقان اللغة الفارسية شعاراً تتميز

به الطبقة المثقفة في أراضي الدولة العثمانية . وكانت شعوب كثيرة في القوقاز وايران وآسيا الوسطى تتقن اللغة التركية العثمانية قراءة وكتابة .

وبالإضافة إلى الجوار الجغرافي ، فإن الشعوب الثلاثة كانت أقرب إلى بعضها روحاً وفكراً وأملاً ولم تكن بعد قد انقسمت إلى شعوب منعزلة وسلسلة من الدويلات المتفرقة .

ومن السهل جداً حتى الآن انتقال الأفكار الجديدة بسرعة عجيبة في كل أنحاء الشرق الأوسط ؛ وعلينا أن ننظر إلى النمو المستقل للأتراك والفرس والعرب في الإطار الكبير الكامل للشرق الأوسط حتى نتمكن من فهمه فهماً دقيقاً .

كانت تركيا أقوى دول المنطقة وأكثرها تقدماً ، وكان الأتراك أكثر شعوب المنطقة تجربة وتعالياً ! ، وأقربها اتصالاً بأوروبا فكان من الطبيعي أن تظهر الأفكار الجديدة بينهم أولاً ، وأن ينقلوها هم بدورهم إلى جيرانهم ورعايا دولتهم الكبيرة .

وفي العالم الحديث كانت كلمتا الوطنية والقومية تعبران عن النوع العادي الذي يجمع بين الولاء والهوية والكلمتان لا تحملان معنى ثابتاً لذلك كان مضمونهما متفجراً يحتاج إلى الحذر والعناية في الإستعمال .

والكلمتان بالإنكليزيــة تدلان على معان وتطلعات مختلفة . وأكثرنا يوافق على أن الوطنية شيء سليم وجيد وهو حبنــا

وولاؤنا لبلدنا ، أما القومية فشيءٌ غريب ، ولذلك فنحن نشك بها وليس من السهل ولا من الطبيعي أن يجري على ألسنتنا تعبير ENGlish Nationalioin (القومية الإنكليزية) ، ونعتقد أن القومية جاءت من السلتيين (سكان غربي اوروبا القدماء) ، أومن أجزاء أخرى من العالم من أفريقيا . . . من الشرق ولكنها ليست على كل حال انكليزية . . . ولا أميركية على ما أظن .

وأول تحرك في الشرق الأوسط نحو الولاء الجديد كان تحرك الوطنية وليست القومية . فلقد استلهموها من اوروبا الغربية ، خصوصاً فرنسا وانكلترا حيث كانت كلمة قوم وكلمة دولة مترادفتين وحيث كانت الوطنية هي ولاء المواطن لبلاده ، وهذا الولاء يقدم للدولة عندما ترى نفسها بحاجة إليه . ولاقت هذه الفكرة التي تقوي حق الدولة في طلب الولاء من رعاياها تشجيعاً أولياً من حكومات الشرق الأوسط ، ولكن الأمر تغير بعد ذلك حين تبين أن انتقال الولاء من شخص إلى فكرة معنوية واجد كثيراً من الصعوبات التي لم تكن منتظرة

وتعبير الوطنية كان يلقي ظلال فكرة . . . البلد أو بكلمة أدق (Patrie) بالفرنسية وترجمت هذه إلى العربية فكانت كلمة (وطن) وهذه الكلمة العربية انتقلت بنصها أو مع بعض التحوير البسيط ، إلى اللغة الفارسية والتركية وغيرها من لغات المسلمين والمعنى الأولي لكلمة وطن هومكان سكن الإنسان ومحل إقامته سواء كان ذلك مدينة أو قرية أو مقاطعة . ولقد صدر في القرن

الرابع عشر الميلادي كتاب شهير للتعاريف فرّق بين (الوطن) الأصلي حيث مسقط رأس الإنسان ومكان حياته ، و (وطن) الغربة أو السفر حيث يقضي الإنسان على الأقل خمسة عشر يوماً ولا يقيم به طبعاً إقامة دائمة . ولقد وجدت مقاطع كثيرة في الأدب الإسلامي تذكر أن الوطن هو محط المشاعر ومهوى الأفئدة ومن ذلك أقوال الكاتب الإسلامي (الجاحظ) في القرن التاسع الميلادي حول الحنين والشوق إلى الوطن . وفي القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الجغرافي السوري (ابن شداد) كتابه : جغرافية سورية وبلاد ما بين النهرين ، وافتتح عمله بوصف (حلب) مسقط رأسه وبرر ذلك بأسلوب شيق يحوي مقاطع من الشعر عن قيمة حب الوطن ، وكثيراً ما ردد الحديث الذي نسب إلى الرسول الكريم ﷺ : « حب الوطن من الايمان » .

وفي القرن الخامس عشر ذكر الشاعر التركي (علي شارنفاي) وهو من اواسط آسيا ، كيف يقاتـــل الإنسان في سبيل الوطن . « يناضل الإنسان في سبيل عائلته ووطنه طوال حياته وبكل ما يستطيع من جهد » . وعلى هذا ، وبالإضافة إلى المقاطع الكثيرة التي تذكر الوطن والصلات العائلية وذكريات الصبا والحنين إلى البيت والأهل والديار يتضح لنا أن كلمة وطن ، كلاسيكياً ، لا ترادف كلمة (Patrie) الإفرنسية بل ترادف كلمة (Hone) الإنكليزية بمعناها الواسع فهي غنية بالمشاعر وخصوصاً في عهد الصليبين عندما فقدت منازل وديار ، وهددت بيوت ومساكن ،

وكلمة (وطن) بالعربية مثـــل (Hone) بالإنكليزيـــة ليس لها مضمون سياسي معين .

وأول مثل أعرفه عن استعمال كلمة (وطن) بمعنى سياسي كان في تقرير (لمورلي السيد علي) أفندي السفير العثماني في باريس في عهد حكومة المديرين ، وفي تقريره يصف السيد علي كيف اعتنت السلطات الفرنسية بالجنود المشوهين والمنكوبين الذين تحمسوا وحاربوا في سبيل الجمهورية والوطن . وكانت هذه هي فكرة جديدة ، ومن المشكوك به ، على كل حال ، أن يكون السيد علي أفندي فهم معنى كلمة (وطن) كما عناها الفرنسيون ، لأن تقريره ليس بالعمق الذي يراعي دقة التعابير ، والغالب أنه ، أو أن المترجم عنه نقل الكلمة إلى التركية من النص الفرنسي دون أن يفكر في (استيراد) معنى هذا التعبير .

ومع ذلك فلقد انتشرت هذه الفكرة الجديدة حتى أنه في سنة ١٨٣٩ ظهرت كلمة (حب الوطن) في وثيقة حكومية رسمية هي قرار إصلاحي يعرف (بمخطوط الغرفة الوردية) . وفي سنة ١٨٤٠ كتب الدبلوماسي التركي مصطفى سامي كتاباً سماه « مطالعات حول اوروبا » ذكر فيه (حب البلاد) كإحدى الفضائل المحمودة يتحلى بها شعب باريس وأن ، حبه هو ، لوطنه ، دفعه لتأليف كتابه هذا . وفي سنة ١٨٤١ كان انتشار تعبير (حب الوطن) عاماً بمعناه الجديـــد حتى أن التعبير ظهر في القاموس التركي الفرنسي لواضعه (هاند جيري) ، وحوله تعليق قصير لتوضيح معناه وتأكيد

أنه مرادف[*] لكلمة (Patriotisn) بالفرنسية ، وفي سنة ١٨٥١ كتب الشاعر والصحفي التركي (شينازي) في رسالة إلى أمه يقول : أريـــد أن أضحي بنفسي في سبيل ديني ودولتي ووطني وملّتي : (دين ودولتْ ، ووطن وملّت) . وجاء حرب القرم فكان فرصة للوطنية . . . المكافحة وظهرت لأول مرة قصائد وطنية . .

وفي تلك الأيام درج في الصحف اليومية استعمال كلمة (وطن) ، وفي سنة ١٨٦٦ صدرت جريدة يومية سميت (مرآة الوطن) .

أما ظهور الأفكار الوطنية في مصر فلقد تأخر قليلاً عن تركيا ، وكان بدوءه من عمل الشيخ رفاعة الرافعي الطحطاوي ، ولعله وعى معنى الوطنية في حياة الفرنسيين عندما بقي في باريس ما بين ١٨٢٦ — ١٨٣١ ، ولكنه لم يذكر هذا المعنى بتفصيل في كتابه الذي ألفه عن مشاهداته في فرنسا أما كتاباته في الوطنية فقد جاءت بعد عدة سنوات وحظيت بالتشجيع الرسمي الحكومي ؛ ففي سنة ١٨٥٥ نشر « قصيدة وطنية مصرية » يمدح فيها الحاكم الجديد سعيد باشا ، ثم أصدر في نفس العام مجموعة شعرية سماها (منظومات وطنية مصرية) استوحاها من ارسال فرقة مصرية لمساعدة الأتراك في حرب القرم . وبعد ثماني سنوات نشر قصيدة وطنية أخرى يهنئ فيهـــا الخديوي اسماعيل باعتلائـــه العرش ، وفي سنة ١٨٦٨ أصدر مجموعة شعرية جديدة سماها (وطنيات) وكان ذلك بعد عودة

اللواء النوبي العسكري من المكسيك ، وكان هذا اللواء العسكري جزءاً من حملة أرسلها نابليون الثالث وكانت بعض قصائد الشيخ رفاعة أناشيد عسكرية تمدح مصر ، والجندي المصري ، والجيش المصري وحكم الخديوي . أما في كتابته النثرية فلقد فصل الشيخ رفاعة مفهوم (حب الوطن من الايمان) والأمالي التي جمعها الجغرافي السوري ابن شداد ؛ والوطنية بتعريف الشيخ رفاعة هي الرابطة التي تحفظ النظام الإجتماعي وتحمي تماسكه ، ومن أهم أهداف التربية تلقينها للجيل الفتي ، وكانت وطنية الشيخ وطنية مصرية . ولم تكن (عربية) لأنها لم تضم البلاد العربية الأخرى ، ولا (إسلامية) لأنها كانت تضم قدماء المصريين قبل الفتح الإسلامي وتضم غير المسلمين المستوطنين في مصر . ومنذ عام ١٨٣٨ أصدر الشيخ رفاعة أول ترجمة عربية لتاريخ مصر الفرعونية في اوروبا وفي سنة ١٨٦٨ حاول أن يكتب تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح العربي ، وكانت كتاباته الأخيرة ملأى بمشاعر الإفتخار بأمجاد قدماء المصريين ، وحب عميق لبلاده إذ يصفها بأنها وحدة حية ! ! مستمرة من أيام الفراعنة حتى أيامه التي عاشها وكانت فكرة الشيخ رفاعة نظرية جديدة جذرية في العالم الإسلامي ، وظهرت مبكرة قبل كثير من مثيلاتها في أي قطر إسلامي آخر .

وكان « موديل » ! ! وطنية الشيخ رفاعة برعايـــة وتشجيع الخديويين الذين وجدوا في بروز وحدة سياسية مصرية متميزة ، وظهور ولاء لها دعماً لحكمهم وأفكارهم الإنفصالية عن الدولة العثمانية ، وكذلك ساعد أبناء العائلة الخديوية لأسباب متعددة ، في

الحملة الدعائية (للموديل) الآخر من الوطنية التي حمل لواءها مجموعة من الوطنيين المتحررين الأتراك، وكانوا يسمون أنفسهم: «الشبيبة العثمانية» وجاءت أعوام (١٨٥٠ – ١٨٧٠) بتطورات هامة. فلقد أثارت الحرب رغبة جامحة لسماع الأخبار والتعليقات التي كانت تنشرها الصحافة وبرقيات الأنباء؛ وشاركت انفعالات حرب القرم والأمثلة التي ضربها حلفاء تركيا الغربيون في إثارة ونمو الوطنية، وكان من أعراض هذا النمو الإقبال الواسع على قراءة الصحف. وعند ما ألفت (الشبيبة العثمانية) مجموعتها أخذت تنادي بنظام أكثر تحرراً سياسياً في الإمبراطورية، ويستند في أساسه على برامج وطنية وتحررية.

وكان الزعيم الفكري لهذه المجموعة، نامق كمال، يكتب النثر والشعر الرائع في الوطنية، وفي عظمة بلاده وولاء المواطنين لها. وكان عنوان أول مقال رئيسي ظهر في جريدة (الحرية) التي أصدرها المتحررون المنفيون في لندن سنة ١٨٦٨، كان العنوان: «حب الوطن من الايمان» وأصبح استعمال هذا «الأثر» تقايداً عممه الوطنيون الجدد، وأخذ نامق كمال يكتب ويعلق عليه بسلسلة من المقالات عندما كان في اوروبا منفياً، وبعد عودته إلى تركيا سنة ١٨٧٠، وفي سنة ١٨٧٣ نفي مرة أخرى لاوروبا، وذلك بعد الترحيب الحماسي الذي لاقته مسرحيته (وطن) وكانت تصور مرحلة في حرب القرم.

وكان نامق كمال في وطنيته يعني الإمبراطورية العثمانية كلها سيادة وأرضاً وشعوباً؛ ولم تظهر كلمة (الترك) في كتاباته إلا نادراً،

وكان يعني بها العثمانيين المسلمين ، وكانت كلمة (عثماني) تعني عادة (مسلماً) ، إلا أنها كانت تستعمل أيضاً لجميع رعايا الإمبراطورية دون النظر إلى الدين أو العنصر ، والذين يضمهم ويجمعهم ولاء واحد . وكان لنامق كمال فِكَرٌ متناقضة في مفاهيم (الأمة) و (البلاد) ، وأحياناً كان يخلط في كتاباته بين معنى الكلمة الأولى ومعنى الكلمة الثانية . إلا أن الأمر البارز في آرائه هو ولاؤه العميق للإسلام ؛ فبالرغم من استعماله تعابير وطنية ، ودعوته لمواطنيه من غير المسلمين كان هدفه الأخير خدمة الإسلام . وبإمكاننا أن نرى هذا بوضوح في كثير من كتاباته وتلميحاته . فهو لا يهتم بتاريخ تركيا قبل إسلامها ، وغير مهتم بتاريخ الشعب التركي قبل إسلامه أيضاً و (وطن) نامق كمال حكَمَه الخلفاء العرب والسلاطين الأتراك ، وأبناء وطنه هذا هم العرب والعجم والترك وأبطالهم جميعاً

وليس في وطنية نامق كمال مايشبه المعنى الواضح للهوية المصرية والإستمرار التاريخي المصري التي عبر عنها الشيخ رفاعة في كتاباته كان نامق كمال ناقداً معارضاً ، ولم يكن موالياً للحكم ، وكان صحافياً أكثر مما كان معلماً موجهاً ولكنه كان على كل حال عضواً من أعضاء العائلة الحاكمة في الإمبراطورية ، وكان عدم استقرار آرائه مقياساً لما كان عليه واقع عصره من التغيرات السريعة التي تستوعب ولم تفهم بدقة ووضوح .

وفي كثير من كتبه يؤكد نامق كمال لقرائه وقوفه ضد خطر الإنشقاق بين شعوب وقوميات الإمبراطورية ويقول إن شعوب

الإمبراطورية متنوعة « هذا صحيح » إلا أن مختلف هذه الشعوب ممتزجة بيعضها تماماً حتى إنه لا يوجد واحد منها في أي منطقة يملك القوة الكافية لينفصل بدولة جديدة ، أو ينضم إلى دولة أخرى قائمة . والإستثناء الوحيد هوالولايات العربية حيث تقطنها ملايين عدة تتكلم لغة أخرى وتحس أنها تمت إلى عنصر آخر ، إلا أن هذه الملايين ملايين مسلمة مرتبطة معا برباط الأخوة الإسلامية ورباط الولاء للخلافة ولن تنفصل عنا باسم العروبة أوغير ذلك . ولقد كان نامق كمال على خطأ في نقطتين ! ! وكان المستقبل البعيد يحمل برهان هذين الخطأين ؛ والحق أن العرب في زمنه كانوا مرتبطين برباط الأخوة الإسلامية ورباط الولاء للخلفاء ، وكان هذا بالنسبة للعرب يعني أكثر بكثير مما تعنيه الفكرة المورّطة في (الوطنية العثمانية) . وكان هناك شواذ في موقف العرب هـــذا : كان هناك المثقفون العرب المسيحيون في بيروت وجبل لبنان حيث لاقت فكرة الوطنية صدى وردة فعل . وكانوا كمسيحيين أكثر انفتاحاً للأفكار الاوروبية إلا أنهم لم يكونوا أيضـــاً كمسيحيي الأناضول وروميليا لأنهم كانوا يشتركون باللغة والحضارة مع جيرانهم المسلمين ، ولم يكن لهم قط ذكريات عن هوية قومية مستقلة في السابق . ولقد عانوا من المذابح الطائفية بينهم وبين الدروز ، وكانت آخرها في سنة ، (١٨٦٠) كل ذلك دفعهم لتحبيذ قيام دولة على أساس وطني لا على أساس ديني ، فاذا كانت اللغة والحضارة والأرض متطلبات الهوية للمواطن فللمسيحيين العرب ، وهم يملكون المتطلبات اللازمة ، حق في أن

أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى وهـــذا ما لم يكن لهم في الإمبراطورية الإسلامية

وفي سنة ١٨٦٠ أسس بطرس البستاني مدرسة سماها المدرسة الوطنية ووجه نداءه للمسلمين والمسيحيين من مواطنيه بدعوتهم للتماسك والتعاضد . وفي سنة ١٨٧٠ استعمل (وصفة) ! ! (حب الوطن من الايمان) كحكمة العدد في مجلته نصف الشهرية وكان اسمها (الجنان) .

كان البستاني يكتب وهو أحد رعايا الدولة العثمانية ، إلاأن الوطن الذي كان يعنيه هو سورية ، وهي ولاية من الدولة . . . وليست كل الدولة . وكانت ذكرى المذابح وذكرى الإستقلال الأداري الذي تمتع به جبل لبنان ، كان هذان العاملان سبباً في تفكير بعض المسيحيين الموارنـــة في خلق وطنية معاكسة للوطنية العثمانية تقوم على أساس الوطنية اللبنانية وتماثل الحركات التي قامت فيصربيا وفي بلاد اليونان . وكانت هذه الحركات هي المظهر الوحيد لعدم الولاء في ذلك الوقت في الولايات العربية التي بقيت كلها مخلصة للدولة العثمانية الإسلامية .

وكانت مصر البلد المسلم الوحيد الذي تقدمت فيه فكرة الوطنية المحلية وكان ذلك بسبب عوامل عدة : :

١ — مصر بلد واضح المعالم الجغرافية والتاريخية . ٢ — كان فيها عائلة حاكمة قوية مصممة على إتمام الإستقلال . ٣ — تاريخ قديم

رائع اكتشفت آثاره منذ مدة ، وهو من أهم العوامل التي يستند إليها الإفتخار بالوطنية . وفي سنة ١٨٨٢ كان الإحتلال البريطاني عاملاً ضخماً في إثارة الشعور الوطني . حتى قبل أن يحتل الإنكليز مصر، قامت في مصر موجة كراهية للأجانب وكان شعارها مصر للمصريين ؛ ولقد أطلق هذا الشعار الصحفي المسيحي (سليم نقاش) وعممه اليهودي (أبو ندّاره) وطبقه القائد المسلم ! ! عرابي باشا ! ! وفي الأعوام العشرة التي تلت ١٨٧٠ حدثت عـــدة تطورات في مصر أدت إلى خلق ونمو هذا الشعور والتعبير عنه بأسلوب رشيق لبق ، فلقد خفت كمية مياه النيل وقامت حكومة مبذرة مسرفة ، وازداد النفوذ الأجنبي ، وتوسعت آفاق الصحافة وارتفعت السوية الثقافية وجاء مصر مدّ من الكتاب والمفكرين من آسيا الإسلامية : أهمهم جمال الدين الأفغاني وعدد كبير من الصحفيين أغلبهم من مسيحيي سورية الطبيعية (أي سورية ولبنان وفلسطين والأردن) وفي عام ١٨٧٩ شكلت فئة من المصريين الحزب الوطني ، وتبعه بعد الإحتلال البريطاني مجموعة من الأحزاب والجمعيات تعبر بأساليب مختلفة وبدرجات متفاوتة عن معارضتها للحكم الأجنبي ، وكان أهمها الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل السياسي المثقف الذي قاد المقاومة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ومن الخطأ النظر إلى هذه الحركات على أنها حركات وطنية قومية خالصة ، فطابعها وولاؤها الإسلاميان كانا قويين جداً . ولقد تغذت وتقوت من تيار البعث الإسلامي ، حتى أنها وجدت بعض الأحيان متنفساً في الشك والمعاداة لغير المسلمين ، أما حركات

المقاومة فكانت مصرية أساساً وتهتم فقط بأهداف مصر . لم تكن هذه المقاومة ضد الأمبريالية عامة بل كانت فقط ضد الإنكليز لأنهم كانوا يحتلون مصر . ولم تؤثر حملة الفرنسيين على الشمال الإفريقي في عواطف مصطفى كامل نحو فرنسا تماماً كما لم يتأثر الشيخ رفاعة قبله باحتلال الجزائر الذي بدأ عندما كان هذا الشيخ ! ! لا يزال في باريس .

ولم تكن الحركة عربية الطابع أيضاً . كان مجد الخلفاء المسلمين في القرون الوسطى بالنسبة لمصطفى كامل تاريخاً أسهم في صنعه أجداده إلا أنه تاريخ ميت جامد أقل إثارة بكثير من تاريخ أمجاد أجداده الفراعنة الذي اكتشف حديثاً . وعرب آسيا بالنسبة له كانوا من الأجانب ! ! ربما كانوا أبناء عمومة ولكنهم ليسوا إخوة للمصريين . ولقد هاجم بعض الكتاب المصريين من أمثال عبدالله نديم ومصطفى كامل السوريين المستوطنين في مصر وأسموهم : دخلاء ! ! أما صلتهم بالإسلام فكانت عن طريق التفكير بأن هدفهم هو جزء من الهدف الأكبر وهو الإسلام ! ! ! ولم تكن حركة عرابي موجهة ضد الأجانب بقدر ما كانت موجهة ضد العناصر التركية والشركسية التي كانت تسيطر على الجيش والقصر والنبلاء . إلا أن مصطفى كامل اتهم ثورة عرابي بالعدوان العنصري وقال إن الترك والشركس كانوا في مصر منذ زمن ويجب أن نعتبرهم مصريين الآن ، وأن نعدهم قسماً من الأمة ، ولا ضرورة لهذه الإنقسامات والإحتلال الإنكليزي جاثم على مصر .

ولم يكن للنموذج الاوروبي الغربي في الوطنية جاذبية كبيرة في مصر فلقد تعدل كثيراً نتيجة تأثير الولاءات القديمة العميقة التقليدية في نفوس المصريين . وكان لهذا النموذج الاوروبي حظ أقل في ايران والبلاد العثمانية التي كانت تحكمها عائلات بنت شرعيتها على الولاء للإسلام .

كانت ايران بلداً يسكنه شعب عريق في التاريخ له لغته الخاصة وطائفته الشيعية ،وعلى الرغم من بدء بعض الحركات الأدبية (الوطنية) ، والإهتمام الذي نما بأمجاد فارس القديمة ، فإن أغلبية الايرانيين بقوا على فكرتهم التي تؤكد أنهم مسلمون أولاً ، وأن أرضهم هي أرض الإسلام . وفي بقية شعوب الدول العثمانية كان للوطنية العثمانية حظ أقل في الظهور والنجاح وفي كـــل الشرق الأوسط كانت متطلبات قيام دولة على النمط الاوروبي الغربي مفقودة تماماً ؛ لم يكن في الشرق الأوسط شيءٌ يشبه جنسية القانون وجنسية الأرض كما كان في سويسرا وبريطانيا حيث التقاليد العريقة في الحرية المنظمة والهوية المشتركة . لم يكن فيه ما كان في فرنسا من وطنية سياسية مركزية تستند إلى الهوية التاريخية القديمة المؤلفة من الدولة والأرض واللغة والحضارة اختلطت جميعها في بوتقة الثورة الفرنسية واكتسبت أفكاراً جديدة مثيرة متحررة .

وفي بحران الإرتباك العنصري والهمود السياسي والجماعية الدينية لم يكن في الشرق الأوسط أي احتمال مقبل لقيام أوضاع تماثل أوضاع الغرب .

أما القارة الحصيبة . . . اوروبا فقد كان عندها أكثر من مثل لحوارييها ، وللذين يتبعونها في مناطق أخرى لم يكن في شرق ووسط اوروبا دول قديمة قائمة على أساس أمة متميزة كما كان الأمر في فرنسا وانكلترا واسبانيا بل كان هناك شعوب وأمم تعيش تحت حكم عائلات مالكة في امبراطوريات عدة مقسمة إلى مقاطعات أو كانت هذه الشعوب والأمم تابعة للحكم الأجنبي . لقد كان هناك المان لكن لم يكن هناك المانيا ، وكان هناك بولنديون ولكن لم يكن هناك بولندا ، وايطاليون دون أن يكون هناك ايطاليا ومجريون دون أن يكون هناك إلا ظل لدولة مجرية . وكانت (وطنية) اوروبا الغربية لا تناسب هؤلاء جميعاً . لأنها قد تقودهم إلى أن يحكموا بالأسياد الأجانب ، أو بالعائلات المالكة ويتكرس بذلك انقسامهم وهو مايحاولون التخلص منه وكان ولاؤهم العميق لقومهم وأمتهم ولم يكن للدولة أو للبلاد وما كانوا يؤمنون بالوطنية بل بالقومية ولقد وضح (ناميه) Namier ذلك حيث قال : «لم تكن الدولة هي التي خلقت الجنسية بل القومية القديمة هي التي خلقت الدولـــة ، فالفكرة الألمانية ، عن الجنسية هي في اللغة وفي العرق أكثر ممـــا هي في السياسة وفي الأرض ، وبنت اوروبا الغربية قوميتها على أسمى أشكال الحياة الجماعية ، أما القومية الألمانية فأسست على أسطورة القبائل البربرية ، وإذا أردنا التعبير عن هذه الأسطورة الألمانية بالعربية نقول هي : القومية .

وكان هذا الشكل من القومية يهتم أولاً بالإستقلال والوحدة والقوة وهو لا يهتم بالحرية الفردية ، وإذا اهتم بها أصلاً فهو اهتمام ثانوي

ولقد كتب الأمير (غولدويغ زو هوها نلوهي شيللينغ زفرست) سنة ١٨٤٧ : « إن أحد أسباب عدم الرضى هو عدم وجود المانيا كدولة مثل باقي الدول وأنه لمن المحزن والمذل عدم استطاعتنا القول بفخر في الخارج : (أنا الماني) بل نقول : أنا دارمشتادي أو أنا كورهيسي ، أو أنا بوكر بورغر ؛ لقد كانت أرض آبائي بلاداً كبيرة قوية إلا أنها الآن مقسمة إلى ثمان وثلاثين قطعة » وأكثر دعاةالقومية العربية يوافقون على المشاعر التي أبداها الأمير الألماني ويشاطرونه الرأي بالنسبة لبلادهم ، ومن المؤسف أيضاً أن أكثر دعاة القومية العربية يدعمون قول الزعيم الألماني الليبرالي بسمارك سنة (١٨٤٩) : « لوكنت أعلم أن وحدة المانيا ومستقبلها العظيم لا يتمان إلا بالتخلي المؤقت عن كل الحريات لكنت أول من يخضع لهذه الديكتاتورية » ! ! .

وهذا النوع من القومية رومانطيقي ذاتي شوفيني متعصب يزدري الولاءات الشرعية ويهمل الحرية الشخصية ، إنه يشبه الأوضاع التي صنعت الدول المنهارة في الشرق الأوسط ؛ ولقد لقي هذا النوع في وقت من الأوقات ردة فعل شعبية جامحة في تأييده لقد قاد هذا النوع من القومية في البلاد التي نشأ فيها أولاً إلى إثارة جهود جبارة وانجازات كبيرة . . . إلا أنه انتهى بها إلى فقدان الحرية السياسية بل إلى التخلي الكلي والتنازل عنها .

ولقد تسربت القومية العرقية من أواسط وشرق اوروبا عبر أقنية عدة . ولقد كان اللاجئون البولنديون والمجريون على الغالب

أول الناقلين عندما ذهبوا لتركيا بعد فشل ثورتهم سنة (١٨٤٨) ، فلقد بقي قسم كبير منهم فيها واعتنقوا الإسلام واحتلوا مناصب هامة في الدولة العثمانية وكان أحدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين ! ! ! باشا ، ولقد نشر سنة ١٨٦٩ كتاباً بالفرنسية في استنبول اسمه (أتراك الأمس وأتراك اليوم) . وفي الكتاب جزء كبير يشكل تقريراً للسلطان عن المشاكل الحاضرة في الإمبراطورية واقتراحات حلها ؛ وبه جزء تاريخي يضم دراسة أجراها المستشرقون الاوروبيون عن التاريخ القديم للشعب التركي وبه يؤكدون دور الأتراك الايجابي الخلاق في التاريخ . ولقد حاول بورزيسكي جهده لإثبات أن الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب اوروبا وينتمون لما أسماه العرق (الطوراني — الآري) .

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القومية البولونية ووضعها في قالب تركي وساعده على هـــذا العمل ماعرضه من أعمال المستشرقين الاوروبيين الباحثين في الشؤون التركية ، ولقد وصلت نتائج أبحاث هؤلاء إلى المجتمع التركي عن عدة طرق ، وكان لها تأثير هام على الذهنية التركية خصوصاً في تقدير التاريخ التركي القديم والإعتقا دبالهوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ ولقدكان الأتراك أكثر من العرب واالعجم نسياناً لتاريخهم الماضي فلقد كانوا لا يفكرون بأية هوية أخرى غير الإسلام ؛ ولكن المستشرقين عن

قصد[1] أو عن غير قصد ساعدوا الأترك على استعادة هويتهم القومية الضائعة ، وعلى الدعوة إلى حركة قومية تركية جديدة . ولقد انتشرت هذه الفكرة أولاً بين (تركمان) الإمبراطورية الروسية والذين كانوا يسمون خطأ التتار . فلقد كان تاريخ هؤلاء مع روسيا مماثلاً لما كان عليه مسلمو الهند ومصر بالنسبة لبريطانيا ، من الإنسحاب المحزن من المجتمع إلى الحركة الإصلاحية إلى التفاعل ورفض الأجنبي ، ولقد درس مثقفوا (التتار) في معاهد وكليات روسيا تاريخهم وآدابهم القديمة واكتسبوا إحساساً بالفخر وبوجود الشخصية المستقلة ، وصادفوا في حياتهم القومية السلافية الخيالية التي انتشرت بين (أسيادهم) ولذا كانت ردة فعلهم في تبني فكرة القومية التركية الخاصة بهم . ولقد جاء هؤلاء التتار بهذه الأفكار إلى تركيا بعد أن هاجر ونفى قسم منهم من الإمبراطورية الروسية ولم يصادفوا في أول الأمر اهتماماً لأن الأتراك العثمانيين لم يجدوا مبرراً لتبني فكرة تفتت الإمبراطورية الكبيرة التي يحكمونها . ولقد كان الشاعر التركي الكبير محمد عاكف من العاملين المتحمسين ضد هذه القومية العرقية التي كان يرى أنها من الأساس مناقضة للوطنية والدين . إلا أن الزمن بدأ يتحول وبدأت الدولة العثمانية تخسر ولاية بعد أخرى في اوروبا بقيام الدول القومية المستقلة ، وهذا ما ضيق أفق (العثمانية) ، وكان ذهاب القوميات غير التركية وانفصالها عن الدولة سبباً في تركيز الإهتمام على الأتراك الباقين في الأناضول

---

(١) ان اعمال المستشرقين لا تسمح لنا بحسن النية الدائمة لذلك فاننا نعتقد جازمين أن عملهم هذا كان مقصوداً ان لم نقل مدروساً ومخططاً أيضاً .

وهكذا بدأت فكرة ايجاد أسس جديدة لهوية الدولة ليس هوية دولة كبيرة متفككة متعددة اللغات والقوميات بل وحدة جديدة مبنية على العنصر التركي ممتدة من بحر ايجة عبرآسيا إلى بحر الصين .

ولما جاء السلطان عبد الحميد أخمد هذه الأخطار ، ولم تظهر مرة أخرى إلا بعد ثورة ١٩٠٨ وأخذت تجتذب إليها جماعــة (الشبيبة التركية) ، ومثل ما جرى في مصر بدأ الأتراك يفتشون عن دعم لهذه الحركة في تاريخهم القديم . ولكنهم اهتموا بتاريخ الأتراك كشعب ولم يهتموا بتاريخ تركيا كدولة . وتعدى بحثهم تاريخ الأترا ك الإسلامي إلى ما قبل دخولهم الإسلام في أواسط وشرق آسيا ، ولم يهتموا في ذلك الوقت بتاريخ تركيا قبل الحكم التركي أي تاريخ الدولة البيزنطية ودولة طروادة أو تاريخ الدول القديمة في آسيا الصغرى . ولم يظهر هذا الإهتمام إلا في الجيل الذي تلا . لذا فالحركة التركية لم تكن (وطنية) بل (قومية) ولم يكن الولاء فيهــا للإمبراطورية العثمانية غير المتجانسة ولا للدولة العثمانية (المهترئة) ! ، بل للأقوام الأتراك الأقوياء والذين عاش أكثرهم خارج حدود تركيا التي بقيت آخر دولة مستقلة في العالم التركي .

وفي سنة ١٩١٤ وجدت تركيا نفسها في حرب مع روسيا الدولة التي حكمت أكثر الشعوب التركية والأراضي التركمانية ، وكان بجانب تركيا حليفتان قويتان ؛ وللمرة الأولى ظهر احتمال جدي باستطاعته تحقيق الحلم التركي في وحدة كل الأتراك ولقد قال الشاعر والإجتماعي التركي (زيا غوكالب) آنذاك :

سنجتاح أرض العدو ونوسع تركيا لنقيم : (دولة طوران) .

وبعد فترة تثبطت فيها الهمم ، وسببها اندحار الجيوش العثمانية في الميدان عاد وا نتعش الأمل مجدداً بعد عام ١٩١٧ وذلك عند قيام الثورة الروسية والحرب الأهلية ، وانهيار السلطات الروسية في آسيا الوسطى والقوقاز ، فلقد عاد احتمال قيام ساعة التحرير وتوحيد الأتراك في دولة كبيرة واحدة .

وفي مصر أظهر الزعماء الوطنيون اهتماماً أكثر في فكرة التمثيل السياسي والحكومة الدستورية وشجعهم على ذلك إعلان الدستور الايراني التركي ، وكانت قوانين الإنتخاب التي أعلنت سنة ١٩١٣ والدستور الذي أعلن سنة ١٩٢٣ خطوات في طريق تكامل برنامج متحرر ، وكان ولاؤهم لمصر وطني الإتجاه أكثر مما كان قومي الإتجاه ؛ كانوا يفخرون بلغتهم العربية وحضارتهم العربية وبدينهم الإسلامي ولكنهم رفضوا أن يكونوا ولاؤهم (للعروبة) أو (للإسلامية) ! وكان عرب آسيا خارج مصر يشعرون بعطف واهتمام يستندان إلى روابط تاريخية وحضارية ولكنهم لم يتصلوا معهم بصلة سياسية . وكان موقفهم يشبه موقف الأمريكان تجاه انكلترا أو على الأصح موقف المكسيكي مثلاً الذي يفخر بتاريخ اسبانيا لصلته الماضية بها . ولقد اتهم مصطفى كامل حركات القومية العربية الأولية بالمؤامرة الإنكليزية التي تهدف للإطاحة بالدولة العثمانية وبالخلافة .

وقام زعماء هذا النوع من اله طنية العلمانية المتحررة من الطبقة

المهنية مثل المحامين ، والرسميين والموظفين ، والمعلمين والصحفيين وكان هؤلاء بطبيعة تربيتهم ووظائفهم أقل الناس تمسكاً بالتقاليد القديمة وأكثر عناصر المجتمع المصري (تغريباً) . ولهذه الأسباب بالذات بقي هؤلاء منعزلين عن جماهير الشعب المصري ، لقد كانت نقمة الجماهير على الأجنبي سلاحاً استغله هؤلاء الزعماء الوطنيون إلا أن أفكـــار وايدولوجية هؤلاء الوطنيين المتحررين كانت غريبة ولا تعني شيئاً بالنسبة لجماهير الشعب .

وجاء الفشل المدبر النهائي لهؤلاء الوطنين عندما طبقوا برامجهم في السيادة الوطنية والحكومة الدستورية وكشفوا بذلك عن عدم صلة هذه البرامج بالحقيقة الواقعة في مصر ، وعدم كفايتها لحاجات المصريين ؛ وهكذا اضمحلت الحركة الوطنية العلمانية الليبرالية وماتت في المعارك العنيفة التي قامت ما بين ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ولقد أحرق جثمانهـــا — بالتحديد — في ٢٦ (يناير) كانون الثاني سنة ١٩٥٢ يوم السبت الأسود Black Saturday عندما حرقت الجماهير قلب القاهرة ، وحطمت عدة بنايات وحطمت معها مجتمعاً ... ونظام حكم ! وكان هناك جماعتان تتنافسان علي الميراث : الحركة الإسلامية التي يقودها الإخوان المسلمون والحركة القومية العرقية التي تدعو للقومية العربية والتي انتقلت إلى مصر من آسيا .

ولقد حاول بعض القوميين العرب المتطرفين في عدة مناسبات ايجاد أسس للقومية العربية الحديثة منذ عهد محمد علي بل عهد صلاح الدين الأيوبي . . . بل الخليفة عمر بن الخطاب . . . بل عهد . . . حمورابي ! ! وبدون تعليق أهمية خاصة على هذه التصورات

الخيالية الطائرة ! ! يجب أن نقول أن إحساس العرب بهويتهم المتميزة هو أمر قديم عميق الجذور . وفي العصر الجاهلي وبداية العهد الإسلامي كان عند العرب شعور عنصري ارستقراطي تحول بعد قيام الإمبراطوريات الإسلامية العالمية إلى نوع من الإحساس بقيمتهم الثقافية باعتبارهم اصحاب اللغة العربية لغة القرآن . وكما قال الثعالبي أحد فلاسفة اللغة :

« من يحب الرسول الكريم يحب العرب ومن يحب العرب يحب لغتهم العربية لغة أفضل الكتب المنزلة . فكل إنسان شرح الله قلبه للإسلام يعتقد أن محمداً هو أفضل الأنبياء وأن العرب أفضل الناس وأن اللغة العربية أفضل اللغات » .

وافتخار العرب له مايبرره في لغتهم الرائعة وفي أدبهم الغني العظيم وقد عبروا عبر الأجيال عن هذا الفخر . إلا أن العروبة كحركة سياسية وكفكرة تقول إن العرب يشكلون أمة لها حقوقها القومية . . . هذا الشكل من (العروبة) لم يظهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، وبقي أول الأمر محدوداً بمجموعة صغيرة من الناس لا تمثل الشعب العربي وكان أكثر هذه المجموعة من المسيحيين أما غالبية العرب فبقوا مخلصين للدولة العثمانية حتى تاريخ اندحارها فلقد كان العرب مواطنين مسلمين في وطن إسلامي ؛ والحركات الشعبية القومية كالتي دفعت المسيحيين في صربيا واليونان للثورة وطلب الحرية ، لم تقم ولم يكن لها مقومات القيام في العالم العربي والفئة الصغيرة من المتعلمين الذين بشروا بالبعث العربي لم يلاقوا صدى مناسباً حتى أن الثورة العربية التي نظمها الإنكليز لم تكن ناجحة

لا في دعوتها ولا في أهدافها كما أوحت بذلك القصة الرسمية المروية

لقد قامت على كل حال فئة من الذين فكروا بالبعث القومي العربي الذي كانت له أهمية في الجيل المقبل ، وكما أيقظت القومية السلافية في الإمبراطورية الروسية الدعوة إلى القومية التركية وانتقلت هذه بدورها إلى الدولة العثمانية ، كذلك قامت التركية بدورها بايقاظ الدعو ةإلى القومية العربية بين العرب في الدولة العثمانية . ودعوة (العروبة) السياسية قامت ما بين أواخر القرن التاسع عشر وابتداء القرن العشرين وقد حملها بصورة رئيسية بعض السوريين خصوصاً السوريين الذين هاجروا إلى مصر مثل عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ؛ ويظهر أن الأول كان أول من جهر بالخروج على سلطة الأتراك والسلطان العثماني وطالب بقيام دولة عربية وخليفة عربي .

وبعد سنة ١٩١٨ تحول كره العرب ضد أعداء أكثر وضوحاً لم يكن هؤلاء الأعداء هم الترك وسلطانهم ، بل كان الإستعمار والصهيونية ، وكانوا يعرفون في الماضي باسم المسيحيين واليهود فبعد أن حُرم العرب من ولائهم الديني وخلافتهم الزائلة ، وعاشوا في وحدات سياسية مصطنعة خلقها المحتل أصبحوا تحت رحمة حكم أجنبي يمارسه أسيادهم ! ! المشركون ! ! لذلك لم يجد العرب في دعوة الوطنية والليبرالية والإشتراكية من النوع الذي قام في جنوب شرق آسيا ، أي جاذبية ولم يبدوا بها أي اهتمام . وبدلا عنها تحولوا إلى القومية العنصرية التي قامت في أواسط اوروبا والتي اكتسبت إلهاماً جديداً من (رأس النبع ـ المانيا) مابين ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ .

ولقد وقف المصريون أولاً بمعزل عن هـذه الحركة وكانوا يُعيرون بالفرعونية . وبعد قيام النظـام العسكري في مصر ألقى المصريون بثقلهم مع القومية العربية وساروا حتى نهاية الشوط . . . حتى أن اسم مصر غاب عن الخريطة ــ وهذا أمر لم تستطع أية قوة محتلة أن تفعله في السابق .

والكلمة التي تستعمل بالعربية للتعبير عن فكرة الجنسية الوطنية هي ــ القومية ــ وهي اسم مشتق من قوم وتعني بالعربية الكلاسيكية الأهل والأتباع ومجموعة العشيرة ، وبكلمة أدق تعني ــ الآل ــ الذين يتنادون للمساعدة عند الشدة . وبهذا المعنى المحدد تستعمل هذه الكلمة في شمال افريقيا وتلفظ (جوم) (الجيم المصرية) . ومثل كلمة (وطن) كلمة (قومية) ، وهي اشتقاق من اللغة العربية إلا أنها استعملت بمعناها السياسي الجديد في تركيا أولاً ، وكانت اللغة التركية أول اللغات الإسلامية التي نقلت ثم (صكت) الكلمات الجديدة للأفكار الجديدة . ولقد وردت كلمة (قومية) بالتركية على لسان (الشبيبة التركية) وفي كتاباتهم وكانوا يعنون بها القومية التي تعارض الولاء الأوسع للسلطنة العثمانية الكبرى وللإسلام . ولذلك في سنة (١٨٧٠) انتقد (علي سوافي) اقتراحاً عثمانياً شبه رسمي يطلب أن يتبنى الباب العالي (القومية) مثل ايطاليـا وبروسيا ويوحـد جميع المسلمين على أساسها ! ! ! وبين (علي سوافي) بحق أن القومية في اوروبا تعني شيئـاً آخر مختلفاً تماماً ، « فليس عندنا مشكلة قومية ، والمشاكل القومية تقود

لدمارنا ؛ وقضية توحيد المسلمين مسألة إسلامية دينية وليست مسألة قومية » ؛ وبعد عامين كتب نامق كمال بحثاً رصيناً للإنسجام والوحدة بين مختلف الأقوام الذين يشكلون الدولة العثمانية وذلك على أساس وطنية جماعية تربطهم جميعـاً بالوطن العثماني . وأكد أن العرق والدين يأتيان بالدرجة الثانية بعد الوطن والمواطنة وبالإمكان حمايتهما والإحتفاظ بهما في الدولة العثمانية المتحررة المتسامحة ، بدل أن نسعى إلى تخاصم لا طائل تحته بين الفئات العرقية المختلفة في الدولة . وكان نامق كمال يعني بالأساس شعوب البلقان المسيحية ولم يكن الأتراك حينذاك قد فكروا بايجاد قومية عنصرية خاصة بهم ، إلا أن نداءه ذهب عبثاً ؛ وانتشرت القومية بسرعة بين المسيحيين العثمانيين وانتقلت بواسطتهم إلى المسلمين : الألبان والعرب وحتى إلى الأتراك أنفسهم بعد ذلك . وعندماثارت القومية الألبانية سنة ١٩١٢ أثارت معها حملة من الإستنكار قام بها الشاعر محمد عاكف المسلم الوطني المعارض للقومية وكان هو من أصل ألباني ، قال :

« إن ملتكم هي الإسلام فما هذه القومية القبلية ؟

هل العرب أفضل من الترك أو أن اللاظ أفضل من الشركس والكرد ؟ أم أن الفرس أفضل من الصينيين ؟ بماذا يفضلونهم ؟

ماذا دهاكم هل تقسمون الإسلام إلى أجزاء متعددة ؟

إن الرسول الكريم نفسه سفّه العصبية القبلية وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب ومن يقول غير هذا فهو مجنون، والترك

بالنسبة للعرب عينهم اليمنى وساعدهم الأيمن . فلتكن البانيا لكم انذاراً ، ما هذه السياسة المتخبطة وما هو هذا الهدف الشرير ؟

اسمعوها مني ، أنا الألباني ، : لا أقول أكثر من : أسفي على بلادي المبتلاة . »

إلا أن الشاعر محمد عاكف كان يحارب في معركة خاسرة . ولقد تحقق بنفسه من ذلك فبعد أن تعاون لفترة قصيرة مع الكماليين في حرب الأناضول وكتب قصيدة أصبحت فيما بعد النشيد الوطني التركي للجمهورية الأولى ، أقول بعد ذلك انسحب وعاش في القاهرة . . . منفاه الإختياري ؛ وانتشرت القومية وعمت في النهاية جميع شعوب الشرق الأوسط .

ففي ايران البلد التي تميزها اللغة والأرض والدولة . كان موضوع مزج الفكرة القومية بنوع من الوطنية ! ! الإسلامية أمراً سهلاً إلى حد ما . ولقد مرت فترة لم تدم طويلاً ، على ايران راجت فيها فكرة العرقية بتأثير النفوذ النازي وبسبب الإطناب الذي صاحب ذلك عندما قيل إن الايرانيين هم العرق الآري السامي ، إلا أن هذه الفترة لم تترك أي أثر بارز بعد زوالها السريع .

وفي الشرق الأوسط السوفياتي كان للقومية خط سير متعرج ، فبعد الثورة الشيوعية ظهرت حكومات قومية متعددة الصور السياسية في وسط آسيا والقوقاز ، ولكن الجيش الأحمر أطاح بها جميعها وجعلها كلها خاضعة لسلطة موسكو ومنذ ذلك الحين أصبحت كل

حركة قومية عدواناً على السلطة ويحاكم أصحابها وينالون عقابهم بحسب شدة (الجرم) ! !

وأهم محاكمة جرت لمثل هذا الموضوع كانت سنة ١٩٣٨ فلقد اتهم (فيض الله خوجييف) رئيس وزراء جمهورية ازباكستان (وأكمل أكرامون) السكرتير العام للحزب الشيوعي الأزباكستاني بالقومية وبالجاسوسية لحساب بريطانيا . . . وأعدما . وقد يبدو ذلك غريباً لسكان جنوب الشرق الأوسط إلا أن الشرق الأوسط السوفياتي بقي على هذه الحال مدة طويلة ؛ أما تقدير القوة والإتجاه الحالي للقومية في آسيا السوفياتية فأمر صعب يماثل تقدير قوة الجمهوريين في المملكة العربية السعودية .

وهناك قومية من نوع آخر تختلف كلياً عن قومية المسلمين[1] في بعض وجوهها وتشبهها في وجوه أخرى وهي القومية اليهودية وهي إحدى العناصر التي أسهمت في نمو الحركة السياسية الصهيونية ووعي اليهود لرابطتهم الذاتية مثل وعي العرب لذاتهم قديم قدم وجودهم ، وهذا الوعي ، مثل وعي العرب أيضاً ، مر بمراحل القبلية العرقية والثقافية وتبلور بشكله المتميز الدائم على صعيده الديني.

ولقد بدأت حركة القومية اليهودية في وسط وشرق اوروبا حيث كانت تعيش الأقلية اليهودية المحافظة منعزلة لم تتمثلها المجتمعات الاوروبية فلم تذب هذه الأقلية فيها . وكان لهذه الأقلية جميع

---

(١) يعني المؤلف على ما أعتقد ، القومية التي نشأت في بلاد الإسلام وليس هناك على أي حال قومية ! ! اسلامية .

متطلبات الدولة القومية عدا شيئين : (١) اللغة القومية الواحدة . (٢) الأرض القومية الواحدة[١] فكانت حركتا البعث العبري والصهيونية تهدفان إلى تأمين هذين الشيئين المفقودين ؛ ولقد اقترح بديل لهما ، فعند يهود اوروبا الشرقية لغة خاصة بهم وهي لهجة فرنكونية – قديمة تسمى الآن (يديش) وقد جاؤوا بها معهم عندما هاجروا في القرون الوسطى من الأراضي الجرمانية إلى الأراضي السلافية، وقد اغتنت بعد ذلك بالمفردات والأدب وأصبح لها مرونة ملحوظة . ولقد قامت بعض الوقت حركة ثقافية قومية بهذه اللغة ودعمت من العناصر اليسارية لتبنيها فكرة ثقافة يهودية علمانية شعبية تستند إلى لغة الجماهير ؛ إلا أن هذه الحركة فشلت في كسب التأييد الدائم ، مثلها مثل الحركة التي قبلت فكرة الوطن القومي إلا أنها أرادتها في منطقة أكثر ملاءمة وأقل اضطراباً من فلسطين ، فجماهير اليهود لم تقم لهاتين الحركتين وزناً يذكر . وفي أوائل القرن التاسع عشر شمل الحماس القومي الذي اجتاح الألمان والمجر والبولنديين ، الأقليات اليهودية ولقد قاتل بعض اليهود جنباً إلى جنب مع الألمان والمجر والبولنديين وماتوا في سبيل أهدافهم القومية ! ! . إلا أن العرقية والشوفينية اللتين صاحبتا دعوة هؤلاء القومية جعلت من الصعب عليهم أن يقبلوا اليهود كجزء من قومهم . وفي أواخر القرن التاسع عشر حدث انقسام حاد بين اليهود العلمانيين ذوي الميول القومية في وسط وشرق اوروبا ، وبين

---

(٢) لست ادري لعمري ما الذي كان عندهم اذن من متطلبات الدولة القومية اذ كانوا يفتقدون اللغة الواحدة والوطن الواحد .

الذين استمروا في معركتهم ليذوبوا في بوتقة القوميات الاوروبية وبين الذين تحولوا إلى فكرة وطن قومي في أرض الأجداد ! ! ؟ وهم الصهاينة .

ولقد كانت الفكرة القومية بالنسبة للمتمدينين التقليديين من اليهود هرطقة ومروقاً . أما بالنسبة ليهود غربي اوروبا فلم تكن الصهيونية ذات موضوع عندهم ، وكانوا ينظرون إلى الصهيونية بصورة عامة كنوع من الإهتمام بالسلالات البشرية فقط . أما اليهود المتنورون في وسط وشرق اوروبا فكانوا يواجهون حالة لم يحتملوها وكان أمامهم حلاّن لا ثالث لهما : إما الذوبان كأفراد في المجتمع الذي يعيشون فيه أو يجتمع الأفراد لإنشاء مجتمع لهم وعندما قامت موجة العداء للسامية بَعُد إلى حد كبير الإحتمال الأول ولم يعد هناك اختيار ، وهذا ما قوّى ووسع نطاق الدعوة الصهيونية .

واليهود شعب قادر على استنباط الأشياء الجديدة ، ولقد شهد لهم بذلك أصدقاؤهم وأعداؤهم على السواء فهم الذين اخترعوا الرأسمالية والشيوعية ولقد قال البعض أنهم هم الذين جاؤوا بالمسيحية والإسلام [١] ؟ ! ؟ !

---

(١) كلام سخيف كان يجدر بالكاتب ان لا يذكره في كتابه هذا . . . ولو على سبيل الدعابة .

إلا أنهم لم يستنبطوا الصهيونية السياسية[١] لأن قسماً من أسبابها جاء كردة الفعل اليهودية لتأثير قومية وسط وشرق اوروبا والقسم الآخر جاء كمحاولة لايجاد جواب لحاجات اليهود ولم يكن بد من حدوث ما حدث بالنسبة للقومية العربية[٢] أي اختلاط بين الدعوة القومية اليهودية وبين أعمق وأدق المشاعر في قلوب الشعب وهي المشاعر الدينية والثقافة الدينية والهوية الدينية والصبوة الخيالية إلى (صهيون) ؛ ثم تركزت الأحلام الصهيونية على شيئين بصورة خاصة : على اللغة العبرية . . وعلى فلسطين ، أي على لغة لم يكونوا يتكلمون بها وعلى أرض لم يكونوا يعيشون فيها ، ومع ذلك كان الشيئان بالنسبة لهم لغة مقدسة وأرض مقدسة . فلقد قدست اللغة العبرية بالتوراة وقدست الأرض بظهور اليهودية فيها . وهذا أمر فهمه العرب وقدروه حين أسموا اليهود « أهل الكتاب »[٣] .

وليس مهماً بالنسبة لإسرائيل وجود القومية العلمانية أي ليس مهماً أن يكون رعاياها علمانيين أو حتى ملحدين فهي تعتبرهم يهود

---

(١) من الصعب قبول هذا الكلام لان هناك من يعتقد العكس تماماً ويقول ان الحركة الصهيونية افتعلت افتعالا ثم دعمتها وشجعتها الاوساط الاستعمارية في غربي اوربة وتبادل الاستعمار والصهيونية المنافع بدعم احدهما للآخر ·

(٢) لا مجال هنا للمقارنة فكل مسلم واع يعرف ان الإسلام شيء آخر غير القومية العربية الحديثة ، وكل قومي عربي يعرف تماماً ان قوميته لا صلة لها من قريب أو بعيد بعقيدة الإسلام .

(٣) إن أرض فلسطين مقدسة بالنسبة للاديان السماوية كلها وليست فقط بالنسبة لليهود ، وأهل الكتاب هم اليهود المؤمنون لا الصهاينة الملحدون .

! ! ! على كل حال ولكن عندما يغير اليهودي دينه . . . عندها فقط ترفضه غالبية اليهود وترفضه الدولة ويرفضه القانون . ومن يدري فقد تتحول اسرائيل – إذا قدر لها أن تعيش – إلى مجتمع علماني طبيعي ! !

وإذا أردنا أن نشبهها بدولة أخرى فقد تكون باكستان أقرب مثل – بالرغم من اعترافنا بالإختلافات الكبيرة الواضحة بين البلدين – فباكستان محاولة لإقامة دولة حديثة مبنية على مجتمع ديني[1] .

لقد حاولنا في دراستنا تتبع ظهور وسقوط الوطنية الليبرالية ، وظهور وانتشار القومية العنصرية ، وبقي علينا أن نلقي نظرة سريعة على آخر مراحل التطور في هذا الموضوع . . . على الدول التي تسعى لايجاد جذور لها في وعي وولاء شعوبها ، غير أننا يجب أن نذكر أن احتمال الرجوع إلى نوع جديد من الوطنية مبني على الولاء للدولة لا للقوم ، لا يزال موجوداً لكنه غير مستقر على أي حال . ولقد بدأ التفاعل في تركيا وذهب به الأتراك بعيداً ، وفي سنة ١٩٢٢ في وقت انتصارهم على اليونان كان الأتراك لا يزالون يواجهون أموراً كبيرة غير مستقرة . لقد كانوا – كما قيل عنهم – شعباً فقد امبراطورية ولم يجد إلى الآن دوراً جديداً في هذا العالم ، وفي إبان النضال للتحرر القومي ظهرت شعارات كثيرة : الإسلام والوحدة

(١) رغم اعتراف المؤلف بالإختلافات الكبيرة – هي في غير محلها لأن كلمة مجتمع ديني في الإسلام لا تعني ابداً ما يعنيه المجتمع اليهودي . . . حتى ولو كان دينيا ، لأن هناك فارقاً جذرياً بين اليهودية والإسلام بالنسبة للنظرة الإجتماعية ويمكن تلخيص ذلك بكلمة واحدة ليس في اليهودية نظام حياة كما في الإسلام . فلا وجه للمقارنة والقياس – منطقياً – فاسد .

الإسلامية ، التركية والوحدة التركية . الشعارات المعادية للإستعمار الغربي وغيرها .

أما شعار (تركيا) كدولة فقد بقي إلى مدة غير قصيرة ثانوياً تقريباً غير أن طبيعة النضال الذي رمى إلى إجلاء الأجنبي الدخيل عن الأراضي التركية كان لا بد له أن يعطي للحرب معنى وطنياً ، وبذا مهد السبيل لفكرة الوطنية الجديدة المبنية على شيء لم يألفه الترك من قبل وهو الولاء لدولة وأراضي (تركيا) .

ولقد قاوم مصطفى كمال الإغراء الذي عرض عند قيام الثورة الروسية ورفض كل فكرة تدعو إلى قيام وحدة إسلامية أو حتى وحدة تركية وأقنع ! ! ! شعبه بموقفه ؛ فلشعب تركيا مشاغل وواجبات عاجلة عليه أن يؤديها في بلده ، وعلى الإخوة المسلمين والأتراك خارج تركيا أن يجهزوا معاركهم بأنفسهم ، وكان الأتراك هم وحدهم بين شعوب الشرق الأوسط الذين لا يستطيعون الحديث عن دور أجدادهم في تاريخ المنطقة وعن آثارهم فيها . ولقد حاول مصطفى كمال جهده ، وحاول أصحابه كذلك دراسة التاريخ والآثار دراسة دائبة فلم يستطع أن يقدم إلا أهل طروادة والحثيين كأجداد وأسلاف ، لذلك عمد إلى غرس شعور هوية تركية يُعرف بها المواطن بالنسبة إلى الأرض التي يعيش فيها ؛ أما الآن فتركيا تسير نحو (وطنية) من نموذج وطنية اوروبا الغربية . وفي ايران واسرائيل تقدمت دراسات التاريخ القديم وأسهمت — إلى حد ما — في نمو (الوطنية) ولو أنها وطنية لها صبغة قومية الشعر الأسطوري . وأصبح علم الآثار في اسرائيل هواية قومية تعبر عن

رغبة عميقة الجذور في إقامة (استمرار) و (صلة) غير مقطوعة بين الماضي السحيق والحاضر متناسين ما مر بينهما من قرون كانوا فيها مشردين في كل صقع .

أما في البلاد العربية فإن تقديس الآثار سبب مشاكل خاصة ؛ ففي البدء صاحب إحياء الإهتمام بالفراعنة في مصر اهتمام مماثل في بلاد الهلال الخصيب : بالآشوريين والبابليين في العراق وبالفينيقين في لبنان وبالآراميين في سورية وكل هذه البلاد أعلنت افتخارها بماضي هؤلاء الأقدمين ؛ ولكن سرعان ما غرقت كل هذه الإهتمامات في لجة أمواج العروبة ، وأعلن دستور سورية الذي أصدر سنة ١٩٥٠ أن سورية جزء من الأمة العربية ، ولقد تبنت مصر والعراق والكويت بعد ذلك النص نفسه في دساتيرها ؛ فالفرعونية في مصر ومثيلاتها في البلاد الأخرى ما هي إلا دعوات إنفصالية إقليمية ضيقة تعرقل الهدف العربي في الوحدة الكبرى ، ووصفت هذه الدعوات بالشعوبية وهو تعبير استعمل للمرة الأولى في القرون الوسطى ، ولقد قامت في سورية بعد الوحدة معارضة قوية لدعوة القومية السورية فأعيد تسمية سينما (أدونيس) وسميت (بلقيس) وكان ينظر إلى كل شيء يرمز إلى أثر آرامي على أنه تأييد للحزب القومي السوري الذي يعارض القومية العربية ؛ وفي وقت ما جاء على أمر دعاة القومية العربية حين حاولوا فيه إثبات (عروبة) حمورابي ! ! وأرغموا على توزيع الجنسية العربية الفخرية على كل الشعوب السامية ، بعد الوفاة طبعاً ، ماعدا شعب

واحد . ودراسة تاريخ القوميين بصورة عامة غير ذات قيمة للمؤرخ باستثناء مؤرخ القوميات فإن هذه الدراسة تفيده كثيراً .

وفي الوقت الحاضر تسيطر ايديولوجية القومية العربية حتى في أرض الفراعنة حيث استغني عن اسم مصر رسمياً واستعيض عنه بإسم الجمهورية العربية المتحدة ؛ إلا أن واقع مصر قائم برغم زوال الإسم . ومن المشاكل المدهشة حقاً التي تواجه الطلاب الذين يدرسون السياسة الخارجية للدول العربية ولمصر ، مشكلة ماهي نسبة أهمية المصالح المشتركة بين مصر والبلاد العربية الأخرى ؟ ولقد وصف بعضهم سياسة مصر العربية بأنها استغلال للعروبة في سبيل أهداف مصر الإستعمارية [1] ؟ ! ! وآخرون قالوا فيها أنها إخضاع مصالح مصر لأحلام الوحدة العربية .

والعراق ينفرد عن سائر الدول العربية بوضع معقد بوجود أقلية هامة غير عربية فيه وهي الأقلية الكردية . ولقد جاء زمن ظهر للناس احتمال تعايش القوميتين في ظل الشعب العراقي تماماً كتعايش السلتيين [2] (Celto) والأنكلوساكسون في بريطانيا ، ولقد تضاءل هذا الأمل وتضاءل معه جو التسامح المرغوب فيه بقيام الدعوة القومية العرقية التي أثرت في الطرفين .

---

(١) إن اتهام مصر باستعمار ، أو برغبة استعمار ، الدول العربية الأخرى موضوع أثاره المستعمرون أنفسهم فليس من شيم المسلم ان يستعمر أحداً فكيف يستعمر أخاه المسلم ؟ ؟ .

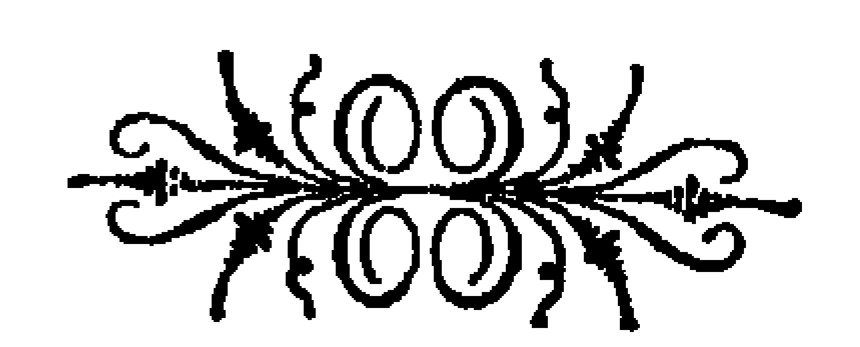
(٢) السلتيون هم أهل غربي اوروبا القدماء .

ولقد بلغت الدول التي خلفت الإمبراطورية العثمانية نصف قرن من العمر تقريباً وأصبحت معروفة ومقبولة ، ونمت حول كل دولة منها مصالح متشابكة معقدة ، وكل واحدة من تلك الدول لها رغبة قوية في العيش كما هي ؛ وينطبق هذا القول بصورة خاصة على الدول التي قامت في كل بلد كان له مميزات ومنافسات مثل وادي النيل مثلاً وبلاد ما بين النهرين ، والملاحظ أنه على الرغم من الرغبة في الوحدة الكبرى لا يزال عدد الدول العربية المستقلة كما هو ولم ينقص حتى الآن ؛ وأول تجربة كبيرة قامت بين سورية ومصر بقيام الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ انتهت بعودة سورية سنة ١٩٦١ بعد انفصالها عن مصر .

ويظهر من سياسة حكام بعض الدول العربية أحياناً أن مصالح بلادهم هي التي توجههم وليست مصالح الوحدة العربية . إلا أن هذه الأعمال لا تتوافق مع المشاعر العميقة للشعب العربي ولا تعبر تماماً عن ردة فعل الصفوة المثقفة العربية بالنسبة لتحديات مشاكل العصر .

فالعرب بلا شك مخلصون إخلاصاً عميقاً لفكرة الوحدة إلا أنهم لم يقرروا حتى الآن ماذا يعنون بدعوة الوحدة هل ستكون على نمط وأسلوب توحيد ألمانيا وايطاليا والسير في هذه الطريق حتى نهايتها؟ أم أنها ستكون على النمط الإنكليزي والشعوب اللاتينية في أميركا

كشركة أخوية ؟ وفي الوقت الحاضر ، بالرغم عن وجود دوافع وطنية ودوافع قومية تؤثر في السياسة العربية لا يشك أحد في أن الدافع الثاني له جاذبية أقوى بكثير بالنسبة لغالبية العرب ، إن للوطنية دعاتها . . . غير أن النداءات المتتابعة القديمة في المبدأ والنسب والتي يعبر عنها اليوم باللغة الحديثة : القومية العربية هي أقوى وأرسخ مما لا يقدر أنها نداء أبعد مايكون عن ولاء هادئ يحمله مواطنون أحرار لبلد ولدوا بها وحكومة اختاروها بأنفسهم .



الفصل الخامس

ثورة الإسلام

في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٥ دعا الزعماء السياسيون في مصر إلى مظاهرات بمناسبة ذكرى وعد بلفور، وتحولت هذه المظاهرات بسرعة إلى حملة عدائية ضد اليهود، وكان من نتائجها مهاجمة ثلاث كنائس للكاثوليك والأرمن واليونان الأرثوذكس وايقاع بعض الأضرار بها، والسؤال الذي يرد إلى الذهن ماهي علاقة هؤلاء جميعاً بوعد بلفور ؟

وبعد سنوات قليلة أي في ٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٢ أيام معركة تحرير القناة ، قامت مظاهرات عدائية للإنكليز في السويس وفي خلالها هوجمت كنيسة قبطية وأشعل فيها النار واعتدي على بعض الأقباط أثناء المظاهرات . والأقباط مصريون لا شك في ذلك، ومن المؤكد أن زعماء مصر السياسيين ما أرادوا ولا رغبوا في تلك الحوادث الفردية لكن الغوغاء — في ساعة غضبتهم الثائرة — شعروا غريزياً أن غير المسلمين — ولو كانوا من العرب —

يقفون في صفوف أعدائهم وتصرفوا حسب هــذا الشعور وقد يكون لهاتين الحادثتين أسباب وظروف فردية محلية . غير أنهما تعكسان موقفاً يعبر عن الحديث الذي نسب خطأ إلى الرسول العربي : « الكفر ملة واحدة » والمسلمون – نظرياً على الأقل – أمة واحدة لذا فالعالم قسمان عالم المسلمين وعالم غير المسلمين ، ومن هذا المنطلق نفسه وجد الجزائريون ردهم على شعار – « جزائر فرنسية » لم يكن شعار الجزائريين : « جزائر عربية » ولا « جزائر جزائرية » بل كان ردهم « جزائر مسلمة » [1] .

ومنذ بدء التغلغل الغربي في العالم الإسلامي . . . حتى يومنا هذا كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التي قامت في وجههم حركات إسلامية . ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الايمان والعقيدة وبمشاكل الجماعة المسلمة التي سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب ؛ وأقوى الحركات الثورية التي قامت ، والتي كسبت أقوى التأييد وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية في أصولها ، وفي شعاراتها ، وفي الأسلوب التي عبرت به عن غايتها وسبيلها . ولقد مر العالم الإسلامي في تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة ، من المسايرة والرفض ؛ وحتى الأمس

---

(١) فات المؤلف ان الفرنسيين المستعمرين هم الذي قسموا الناس اولا في الجزائر إلى أوروبيين . . . ومسلمين وعنوا بالأوروبيين كل الأجانب ، وعنوا بالمسلمين أهل الجزائر .

القريب كان للمشاكل التي تظهر ، دراسة . . . وقياس . . . وحلول في إطار الإسلام ، ونستطيع القول في أيامنا هذه إن من التهور التأكيد على أن (عَلمَنَة) المشاعر الإسلامية بلغت حداً لا رجوع بعده ! ولقد عبر أحد الباحثين الإسرائيليين ! عن الفرق بين النظرة الدينية والنظرة القومية إلى الأحداث بالأسلوب التالي : « كان الأجداد المؤمنون بالدين يحمدون الله في حالة نجاحهم ويلومون أنفسهم واخطاءهم ... في حالة فشلهم ، أما المؤمنون بالقومية الآن فيشكرون أنفسهم في حالة نجاحهم ويلومون غيرهم في حالة فشلهم » .

وأول ردود فعل المفكرين المسلمين لواقع الإنحطاط والضعف الذي أصاب المسلمين . . . كانت دينية . . . وليست . . . قومية ففي تركيا عمد جمع من دارسي التاريخ إلى تحليل الطريقة التي انحطت بها الدولة بعد أن كان الماضي رفيعاً متسامياً مجيداً وبينوا اقتراحاتهم في كيفية العودة إلى تلك المكانة السابقة . ولكن أثر عملهم هذا كان هزيلاً . أما التطورات الواقعية الحادة فقد حدثت بين مسلمي الهند الذين مارسوا في القرن السابع عشر والثامن عشر نفوذاً هاماً وتأثيراً قوياً قوياً على إخوانهم مسلمي الشرق الأوسط ، وهذا التأثير غير معروف لدى كثير من الناس .

ففي الهند ، حيث جاء البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر وتبعهم الهولنديون والإنكليز والإفرنسيون وغيرهم قامت حركة احياء ديني أصولي جاءت بحياة جديدة وعزم جديد للعقيدة الإسلامية والمجتمع الإسلامي . ولقد صاحبها في الوقت نفسه قيام حركة

النقشبندية والإخوة الصوفية وأصلها من أواسط آسيا ، وأصبحت طليعة لحركة الإحياء والعودة بالإسلام إلى أصوله الصافية » .

لقد ضعف الإسلام في الهند إلى درجـة الخطورة بسبب التهاون والهرطقة والتصوف المتطرف ، ولقد هُدد الإسلام بعودة الهندوكية تدريجياً إلى قوتها من جهة ، وبالكاثوليكية النشطة التي جاء بها البرتغاليون ، من جهة أخرى ؛ ولقد كان اهتمام العالم الديني الكبير الشيخ أحمد شرهندي (١٥٦٤ – ١٦٢٤) بتصوف (أكبر) أكثر من اهتمامه بتهديد المشركين ؛ فلقد حاول أن يبين كيف يمكن للروحانية الصوفية أن تمتزج بالسلوك الواعي لمبادئ الإسلام الأصيلة وتتبلور في الحياة الإجتماعية نظاماً شرعياً وحياة نشطة فاعلة . ومن أبرز خلفائه في هذا السبيل عالم دلهي (شاه ولي الله) (١٧٠٣ – ١٧٦٥) وقد جاءت حياتــه في فترة أفول قوة المسلمين وانهيار معنوياتهم في الهند بعد تفكك الإمبراطورية المغولية ؛ فحاول مثل سلفه أن يعيد للإسلام قوته ووحدته في فترة ساد فيها الإنقسام وفتور الهمة . ولقد انتشرت الحركة النقشبندية التجديدية النشطة في الشرق الأوسط منتقلة إليه من الهند ؛ فمنذ عام ١٦٠٣ – ١٦٠٤ استوطن الشيخ الهندي تاج الدين السنبلي مكة ، وكان أحد منافسي الشيخ شرهندي ؛ وفي مكة ترجم كثيراً من كتابات وأعمال النقشبندية ، عن الفارسية إلى العربية ؛ ولقد تبعه إلى مكة عدد من الدعاة والأتباع مثل مراد البخاري (١٦٤٠ – ١٧٢٠) وهو أحد مواطني آسيا الوسطى ، ذهب إلى الهند في حداثته وانتسب إلى الحركة النقشبندية وتجول بعد ذلك كثيراً في تركيا والبلاد العربية واستقر في دمشق

سنة ١٦٧٠ ، ولقد لعب دوراً هاماً في إنشاء وتطوير الحركة النقشبندية في الدولة العثمانية .

ولقد سار أولاده وأحفاده من بعده على منواله . وفي نفس الوقت ، كان هناك المعلم الرحالة عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١) وكان يبحث في عقيدة الألوهية ، وهو أحد مواليد نابلس في فلسطين وواحد من حملة الطريقة النقشبندية ولقد كان له تلاميذ كثر .

ولشاه ولي الله أكثر من مؤلف بالعربية حيث يتوجه فيها إلى عدد أكبر من القراء في سائر الشرق الأوسط العربي ، وكان لأحد تلامذته الشيخ محمد مرتضى الزبيدي من بلغرام (١٧٣٢ - ١٧٩١) إسهام كبير في تجديد الدراسة العربية في أواخر القرن الثامن عشر وذلك عندما كان في الحجاز وفي مصر؛ وأتم عمل (شاه ولي الله) ابنه (شاه عبد العزيز) وتتلمذ على يد الأخير الشيخ الكردي خالد ضياء الدين البغدادي (١٧٧٥ - ١٨٢٦) والذي زار الهند سنة (١٨٠٩) .

وكان شاه ولي الله يميل ميلاً شديداً إلى العرب وإلى شبه جزيرة العرب ، ولقد كتب مرة : « نحن غرباء في هذه البلاد (أي الهند) فلقد جاء أجدادنا منذ القديم ليعيشوا هنا ، فالنسب العربي ، واللغة العربية هما موضع اعتزازنا وافتخارنا وبهما كان طريقنا إلى معرفة الله رب الأولين والآخرين ، ولمعرفة أشرف الأنبياء والرسل . وعلينا أن نشكر الله على سابغ رحمته علينا وذلك بالتمسك قدر استطاعتنا بعادات وتقاليد أجدادنا العرب فقد جاء من بينهم نبينا

الكريم وإليهم أول ما توجه في دعوته ؛ ثم بوقاية أنفسنامن تسرب تقاليد الفرس وعادات الهنادكة إلينا » فجزيرة العرب بالنسبة لشاه ولي الله هي مصدر الإسلام الأصلي الذيلم تشوهه زيادات الفرس والهنود . وفي سنة ١٧٣٠ ذهب شاه ولي الله إلى الحجاز حيث بقي عاماً كاملاً يدرس المذهب المالكي على أيادي أساتذة عرب ، وفي أيار ١٧٣٢ ، ذهب في حجة ثانية إلى الحجاز وعاد إلى دلهي في آخر العام . ويظهر أن نظرة شاه ولي الله المثالية إلى العرب ودين العرب والتي تصادفت مع الأيام الأخيرة لأفول نجم السادة الأتراك في امبراطوريتهم الواسعة ، وأن نظريته هذه لاقت صدى وأثارت رد فعل لدى أساتذته وزملائه العرب ؛ وليس هناك إثبات مباشر عن تأثير أو اتصال شاه ولي الله بمحمد بن عبد الوهاب — أحد معاصريه — فمحمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٨٧) مؤسس الحركة الوهابية الدينية ، نجدي درس في المدينة في نفس الوقت الذي كان فيه شاه ولي الله ثم ذهب إلى البصرة وعاد بعدها إلى نجد . وفي سنة ١٧٤٤ قام بمساعدة الأمراء المحليين من آل سعود بحملة جهاد إسلامية ، تجديدية لتنقية الإسلام مما علق به من بدع ؛ وكانت غايته العودة إلى الإسلام الصافي الذي كان في أول الدعوة الإسلامية وذلك لتنقيته من الزوائد والتحريف وخصوصاً (عبادة) الأولياء والأضرحة وغيرها من البدع التي أدخلها الصوفيون على الإسلام ، ولقد شمل هجومه المدارس السنية التي أصابتها عدوى وهرطقة هذه البدع

والأضاليل ، ولقد حمل الأمراء السعوديون فكرة محمد بن عبد الوهاب وتحمسوا لها ونذروا أنفسهم للعمل على نشرها بقوة السلاح وبعد أن احتلوا قسماً كبيراً من أواسط وشرق شبه جزيرة العرب وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع الدولة العثمانية ؛ ولقد تحدوا سلطة الإمبراطورية العثمانية حينما هاجموا العراق ونهبوا كربلاء وفي سنة (١٨٠٤ إلى ١٨٠٦) استولوا على مكة والمدينة وطهروهما من البدع ؛ ثم أرسلوا كتاباً إلى السلطان العثماني يهاجمونه ويتهمونه بالهرطقة واغتصاب السلطة ، وأخيراً اتفق السلطان مع باشا مصر لتجهيز حملة قوية على شبه جزيرة العرب وتحطيم القوة الوهابية . ولقد تم ذلك سنة ١٨١٨ بعد أن احتلت عاصمة السعوديين وأرسل أمراؤهم إلى اسطمبول لإعدامهم هناك . وهكذا تهدمت الدولة الوهابية إلا أن المذهب عاش وعاد لممارسة نفوذ قوي تعدى حدود شبه جزيرة العرب . وكان للحركة الوهابية في القرن الثامن عشر أهمية كبرى ؛ ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تواجه الإنكسار والإهانة على أيدي أعدائها من المسيحيين ، قامت الحركة الوهابية تعلن عدم ولائها للسيادة التركية في عاصمة العثمانيين ، وبالرغم من عدم حملها لأي فكرة عربية ، وعدم رغبتها في ذلك فقد كانت الحركة الوهابية حركة عربية موجهة ضد الأفكاروالعادات الفارسية والتركية السائدة التي غيرت الشكل الظاهري للإسلام منذ القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الحركة أيضاً أول رفض ، له وزنه

لحق الأتراك العثمانيين في السيادة والحكم . ولقد أثرت الحركة النقشبندية أيضاً ، والتي جاءت من الهند ، في إعادة الحياة إلى العرب في مجال العقيدة والعلوم الدينية . أما الوهابية ، وربما كان للبعث الإسلامي في الهند أثر فيهـــا ، فقد خطت خطوة أبعد فقادت هجوماً مكافحاً ضد النظام الديني والسياسي القائم في ذلك الوقت، معلنة أن هذا النظام هو الذي أوصل المسلمين إلى هذا المنزلق الخطر.

وبالرغم من انهيار الدولة الوهابية ، وبالرغم من أن الدعوة الوهابية الكاملة لم تلق إلا عدداً قليلاً من المؤيدين في الشرق الأوسط فقد جاءت ببعث ديني كان له أثر كبير في أقطار عدة ساعد على حقن هذه الأقطار بمصل جديد للكفاح وعزم أقوى على جهاد ومقارعة الاوروبيين الغزاة .

وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر كانت المعركة محتدمة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ؛ وقام (عاكف أفندي) أحد الرسميين العثمانيين يذكر بالخطر الداهم بعد أن تبينه بوضوح ، ففي سنة ١٨٢٢ كتب مذكرة يصف بهـــا الخطر الذي يدهم الإمبراطورية العثمانية، وأخذ يحث أبناء شعبه على الدفاع عن أنفسهم . . . وإلا تعرضوا لمصير أهل القرم والتتار بعد احتلال روسيا لهم ومصير الهنود بعد احتلال انكلترا لبلادهم وتحويلهم من سادة إلى عبيد . وعندما بدأ الهجوم لم يكن موجهاً إلى قلب العالم الإسلامي بل إلى بعض أطرافه ولم يكن السلاطين أو الوزراء أو الجنرالات أو العلماء هم الذين يقودون معركة المقاومة بل كـــان الزعماء الدينيون الشعبيون هم الذين استطاعوا ايقاظ وتوجيه عواطف جياشة

وطاقات جبارة . وهناك ثلاثة زعماء برزوا بصورة خاصة قاموا تقريباً في عصر واحد وهم : (أحمد بريلوي) في شمال الهند و (شامل) في داغستان و (عبد القادر) في الجزائر . وكان لهم كثير من الملامح المشتركة . فكلهم قادوا مقاومة شعبية مسلحة ضد زحف المشركين : البريلوي ضد السيخ وضد النفوذ الإنكليزي المتزايد في الهند ، و(شامل) ضد الروس في داغستان ، و(عبد القادر) ضد الفرنسيين في شمال افريقيا . وثلاثتهم كانوا زعماء دينيين ؛ فعبد القادر كان زعيم الحركة القادرية وشامل كان من اتباع الطريقة النقشبندية التي دخلت داغستان في القرن الثامن عشر وبرزت كحركة مجاهدة نشطة قبل سنوات قليلة من حركة شامل ، أما البريلوي فكان نقشبندياً ووهابياً في الوقت نفسه ؛ وربح هؤلاء الثلاثة دعماً قوياً معنوياً وشنوا معارك عنيفة في سبيل الإسلام ضد أعدائه من المشركين : بريلوي من ١٨٢٦ إلى ١٨٣١ ، وعبد القادر من ١٨٣٢ — ١٨٣٢ وشامل من ١٨٣٠ — ١٨٥٩ ؛ ولقد غلبوا على أمرهم للفرق الهائل بين قوتهم الصغيرة وقوة أعدائهم الضخمة . . . وهدأت بلادهم واستسلمت وضمت إلى الإمبراطوريات الغازية .

وظهرت المرحلة التالية لردة فعل الإسلام تجاه الغرب بكل وضوح في هذه الإمبراطوريات الآنفة الذكر . . . مرحلة « التطبع » والتعاون ؛ ففي الهند بعد أن خسر المسلمون معركة التمرد المسلح الذي قادوه ضد انكلترا سنة ١٨٥٨ ظهر زعيم جديد في شخص (السير — SIR) سيد أحمد خـان ١٨١٧ — ١٨٩٨

مؤسس الكلية الشرقية ـ الإنكليزية ! ! ! المحمديـــة ! ؟ ! ! [1] في (عليكر) ومن السباقين ! ! في الإصلاح التربوي ! ! ! وتطوير ! ! ! الإسلام ؟ ! وكان من أكبر المعجبين ! ! بالمدنية الإنكليزية وأحد المتحمسين والمواطنين المخلصين للإمبراطورية البريطانية ! : ولقد حث السير أحمد ! ! أهل بلده على تعلم اللغة الإنكليزية وهكذا فتح الباب للعلوم الحديثة والمعلومات اللازمة لسلامة أهـــل بلده وتقدمهم ! ! ولقد قال إن الإسلام الصحيح لا يعارض أبداً هذه الأهداف [2] ، وعندمـــا قامت المعارضة في وجهه عمد إلى النصوص الإسلامية والمبادئ الأصلية ووجد نفسه بحاجة لتأويلها تأويلاً جديداً بأسلوب جعل (البروفسور كوبنر) يسميها (تأويلات مختلقة) ؛ وليس من الغريب أن يجد السير أحمد ! ! مناهضة له وبخاصة بين صفوف العلماء الذين وجدوا فيه (مفسداً) للإسلام وممالئاً لأعدائه من المشركين .

ولقد ظهر وجه آخر في الإمبراطورية الروسية ، من معاصري السير ! ! أحمد ، وهو عبد القيوم النصيري (١٨٢٥ ـ ١٩٠٢)

---

(١) هذا «السيد» ! !السير ! ! Sir هو أحد (التعاونيين) خدام الإنكليز وهو الذي ابتدع الحركة التي تنادي بوقف الجهاد ضد المستعمرين فأنعم عليه أسياده بلقب (سير) لخدماته التي كان يفتخر في تقديمها للإنكليز .

(٢) من الممكن للمسلم أن يتعلم الإنكليزية والعلوم الحديثة دون أن يصبح (عميلا) أو (خادماً) للإنكليز أماالسير أحمد ! !فلم يفرق بين الأمرين ،على ما يظهر ،أو فعل ذلك عن عمد وإصرار .

الذي حاول أن يجعل أهل بلده يستفيدون ! ! من اللغة الروسية والعلوم الأوروبية والثقافة في شكلها الروسي . فعندما كان في المدرسة في (قازان) استنكر الحظر الذي وضعه العلماء على تعلم اللغة الروسية وبدأ هو بتعلمها سراً لأنه كان أحد أتباع ! الإمبراطورية الروسية ولقد علم عدة سنوات في المدارس والمعاهد الروسية وترجم إلى لغة التتار كتباً كثيرة في العلوم والجغرافيا والمواضيع الأخرى وألف كتاب قواعد بالروسية وكتاب قراءة وقاموساً باللغة التترية ليساعد أهله على تعلم الروسية . . . مفتاح ! العلوم الحديثة وليس غريباً أن يمدحه المستشرقون الروس كثيراً ويثنون على جهوده وحتى الآن لا تزال (الأنساكلوبيديا الروسية) تثني عليه وتدافع عنه ضد مهاجميه من الذين سمتهم الأنساكلوبيديا « القوميين البرجوازيين » وكان أبناء عصره يسمونه (اوريس — قيوم) أي (قيوم الروس) .

ولم يمض زمن حتى قامت ردة فعل عنيفة ضد هذا الشكل من التعاون مع الغرب الذي بدأ ينمو ، فلقد كان الغرب في سبيل توسعه وتوطيد قوته ، يشجع هذا النوع من التعاون !

وفي سنة ١٨٥٨ سُحق التمرد الذي قام بـــه المسلمون في الهند وانقطعت آخر خيوط الإمبراطورية المغولية ؛ وفي سنة ١٨٦٨ احتل الروس (سمرقند) وخفضوا مستوى أمير (بخارى) إلى مستوى أمير محلي ، وفي سنة ١٨٧٧ اندحر الأتراك في هزيمة مذلة أمام الروس ، وفي نفس العام أصبحت الملكة فكتوريا امبراطورة للهند ، وفي سنة ١٨٨١ احتل الفرنسيون تونس ، وفي سنة ١٨٨٢ احتل الإنكليز مصر ، وفي سنة ١٨٨٤ استولى الروس على (مارف)

وظهروا على حدود أفغانستان ، وفي سنة ١٨٨٥ أسس الألمان محمية لهم في شرق افريقيا .

ويظهر أن فكرة وحدة إسلامية تضم جميع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة الخطر المشترك الآتي من الإمبراطوريات المسيحية ، قامت في أذهان حركة (الشبيبة العثمانية) ما بين أعوام ١٨٦٠ — ١٨٨٠ وكان من بعض أسبابها ، على ما يظن ، تأثير الوحدة الجرمانية والوحدة الايطالية وقد نقل « الشبيبة العثمانيون » ذلك إلى بلادهم بأن دعوا إلى وحدة إسلامية ، لا وحدة تركية ، ولا وحدة على أساس عرقي أو لغوي أو قومي ، فتلك فكر ما كان يقدّر لها أن تعيش في ذلك الوقت في العالم الإسلامي . « وكان الشبيبة العثمانيون » يدعون دائماً إلى اتحاد إسلامي كهدف جميع المسلمين ويتهمون الحكومة بفشلها في القيام بمساعدة الأمراء المسلمين في أواسط آسيا ضد الغزو الروسي . ويطلبون من الحكومة أن توثق الروابط مع الولايات البعيدة مثل مصر وتونس وتدعم الروابط مع بقية العالم الإسلامي — والتي تشكل الدولة العثمانية مركز (الزعامة) فيه — أما فكرة نامق كمال في الوحدة الإسلامية فكانت تأخذ الطابع الثقافي أكثر من الطابع السياسي ، وكانت متصلة برغبته في اقتباس النظم العصرية . وبما أن الدولة العثمانية هي مركز الخلافة وأكثر الحكومات الإسلامية تقدماً وأكثرها قرباً من اوروبا كان من الطبيعي النظر إليها على أنها المركز المقبل للوحدة الإسلامية ، وعندما يكون ذلك . . . يشع نور العلم من هذا المركز إلى آسيا وافريقيا . هذه كانت نظرة نامق كمال . أما الآخرون مثل علي سوافي فلقد دعوا إلى شكل نضالي

من الوحدة الإسلامية وفي سنة (١٨٧٦) أعلن الدستور العثماني الأول رسمياً : أن الخلافة الإسلامية لجميع المسلمين هي في بيت آل عثمان .

وفي ظل حكم السلطان عبد الحميد الثاني تبنت الدولة رسمياً في خطها السياسي نوعاً من الوحدة الإسلامية المحدودة المعتدلة كسلاح مفيد في دعم الدولة العثمانية . ففي داخل الدولة ساعدت هذه السياسة السلطان في دعوته لولاء المسلمين جميعاً له وخصوصاً ولاء العرب في وجه الليبراليين والقوميين والإصلاحيين وغيرهم من من المعارضين الخطرين ، أما خارج الدولة ، فلقد ساعدت مبعوثي السلطان لتوحيد وتكتيل دعم المسلمين في كل أنحاء العالم وسهل هذا للسلطان استعمال التأييد الإسلامي كسلاح في وجه الإمبراطوريات المسيحية ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

ولقد قامت دعوة أكثر جذرية وكفاحاً للوحدة الإسلامية . وهي التي عبر عنها جمال الدين الأفغاني الآسادأبادي طوال حياته العاصفة وجمال الدين (١٨٣٨ — ١٨٩٧) أفغاني سني كما صرح نفسه بذلك، والواقع أنـــه فارسي شيعي[1] ولكنه قضى طفولته وحداثته في أفغانستان وتلقى هناك علومه الإسلامية ثم ذهب ليمضي عاماً واحداً في الهند لزيادة علومه الإسلامية وبعدها حج إلى مكة سنة ١٨٥٧ ؛ وبعد عودته إلى أفغانستان قضى عدة سنين في خدمة أميرها ، ثم

(١) مسألة فيها نظر .

ارتحل إلى الهند سنة (١٨٦٩) وبدأت بذلك سلسلة رحلاته وتنقلاته التي دامت ثلاثين عاماً . ولقد زار الهند ومصر وايران وتركيا وقضى عدة سنوات في فرنسا وروسيا ومرّ بلندن . وكانت تعاليم جمال الدين تعبيراً عن كفاح أكثر مما كانت « ايدولوجية » محددة لأنها لم تأخذ طابع نظرية واضحة المعالم ؛ ولقد انتقد بشدة (السير) سيد أحمد خان والمصلحين ! ! أمثاله وعارضهم معارضة عاطفية وسياسية أكثر مما هي معارضة فكرية أو دينية . كان يقول فيهم أنهم يضعفون وحدة الإسلام والولاء له وهكذا يخدمون المشركين المستعمرين ، وكان لجمال الدين منهاجه الخاص بالإصلاح والتجديد وكان هذا المنهاج يشبه في بعض وجوهه منهاج (السير سيد أحمد خان) إلا أن غاية جمال الدين كانت تجهيز المسلمين للجهاد ضد المستعمرين . . . لا للتعاون معهم . وبالرغم من تشهيره بفكرة سيد أحمد خان المادية الطبيعية ! ، كما كان يسميها ، فإن معتقدات جمال الدين نفسه كانت مجال شك في بعض الأحيان ! ! (١) ويُفهم من بعض كتاباته أن التأكيد على التمسك الشديد بالدين كان يقصد به الجماهير فقط وليس الصفوة المتعلمة كالتي ينتمي هو إليها ! ولقد قيل مراراً أن الإسلام عقيدة وحضارة ، أما بالنسبة لجمال الدين فلقد كان حضارة (وقوة عالمية) دائماً . . . وأحياناً . . .

---

(١) لعل نظرة المؤلف القاسية إلى جمال الدين لها علاقة بموقف جمال الدين الصلب من الإنكليز ؟ ! إن المؤلف لا يتحدث عن تاريخ جمال الدين بل يشهر به ، بينما يمدح أحد عملاء الإنكليز المعروفين ، وهو السير سيد أحمد خان ، . إن نظرة العرب والمسلمين وكل مؤرخ منصف ، إلى جمال الدين الأفغاني وإلى « السير » ! سيد أحمد خان هي نقيض نظرته تماماً .

عقيدة وايماناً . وكان ما يدعو له هو الولاء . . . لا التقوى ! ! ؛ وعلى المسلمين أن يتحدوا كما توحد الألمان في دولة واحدة والطليان في دولة واحدة ، ولقد قضى جمال الدين حياته وهو يفتش عن عاهل مسلم يكون له جمال الدين (بسماركاً) أو (كافوراً) . وكان جمال الدين يحاول حماية الإسلام من اوروبا وخاصة من بريطانيا القوة الإستعمارية التي كانت في الهند ومصر . أما ذكره للإستعمار الفرنسي والروسي في افريقيا وآسيا فكان قليلاً في مناسبات عابرة ، وفي محاولاته الكثيرة لايجاد قطب يجتمع حوله المسلمون ، جرب جمال الدين أن يتعاون مع الخديوي، والشاه ، والسلطان ، وجابهته معهم كلهم عقبات وصعوبات ، ولقد طرد من ايران سنة ١٨٩١ وقضى أعوامه الأخيرة في أحد المعتقلات المريحة التي خصصت له سرّاً في تركيا .

كان لعمل « السير » ! ! سيد أحمد خان وأمثاله من المجددين ! ! نتائج هامة حتى بين الذين استنكروا أهدافه وطريقته ، ومن هذه النتائج انتشار العلوم الغربية ، ونمو الوعي والإحساس بحاجة المسلمين إلى إصلاح ثقافي، واقتناع شبه عام بإعادة النظر في الأوضاع الإسلامية على ضوء النظريات والمقاييس الحديثة ، ولقد ظهرت كتابات بهذا المعنى صادرة عن أكبر العاملين للوحدة الإسلامية حتى أن جمال الدين الأفغاني وهو الذي هاجم المجددين كان يرغب في تطوير المجتمع الإسلامي نحو « العصرّية » ووضع الايمان الإسلامي في قالب حديث ليستطيع المسلمون الصمود أمام ضغط القوى الغربية وانتقادات الأفكار الغربية .

ولقد قدر للشيخ محمد عبده « المصري » نجاح أكثر مما قدر لزميله وأستاذه جمال الدين الأفغاني ؛ وكان محمد عبده أرفع على الصعيد الفكري من جمال الدين ؛ ولد محمد عبده سنة ١٨٤٩ وكان مفتياً للديار المصرية ، وشخصية قائدة في مجال البعث الإسلامي . لقد شارك في البدء جمال الدين في دعوته السياسية للوحدة الإسلامية غير أنه اختط بعد ذلك سبيلاً خاصاً به للعمل ، فلقد كانت السياسة بالنسبة له — حتى مشكلة الإستقلال من السيطرة الأجنبية — تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية ؛ وكان يشك في الدعوة الوطنية والدعوة القومية لأنهما تضعفان روابط الأخوة الإسلامية التي تجمع شمل كل المسلمين وتشكل هويتهم الحقيقية وتضامنهم الأكيد . « إن من يعتنق عقيدة الإسلام عن فهم وتبصر واقتناع لا يشغل نفسه بعدها أبداً بقضايا العنصرية والقومية ، إنه يترك فكرة الروابط الإقليمية الطائفية الضيقة إلى الروابط العامة الواسعة التي تجمع شمل المؤمنين » فأول ما يهم المسلم إذن : الإسلام ، الإسلام الذي يربيه ويمدنه ويحدد معالم شخصيته ويدفعه دائماً نحو الأحسن والأفضل . ولقد مر الإسلام بأيام سود ونتيجة الضعف الداخلي والأخطاء ، ونتيجة الضغط والنفوذ الخارجيين فسدت وشوّهت القيم الإسلامية لذا يجب العمل على إعادتها إلى أصالتها والدفاع عنها حتى يتمكن المسلمون من الوقوف في وجه الهجوم الإنتقادي الغربي وفي وجه تحدي ومنافسة الأفكار الغربية . ولقد وهب محمد عبده حياته لهذا

الواجب واجب بناء وتدعيم إطار جديد للمبادئ الإسلامية والقيم الإسلامية حسب حاجة المسلمين وحسب العصر الذي يعيشونه .

ولقد أصدر أحد أساتذة جامعة الأزهر[1] كتابـاً حديثاً عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي فميز بين تيارين أساسيين ، تيار تعاوني يمثله « السير » سيد أحمد خان والحركة الأحمدية والقاديانية . وتيار مقاوم ويمثله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

وأهم أهداف الشيخ محمد عبده كانت مقاومة النفوذ الغربي المسيحي الفكري والروحي في أشخاص الأوروبيين ، وأشخاص الشرقيين الذين تبنوا فكرة « التغريب » . ولعل تأكيده على طرح الزوائد والبدع التي زيفت وشوهت الإسلام الصحيح ، والدعوة إلى العودة للإسلام الأصيل إلى عقائده وتعاليمه الصافية الخالية من الشوائب لعل دعوته هذه — التي هي أيضاً دعوة النقشبندية والوهابية — جاءت بتأثير مباشر أوغير مباشر لهاتين الحركتين السلفيتين الأصليتين ومن المؤكد أنها أثرت فيه . ولم يكن محمد عبده شخصاً متعصباً أو رجعياً ، إنه قدم للمسلمين شيئاً أكثر قيمة من كراهية المشركين وسراب العودة الخيالية إلى الماضي .

كان محمد عبده يستنكر الإنقياد الذليل الكامل لمدنية الغرب التي كان يدعو لها بعض المجددين ! ! غير أنه كان يدعو إلى الإقبال

---

(١) الأستاذ هو الدكتور محمد البهي و الكتاب اسمه : «الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالإستعمار الغربي » .

على العلوم والفنون الغربية وعلى الأساليب الحديثة في التعليم وصياغة النظام الإسلامي بأسلوب يتلاءم والعصر الحديث. وكان جهاده في سبيل الإسلام سلمي الطابع في أكثره وينصب على الأمور الدينية والخلقية والثقافية بعيداً عن السياسة والحرب . غير أن حركات المقاومة الإسلامية المسلحة ضد السيطرة الغربية وضد نظم الحكم (المتغربة) لم تقف ، فلقد كانت تقوم من آن لآخر في مناطق بعيدة وعلى أطراف العالم الإسلامي . منها الحركة السنوسية الثورية ضد العثمانيين أولاً ثم ضد الايطاليين ، وحركة الثورة المهدية في السودان ضد الحكم التركي والإحتلال الاوروبي، وحركة الثورة في موريتانيا وثورة الملاّ في الصومال ، كل هذه الحركات تعيد إلى الأذهان ثورة شامل وعبد القادر والبريلوي في النصف الأول من القرن التاسع عشر . والملاحظ أن كل هذه الثورات الإسلامية حدثت في افريقيا التي كانت في ذلك الزمن أهم مناطق الإستعمار الغربي . ولم تكن البلاد الواقعة في قلب الشرق الأوسط مسرحاً للكفاح الديني العنيف كما كانت غيرها من البلاد ؛ كانت هناك حركات مختلفة أقل قوة كالدعوة التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني في الوحدة الإسلامية، وكانت هناك الحركة القومية المصرية والثورة الدستورية في ايران ، لكن الدين الإسلامي في هاتين الحركتين الأخيرتين لم يكن يحتل مركز الصدارة ، فلقد حجبت البرامج السياسية للصفوة المتعلمة الراديكالية، والتي قامت على أسس الأفكار الوطنية الليبرالية، الفكر الدينية . غير أن العداء الديني للغرب وللوطنيين «المتغربين» بصورة خاصة ، ظل يغلي في الصدور حتى انفجر لهيباً مستعراً في حركة

التمرد المسلح التي قامت في اسطمبول ضد الثورة التي أعلنها القوميون الأتراك ، وكانت هذه في (١٢ نيسان « ابريل » ١٩٠٩) . وقبل هذا التاريخ بأيام وعلى التحديد في ٥ نيسان (ابريل) ـــ عقد اجتماع في مسجد (اياصوفيا) حيث تشكلت منظمة دعت نفسها (الإتحاد المحمدي) ، وأصدرت صحيفة سميت (البركان) تحمل أفكار هذه المنظمة التي كان يطلق عليها اسم (الثورة الإسلامية العالمية) وهي مزيج من المسلمين الملتزمين المتطرفين ودعاة الوحدة الإسلامية والمعادين لحركة (الشبيبة التركية) إلى غير ما كانت تمثله من أفكار . أما زعيم هذه الحركة الثورية فكان أحد الدراويش البكتاشيين من قبرص واسمه (فاهديتي) ؛ ولم يحصر هؤلاء الثوريون نشاطهم في الإجتماعات والمقالات الصحفية بل لعبوا دوراً جزئياً في حركة التمرد العسكري الأولى: ولقد كانت برامج المتمردين سهلة واضحة : « الشريعة في خطر » « نريد الشريعة » ؛ وكانوا يعارضون ذهاب الطلاب الضباط إلى الكليات الحربية الحديثة . ولقد فشلت هذه الحركة وأعدم أقطابها ، غير أن الفكرة الإسلامية بقيت في رأس قائمة اهتمامات تركيا ، إذ لعبت دوراً هاماً في الخلافات الفكرية والصدامات السياسية في عهد (الشبيبة التركية) . ولعل صحف تلك الأيام تحوي أحسن وأرفع المناقشات التي دارت حتى هذا اليوم بين فئة المحافظين وفئة المجددين ، لما كان للصحافة من حرية في الكتابة وموضوعية في النقاش .

وكانت الحركات الدينية المكافحة تعمل بأسلوب مكتوم إلى أن

تسنح لها الفرصة للظهور ، كما فعلت في المؤامرة الفاشلة التي قادها ضابط الدرك علي كمال سنة ١٩١٠ للإطاحة « بالشبيبة التركية » الملحدة وإعادة حكم الشريعة .

وفي الحرب العالمية الأولى قام تناقض واضح بين الحركة النضالية العثمانية التي دعمها الألمان وبين الثورة العربية التي صنعها الإنكليز وظهر على الأثر نوع من الإرتباك في المشاعر والولاءات بين المسلمين الذين غلبوا على أمرهم على أي حال ، وخضعوا للقوة العسكرية الطاغية التي امتلكها المعسكران الاوروبيان المتحاربان ، ثم بدأ الوضع يتغير قليلاً في نهاية الحرب العالمية الأولى وقام بعد الحرب عهد جديد . وكان ذلك على الغالب بسبب التأثير غير المباشر للثورة الروسية التي تنبأت بانهيار المدنية الغربية الرأسمالية السريع . ولقد خدع بهذا الموقف زعماء الثورة العربية حتى أنهم أجروا اتصالات سرية مع الحكام العثمانيين فلقد كان هؤلاء أعداء . . . غير أنهم أبناء دين واحد على كل حال ، ولقد ذكر الجنرال الألماني (ليمان فون ساندرز) في مذكراته أن الشريف فيصل أرسل في أواخر آب (أغسطس) من عام ١٩١٨ كتاباً سرياً إلى جمال باشا يحذره فيه من حملة بريطانية مقبلة ، ويعرض عليه أن ينتقل مع قواته إلى صف الأتراك مقابل بعض الضمانات لقيام دولة عربية . ومن السخرية المرة أن جمال باشا رفض هذا العرض اعتقاداً منه أنه حيلة أوحى بها الإنكليز .

وفي أعقاب أيـــام الغضب واليأس التي جاءت بعد استسلام

العثمانيين كانت مشاعر الولاء للإسلام في أوج قوتها ، ولقد قامت حركة المقاومة مستندة إلى هذه المشاعر . حتى أن الشيوعيين ، في محاولتهم لكسب تأييد البلاد الإسلامية ، وجدوا أن من مصلحتهم الدعوة إلى وحدة إسلامية لا إلى وحدة طبقية أو تكتل قومي ، ولقد تعاونوا – غير مخلصين – مع دعاة الوحدة الإسلامية وحاولوا استغلالهم للوصول إلى أهدافهم الشيوعية ، وكذلك « حركة الشبيبة التركية » فهم على الرغم من علمانيتهم وقوميتهم لم يستنكفوا عن اللعب بورقة الوحدة الإسلامية عندما وجدوا ذلك في مصلحتهم ![1] فلقد قام أنور « باشا » ! ! سنة ١٩١٨ بحملة سماها جيش الإسلام لتحرير مسلمي الإمبراطورية الروسية ، وبعد اندحار هذا (الجيش) ! ! استوطن زعماؤه (موسكو) حيث كانت هذه أقوى مراكز المعارضة للغرب ، وأخذوا يتلهون بتخطيط حركة عالمية إسلامية ثورية ، وفي سنة ١٩٢١ عقد مؤتمران في برلين وروما لاتحاد الجمعيات الإسلامية والثورية وترأسهما أنور باشا وكان هذان المؤتمران بإيحاء شيوعي ! !

أما التحالف الذي قام بين دعاة الوحدة لأسلامية وبين الشيوعيين فكان قصير الأمد ، فلقد استخدمت روسيا الشيوعية (أنور باشا) بعد ذلك للدعاية لها في أواسط آسيا فانضم إلى خصومها من دعاة القومية وقتل سنة ١٩٢٢ وهو يحارب الجيش لأحمر .

وكذلك سلطان « غالييف » ، معلم المدرسة التتري الذي عمل مع

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة ! ! ! ! .

ستالين في قوميسارية القوميات سنة ١٩١٨ ، واعتنق فكرة الثورة العالمية للشعوب المستعمرة ، مستقلة عن الكومنترن ، أوقف سنة ١٩٢٣ بتهمة (انحرافاته القومية) وأعدم في التصفية التي حدثت بعد ذلك .

وأهم حركات المقاومة للغربيين المنصرين المحتلين وأكثرها نجاحاً كانت في الأناضول حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التي كانت قائمة في ظلهم ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التي أعلنوها أخيراً ، الطابع لإسلامي القوي لحركة المقاومة في أول مراحلها ولقد كان شعار الحركة تحرير أرض الإسلام وشعوب الإسلام وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد الغزاة المشركين ، ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الاخوان الدراويش أبرز المؤسسين وأقوى المساندين لحركة المقاومة التي قادها بعد ذلك مصطفى كمال (١) .

وكان ثلاثة من أصل تسعة أنشأوا الحركة الشهيرة المسماة (جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول (والتي أسست في أرضروم سنة ١٩١٩ ، أن ثلاثة منهم كانوا من الزعماء الدينين أحدهم كان شيخاً من الحركة النقشبندية - وعندما اجتمعت الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة سنة ١٩٢٠ كان ثلاثة وسبعون من أعضائها الثلاثمائة وواحد وستين من العلماء بينهم أربعة عشر مفتياً وثمانية

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة . الصورة واحدة والأدوار واحدة . . . . والإختلافات فقط في الأسماء ! ! ! .

زعماء من أصحاب الطرق . وفي شباط (فبراير) ١٩٢١ قام زعيم السنوسية في ليبيا بترؤس مؤتمر للوحدة الإسلامية في (سيواس) حضره عدد كبير من الممثلين العرب ، وكان الزعيم السنوسي قد انتسب للحركة الكمالية قبل ثلاثة أشهر من عقد هذا المؤتمر . وفي آذار (مارس) من عام ١٩٢١ صوتت الجمعية الوطنية الكبرى على أن يكون النشيد الوطني مقطعين من قصيدة دينية عميقة ألفها الشاعر محمد عاكف (شاعر الإسلام) الذي كان يعارض الحركات القومية والذي ذهب للأناضول للإلتحاق بحركة المقاومة . وفي نيسان (أبريل) من عام ١٩٢١ وفي اسطمبول المحتلة بالذات قام جمع للصلاة على أرواح الشهداء الذين سقطوا في حربهـــم المقدسة في الأناضول ، وهزت العاطفة أحد المثقفين الأتراك « المتغربين » إلى درجة أنه صرح بأن الوطن الصحيح لشعبه ليس في النادي القومي ولا في الندوة الثقافية ولا في الإجتماع السياسي بل في المسجد والجماعة فهو الدار وهو الوطن وهو مهوى الأفئدة . وهذا يذكرنا تماماً بما قاله أحد دعاة البعث الإسلامي محمد سعيد حليم باشا قبل ذلك بعدة سنوات أي – ١٩١٧ – إن وطن المسلم هو المكان الذي تحكم فيه الشريعة . . . ثم تغيرت الأمزجة ! ! فرفض السلطان الخليفة أن يتحرر ! ! وقـــام هو وعلماؤه بمهاجمة ولعن ثوار الأناضول واتهم الإسلام في تلك الفترة ، بالرجعية الإجتمـــاعية ! والجمود السياسي !

وتحول الكماليون من الدعوة الدينية إلى الدعوة القومية وساروا شوطاً كبيراً في طريق العلمانية ، وعمدت حركة العلمنة بالدم ! ؟

كان الأتراك هم وحدهم بين القوى المغلوبة الذين استطاعوا تحدي المنتصرين وارغامهم على مباحثات الصلح منفردة فرضوا هم أكثر شروطها ، وكانوا وحدهم أيضاً بين الأمم المغلوبة الذين استطاعوا إجلاء الإحتلال عن أكثر أراضيهم واستعادة سيادتهم التامة على ما بقي لهم من الأراضي . وكان تأثير نجاحهم يشبه انتصار اليابان على روسيا قبل جيل من الزمن . لقد أعطى اليابانيون دروساً في الليبرالية والعصرية ؛ وبرهن ! ! ! الكماليون الأتراك عن فوائد ! ! القومية العلمانية ! ! ! و . . . قام جيل جديد من الزعماء في البلاد العربية وغيرها — الذين شجعتهم حركة مصطفى كمال — على تحدي الغرب والاقتداء بالمثل التركي ، غير أنه لم تكتب لأحد من هؤلاء الزعماء درجة النجاح التي توصل إليها الأتراك .

وما بين عام ١٩٢٠ — ١٩٤٠ كان الشكل الغالب للتعبير عن الولاءات السياسية والآراء والمطامح والمصالح غربي الطابع ، وقام كثير من الأحزاب السياسية العلمانية التي نشرت برامجها وكسبت على أساسها المؤيدين وكان أهم الحركات الدينية آنذاك « السلفية » إذ انتقلت زعامتها من الشيخ محمد عبده إلى تلميذه الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥) وهو سوري استوطن مصر . ولم يكن لأعماله في ميدان الفكر والفقه — على الرغم من قيمتها — أي تأثير مباشر على الأحداث السياسية . وفي نفس الفترة ، حاول الشيخ علي عبد الرازق (١٩٢٥) — ربما بتأثير العلمانية التركية — أن يفصل الدين عن الدولة ففشل فشلاً ذريعاً أمام المعارضة الذريعة التي لاقاها من الأزهر .

ويمكننا ملاحظة بدء زيادة الإهتمام بالإسلام في الفترة ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٤٠ في الموجة الأدبية الشعبية التي كتبت عن النبي محمد ﷺ ، وأبطال الإسلام . ومن أهم ما كتب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل والذي نشر سنة ١٩٣٥ ولقي رواجاً شعبياً واسعاً ، وكذلك أبرزت حيــاة النبي والخلفاء في سلسلة كتابات الكاتب الشهير ورجل الأدب الدكتور طه حسين . وفي نفس الفترة ظهرت عدة جمعيات دينية وأسست عدة منظمات كان لها برامج إسلامية تتراوح بين العموميات الغامضة في التعبير عن التقوى إلى الصيغ المباشرة للعقائد السلفية . وكانت إحدى هذه المنظمات جمعية العلماء الجزائريين التي أسست في مدينة الجزائر سنة ١٩٣١ واكتسبت أهمية ونفوذاً كبيرين . أما في الشرق الأوسط فلم يكن لهذه المنظمات حتى عام ١٩٤٥ إلا دور ثانوي غير مهم اقتصر على النشاطات الإجتماعية والثقافية دون المضمون والأتجاه السياسي .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ونتيجة تراخي الضغط الغربي سنة ١٩٤٥ برزت فجأة وبصورة قوية واسعة مجموعة من الحركات الإسلامية التي عبرت عن راديكالية متطرفة من النوع الذي تتابع على العالم لإسلامي منذ عهد « القرامطة » « والحشاشين » إلى عهد شامل داغستان ومهدي السودان . وإبان الحرب العالمية الثانية عسكرت جيوش كبيرة وحاربت في أراضي الشرق الأوسط وكان لها صلات بشعوب المنطقة بحكم طبيعة تموينها وتتابع معاركها ، فأغنت بعض الناس وحطمت حياة آخرين ؛ ولم يتمكن أهل الشرق الأوسط من التعبير عما يعانونه لوجود القوات الأجنبية التي ترغمهم على السكوت

وما أن بدأت الجيوش تجلو حتى تجمعت المشاعر الدينية وانفجرت كراهية وعداوة وأوجدت لنفسها أقنية تُنفس خلالها ما كبت من المشاعر .

وفي مدة وجيزة حكمت الحركات الوطنية والقومية والعلمانية على نفسها بالتأخر والفشل ، فبقيام الإستقلال والسيادة السياسية والحكومات الدستورية لم يعد لهذه الحركات ما تردده ! ولقد تحققت من فراغها ومن خطئها في الخط الذي كانت تسير فيه . لقد كانت تمثل فئة مسيطرة غير أنها أقلية لا تمثل الشعب ولا تحظى بتأييده وهكذا كشفت هذه الحركت أن بين النموذج السياسي الاوروبي وإيدولوجيته ، وبين المشاعر العميقة والرغبات الأصيلة لجماهير الشعب هوة واسعة سحيقة، ولم تدم هذه الحركات طويلاً في الحكم فلقد بدأت تنهار الواحدة تلو الأخرى لتحل محلها حركات من نوع جديد .

وما بين عام ١٩٣٠ إلى ١٩٤٥ كانت النازية والفاشية حركتين لهما بريق جذاب كبديل لليبرالية الغربية ، وكانت ايدولوجيتهما تضم حسنات معارضة نمط النظم الغربية ومعارضة الدول القوية التي تمثل هذه النظم ، بالإضافة إلى أن ايديولوجيتهما كانت مدعومة بقوة عسكرية هائلة تناهض دول الحلفاء . وبعد انهزام النازية في الحرب العالمية الثانية تبعثرت الفئات التي كانت تمت إليها بالصلة في الشرق الأوسط أو على الأقل غيرت (نغمة) شعاراتها وفتش زعماؤها عن طرق جديدة ، ولم يكن لروسيا في ذلك الوقت الطاقة التي تستطيع

بها تزويد هؤلاء بما يريدون . . . لأنها كانت لا تزال تترنح من ضربات الحرب القاسية . وطوال المئة والخمسين سنة الماضية كانت أوروبا في نفس الوقت تؤمن للشرق مادة كراهيتها من جهة ، والأساليب الايديولوجية للتعبير عن هذه الكراهية من جهة أخرى . وحتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ظل قسم من الشرقيين يتطلع إلى الغرب لتزويده بايديولوجية جديدة ، فأعطاهم الغرب ايديولوجية الإشتراكية ، وكانت هذه ايحاء المرحلة الجديدة للمعركة مع الغرب وفي الأعوام التي مرت من ١٩٤٥ ــ ١٩٥٥ كان للمنظمات الإسلامية أبرز الألوية وكان لدعوتها بتأكيد قيم العقيدة الإسلامية ومُثلها رد فعل قوي ، فلقد كانت أقرب إلى مشاعر الطبقات الكادحة المظلومة التي تكره مستغليها من الأسياد (المتغربين) مثلما تكره الغربيين أنفسهم .

وكانت أقوى هذه المنظمات الإسلامية وأكثرها نجاحاً منظمة الإخوان المسلمين وهي جمعية نصف علنية واسعة الإنتشار تقوم على أساس الخلايـــا والفتوة ذات الطابع العسكري ، وشبكات ضخمة واسعة من المؤسسات الثقافية والإقتصادية . ولقد أسست حوالي ١٩٢٨ على يد مدرس ثانوي مصري اسمه الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) وكان يلقب بالمرشد العام ، ثم نمت الحركة باضطراد وبسرعة ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٤٠ ودخلت الميدان السياسي ما بعد عام ١٩٤٠ وتمكن الإخوان بسرعة أن يلعبوا دوراً هاماً عاصفاً في السياسة المصرية خصوصاً في الفترة العصيبة التي مرت ما بين آخر الحرب العالمية الثانية ، وقيام الحكم العسكري في مصر . ولقد عملت

الحركة إلى فترة من الوقت كحزب سياسي مستقل يناوئ حزب الوفد وحظيت بعطف ! فاروق ! ! ؟ الذي كان لا يحب حزب الوفد ، وفي سنة ١٩٤٨ حارب متطوعوا الإخوان في فلسطين وعند عودتهم قيل أنهم دبروا خطة الزحف على القاهرة والقيام بانقلاب للإطاحة بالملك والحكومة وإقامة جمهورية إسلامية وجاءتهم الضربة الأولى من النقراشي (باشا) رئيس الوزراء ؛ ففي سلسلة من التدابير التي بدأت في ٨ كانون أول ديسمبر ١٩٤٨ حل النقراشي جماعة الإخوان المسلمين وحجز موجوداتها واعتقل العديد من أعضائها وبعد ثلاثة أسابيع أي في ٢٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٤٨ سقط برصاصة من مسدس شاب هو بالتأكيد من أعضاء المنظمة وعلى الأغلب أن قيادة المنظمة لم تأمره بذلك . وفي الثاني عشر من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٩ قتل الشيخ حسن البنا صريعاً في ملابسات غامضة لم تفسر كلياً إلى الآن وقام نشاط سري قوي بعد ذلك واستلم منصب المرشد العام الأستاذ حسن الهيضبي ؛ وفي سنة ١٩٥١ سمح للإخوان باستعادة بعض ممتلكاتهم المحجوزة ومزاولة نشاطهم العلني ، ولقد لعب الإخوان دوراً مهمـاً في معركة القنال ضد الإنكليز ، وفي الأحداث الجائحة التي أدت إلى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وبعد فترة قصيرة من التعاون الصعب بين الإخوان والحكم العسكري تدهورت العلاقات بسرعة . وفي ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٥٤ جرت محاولة فاشلة لقتل الكولونيل عبد الناصر فأعلنت المنظمة غير شرعية ، وحوكم زعماؤها ، وحكم على سبعة منهم

الحكم بالإعدام وخفف حكم الإعدام عن المرشد العام بسبب كبر سنه ونفذ سريعاً بالباقين وأصدرت مشيخة ! ! الأزهر بياناً اتهمت فيه الإخوان المسلمين بتعدي حدود الله التي تميز بين الخير والشر .

والصورة التي تعكس الإخوان المسلمين هي صورة العنف والتعصب الأعمى وليست الصورة كلهـــا من صنع أيديهم فلقد ضخمها وبالغ فيها أعداؤهم . فلهذه المنظمة وجهها الايجابي الذي استوحى تعاليمه من السلفية والتي وصفها البروفسور كانتول سميث بالأسلوب التالي : « من الخطأ في نظري اعتبار الإخوان المسلمين حركة رجعية محضة ! ، فلقد قام فيها مجهودات ايجابية بناءة محمودة لبناء مجتمع جديد مؤسس على العدالة والإنسانية المستمدة من أفضل القيم التي احتفظ بها من تقاليد الماضي ، ولقد مثلت حركة الإخوان جزئياً، العزم على التخلص من الإنحلال والتفسخ اللذين أغرقا المجتمع العربي ؛ وخصوصاً الإنتهازيـــة الإجتماعية غير الأخلاقية التي امتزجت بالفساد الفردي وأرادت العوده بالمجتمع إلى مقاييس خلقية متبولة وتوحيد النظرة إلى هذه المقاييس ، والسير قدماً في برامج التطبيق وتنفيذ الأهداف الشعبية بواسطة منظمة منتجة حسنة السلوك وهبت نفسها للمثل العليا . وحركة الإخوان تمثل — جزئيـــاً — التخلص من الإحترام السلبي لقيم ميتة تافهة متوارثة ، ومحاولة تحويل الإسلام من عاطفة حماسية في قلوب المعجبين الكسالى إلى عمل وتحويل التقليديين المحترفين محدودي الفكر والتنفيذ الذين يشدون

أنفسهم إلى عصور الإنحطاط ، إلى قوة عاملة نشطة فاعلة تحل مشاكل العصر[1] . »

ومن سوء الحظ أن هذه المطامح ، مثل كثير غيرها ، قد خابت أمام عدم القدرة على مواجهة وقائع العالم الحديث ، لتحليل المشاكل على صعيد الأفكار الحديثة واستنباط حلول قابلة للتنفيذ . وفي أحيان كثيرة كان للجهل والغضب مسؤولية في قيام أعمال عنف مخربة لا طائل تحتها ، وكانت هذه تعبيراً عن وضع نفسي أكثر مما كانت هدفاً وغاية .

ويلاحظ نفس المزيج من المثالية والعنف ، من التقوى والإرهاب في المنظمة الايرانية التي تسمى فدائيان إسلام والتي استعارت تعبيراً استعمله مبعوثوا (شيخ الجبل) ، وبالرغم من مذهبهم الشيعي فهم يحملون فكرة عن الوحدة الإسلامية تماثل إلى حد كبير فكرة الإخوان المصريين ، ولقد كانت بينهما اتصالات . وفي ٧ آذار (مارس) سنة ١٩٥١ قتل أحد أفراد فدائيان اسلام . رئس الوزراء الايراني الجنرال رازمارا ، وكانت زيارة زعيم فدائيان إسلام نواب صفوي لمصر في كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٥٤ هي الشرارة الأولى التي بدأت أول صدام خطير مكشوف بين الإخوان والحكم العسكري

---

(١) هذا أول كاتب غربي (كانتول سميث) لم يخل تحليله من بعض الموضوعية والتجرد ، فبالرغم من ترديده للنغمة المألوفة « الرجعية والتعصب » فإنه لم يستطع أن يتجاهل النقاط الإيجابية البارزة في دعوة وتاريخ هذه الجماعة التي راشها خصومها الكثر بالسهام المسمومة وبخل حتى المحايدون — عليها بطاقة من الورد .

في مصر ؛ وفدائيان اسلام هي في حالة خسوف الآن ، ولقد بقيت إلى مدة عامل اضطراب في سياسة ايران .

حتى في تركيا . . . في المجتمع المتغرب العلماني المترفع ! ! مجتمع الجمهورية الكمالية . . . قامت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية ، وكان على زعامتها الإخوة الدراويش ولم يكن فيها « العلماء » لأنهم كانوا موظفين رسميين ! ! ! ففي حياة كمال أتاتورك كانت الحركة النقشبندية رأس حربة المعارضة الدينية ، إذ قاد عدد غير قليل من أفرادها ثورات مسلحة وأهمها في المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٩٢٥ وفي مينمين سنة ١٩٣٠ ؛ أما حديثاً فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتان تبشران وتدعوان لمناهضة الثورة الكمالية . . . ولكنهما لم تحملا السلاح بعد ! ! ! والسنوات الأخيرة توحي بأن المنظمات الدينية هي في طريق الزوال فلقد منعت في بلاد كثيرة وضُغط عليها في بلاد أخرى . ومن غير المشكوك فيه أن هذه المنظمات لا تزال قائمة تعمل في الخفاء ، وإنها تلقى صدى مستحباً عند غالبية الجماهير الشعبية من الطبقات الكادحة في المجتمعات الإسلامية . حتى أن الحكومات . . . برغم علمانيتها وتقدميتها ! ! تجـد نفسها ملزمة ــ لمصلحتها ــ بتقدير المشاعر والولاءات الإسلامية ، فمسايرة الرجعية ! ! التركية من قِبل عدنان مندريس وإقامة المؤتمر الإسلامي في الجمهورية العربية المتحدة هما مثالان على ذلك . ولقد كان لحوادث الإضطرابات اللبنانية في سنة ١٩٦١ أثر ، عند البعض ، ذكرهم بما مر على لبنان في الماضي

من أحداث طائفية ، مما جعل بعض المسيحيين يتخوفون ويسعون لتآلف صعب التحقيق بين الموارنة والأرثوذكس .

ولقد وجد غير المسلمين في الشرق الأوسط أنه من الحكمة قبول دور محدود متواضع في الحياة السياسية والإقتصادية ، ولقد صرح بعضهم في مجتمعات خاصة - عن تخوفهم من نغمة التعصب التي يرددها البعض من آن لآخر ! !

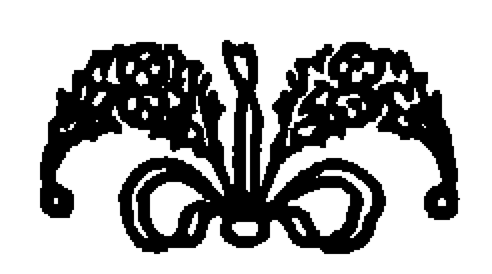
وبالرغم من أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر والتي كانت تمثل أقوى وأنجح المنظمات الرجعية الراديكالية . . . قد حُلّت (وقمعت) ! ! إلا أن نشاطها لا زال قائماً في بلاد عربية عدة بالرغم من الضغط الحكومي عليها . . . حتى أن الحركة في مصر لم تمت تماماً . . . وهناك بعض المتشائمين ![1] ! من المراقبين يعتقدون أن الإخوان والشيوعيين - الحركتين الثوريتين المنظمتين المعارضتين - هما في الوقت الحاضر البديل الوحيد الهام إذا تغير النظام القائم . حتى أن الدكتور نبيه أمين فارس - أحد أعلام المؤرخين العرب المعاصرين - ذهب إلى الحد الذي قال فيه عن الإخوان : « أن فكرتهم ومثاليتهم لا تزال تمثل أعمق مطامح المسلمين من المغرب

(١) يظهر أن المؤلف له من الاطلاع على أوضاع الحكومات العربية وسياستها تجاه الإخوان ما يجعله يتفاءل ! ! ! بزوال الاخوان إلى الأبد ! ولكن بالرغم عن تفاؤله هذا فإنه لا يزال يشكو من وجود بعض منظمات الاخوان في بعض البلاد العربية ! ! ! وهو يحذر من هذا الخطر ! ! ! بل ويحرض على القيام بعمل يستأصل هذا الداء ! ! إذ يعيد إلى أذهان المسؤولين الأساليب الفعالة في المكافحة والقمع ... التي جربت ونجحت ! ! !

إلى أندونيسيا » والشيء الواضح الوحيد هو أن من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الإسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة

فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والإشتراكية كلها اوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط ، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة .

وبالرغم من أن كل الحركات الإسلامية قد هُزمت حتى الآن . . . غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة ! !



الفصل السادس

مكانة الشرق الأوسط في الشؤون العالمية

« السياسة الخارجية » موضوع استحدثته اوروبا ؛ فلقد برز في عالم مليْ بدول ذات سيادة منفصلة في كيانها . . . ولكنها تتبادل الأعمال والمصالح ، ولها دبلوماسية دائمة متعددة الأطراف تصل بعضها ببعض ؛ والسياسة الخارجية ، مثل غيرها من أجهزة الحياة السياسية والحياة العامة ، موضوع غريب وجديد في العالم الإسلامي .

فالمسلمون الأولون كانوا يعتقدون أن الإسلام هو خاتم الأديان السماوية كلها وهو الدين الحق العالمي ، وكانوا يأملون أن تعتنق الإنسانية جميعها هذا الدين الخالد وتقتنع أن المسلمين هم الأعلون وأن السيادة للإسلام في دول الإسلام . ولقد كان العالم في نظرهم قسمين دار الإسلام حيث يعم الدين الحق وتقوم الخلافة ، ودار الحرب حيث لا يزال المشركون . وبين الدارين حرب دائمة تقطعها هدنة من وقت لآخر . . . ولكنها لا تنتهي أبداً بالصلح[1]

---

(١) هل نسي المؤلف أم تناسى تاريخ الاسلام حيث كان يعقد الصلح بين المسلمين وخصومهم ؟ ألم يكن صلح الحديبية صلحاً ؟ .

ولن تضع الحرب أوزارهـــا حتى تشمل دار الإسلام العالم كله ! ! وللوصول إلى هذه الغاية كانت غزوات الجهاد قائمة وكانت فرض كفاية بالنسبة للفرد المسلم ، ومسؤوليتها تقع على عاتق الخليفة الحاكم الذي يرعى شؤون المسلمين . لذا كان في العالم الإسلامي خلافة واحدة ، وحاكم واحد هو الخليفة وهو المسؤول الشرعي القانوني الذي يتولى القيادة ويمثل دولة الإسلام .

ولقد طبق المسلمون في الواقع هذا النظام لمدة مئة سنة حيث كان للإسلام دولة واحدة ، يحكمها خليفة واحد ، وكان لهذه الدولة خطىً جبارة في طريق الدولة والبناء ، وظهر من تباشيرها أنها ستضم العالم كله إلى أحضانها في وقت قريب ، فعملية الغزو وعملية اعتناق الناس للإسلام كانت من الأمور التي لم يستطع أحد الشك في قوة سيرها ونجاحها . ولكن الموقف بدأ يتغير تدريجياً بعد فشل المسلمين في فتح القسطنطينية سنة (٧١٨) ميلادية .

وكان لهذا الفشل تأثير أشد وقعاً مما كان لنتائج معركة (تور) و (بواتييه) ، لأنه كان علامة حدود للتوسع العربي إذ أجبر المسلمين على الإقتناع بفكرة وجود (حدود) لهم ، وتحقق العرب بعد ذلك أنه ليس باستطاعتهم غزو و (تمثل) البيزنطيين كما غزوا وتمثلوا الإمبراطورية الفارسية لذا أجّلوا محاصرة القسطنطينية إلى أجل غير مسمى ، ثم تعوّد الأمويون ثم العباسيون أن يتعايشوا ضمن حدودهم التي كانت ثابتة إلى حد ما ؛ وبعد مدة وجيزة كان عليهم أن يرضوا بالإنقسامات داخل دولتهم الواحدة وقيام حكومات إسلامية

ذات استقلال ذاتي ضمن الإمبراطورية الواحدة وكانت هـــذه الحكومات تعترف اعترافاً رمزياً بالخليفة .

لقد تغير الواقع . . . أما الفكرة فما زالت باقية ، ولقد تأثر فقهاء المسلمين إلى حد بعيد بالحوادث والأفكار التي مرت على أوائل الدعوة الإسلامية ، وبقوا مخلصين لها ، متمسكين بفكرة الدولة الواحدة والسيادة الواحدة والخليفة الواحد . ولم يستطع فقهاء المسلمين أن يجاروا ما قامت به الإمبراطوريات المسيحية في القرون الوسطى من محاولة لخلق قانون دولي ، فما دام هنالك خليفة واحد فتعدد الدول الإسلامية أمر غير وارد مبدئياً وعندما كانت تتعدد الدول الإسلامية كان الفقهاء أمام حلين : أولاً تجاهل قيامها ، ثانياً القبول بها ودرْج المعاملات القائمة بينها في باب الفتاوى الشرعية بين الخليفة وهو يمثل الدولة الإسلامية الكبيرة وبين ثائر قوي ، وهذا يمثل الدول الإسلامية الأخرى التي كانت قائمة . أما العلاقات مع المشركين فقد كانت – نظرياً – في حالة الجهاد الدائم الذي تقطعه الهدنة القصيرة . وكما كانت دار الإسلام واحدة كذلك كان هناك ميل لاعتبار دار الحرب واحدة ومعاملة أهلها معاملة واحدة . ولقد ردد البعض كثيراً الأثر القائل : « الكفر ملة واحدة » ونسبوه خطأً للأحاديث النبوية ؛ ومع أن هذا التقليد يعبر إلى حد ما عن حقيقة نفسانية هامة ، غير أن واقع المسلمين التاريخي يدحض فكرة هذا التقليد . فالإنقسام : « بين المؤمنين والمشركين » وليس « بين المسلمين وغير المسلمين » ؛ ومن الطبيعي أن تكون التفرعـــات والإنقسامات الجزئية بين المشركين غير ذات أهمية بالنسبة للمسلمين

ومثلنا على ذلك في كتب المؤرخين العرب الذين ذكروا الصليبيين فإن هؤلاء المؤرخين لم يهتموا بالتفريق والتمييز بين دول الحملات الصليبية فلقد حشروها جميعاً في باب « الفرنجة » واستمر استعمال هذا التعبير في العهد العثماني وعاش حتّى أيامنا هذه .

وطالما بقيت الدولة العثمانية ذات شأن عسكري ضخم لم تكن بحاجة لشغل نفسها بالإنقسامات التافهة بين صفوف أعدائها ، ولم تقم الحاجة مطلقاً للتفكير بسياسة خارجية . فلقد كان يكفيها لقاء الأعداء في ساحـــة الوغى والإنتصار ثم إملاء شروطها عليهم حتّى تقوم معركة أخرى . ثم بدأ التحول في القرن السادس عشر عندما انسحب العثمانيون سنة ١٥٢٩ بعـــد فشلهم في فتح (فيينـــا) وبقائهم مـــدة طويلة دامية في أراضي المجر ، وفي اسطمبول بدأ الممثلون الدبلوماسيون للدول الاوروبية سلسلة طويلة من التسابق والتنافس للحصول على امتيازات تجارية وسياسية .

وفي سنة ١٥٣٥ وقّع السلطان على معاهدة تجارة وصداقة مع ملك فرنسا ، وهذا الأخير كان الوحيد بين ملوك الدول الاوروبية المسيحية الذي حظي من السلطـــان بلقب (باديشاه) ، وفي سنة (١٦٠٦) أعطي هذا اللقب لإمبراطور عائلة هابسبورج وذلك في نص معاهدة (ستفاتوردك) حيث سمّت الوثيقة العثمانية الإمبراطور باسم (ملك فيينا) . وللمرة الأولى لم تكن الوثائق هذه معاهدة صلح فرضها العثمانيون المنتصرون في عاصمتهم ، بل كانت معاهدة قامت المفاوضة عليها بين طرفين متساويين على حدود الدولتين .

وبدأ القرن التاسع عشر بإقرار فكرة المساواة بين العثمانيين وغيرهم من الدول ، وانتهى بإقرار الهزيمة . فلقد أعقب الفشل الثاني على أبواب فيينا سنة ١٦٨٣ سلسلة من الإنهزامات العسكرية . وفي معاهدة صلح (كارلويتز) سنة ١٦٩٩ أُجبرت الإمبراطورية العثمانية للمرة الأولى على توقيع معاهدة فرض شروطها عدوها المنتصر . وللمرة الأولى حاول العثمانيون تطبيق طريقة المفاوضات ، الدبلوماسية وادخال عناصر محايدة صديقة في الموضوع لتخفيف الجزاء الذي سيدفعونه ثمن هزيمتهم . وهكذا أخذت فكرة السياسة الخارجية تتبلور داخل الإمبراطورية العثمانية .

وفي خلال القرن السادس عشر ظهرت وظيفة جديدة في الدولة العثمانية وكان اسمها السكرتير الرئيسي أي (رئيس الكتاب) وكان يعرف باسم (رئيس أفندي) ويهتم بالشؤون الأجنبية . ولقد كانت الوظيفة ثانوية . . . وكانت الشؤون الأجنبية قسماً بسيطاً من أعماله الأخرى ، وفي القرن السابع والثامن عشر ارتقت سوية هذه الوظيفة . . . واحتلت الشؤون الأجنبية الخارجية حيزاً كبيراً من أعمال هذه الوظيفة . ثم أنشئت وظيفة مساعد له وهي (الترجمان الرئيسي) وكان عمل الترجمان في الماضي مقصوراً على الاوروبيين المسيحيين ، ومنذ أواسط القرن السابع عشر احتكرت العائلات الأرستقراطية اليونانية التي تقطن حي الفنار (المنارة) في اسطمبول هذا المنصب وأصبح المنصب يوازي منصب وزير الشؤون الخارجية

وعلى الرغم من هذه التطورات فلقد بقيت فكرة السياسة الخارجية والعلاقات الدولية شيئاً غريباً بالنسبة للعثمانيين، وربما كان اسنادهم هذا المنصب لأعضاء الجالية اليونانية المسيحية أحسن دليل على ذلك وازداد عدد السفارات الاوروبية في اسطمبول . . . ولكن العثمانيين كانوا يكتفون بإرسال مبعوث خاص لأوروبا ولم يحاولوا أبداً إقامة سفارات دائمة إلا في سنة ١٧٩٣ عندما عين يوسف آغا أول سفير دائم مقيم في لندن .

وقبل سنوات قليلة من ذلك التاريخ جرّب العثمانيون حظهم في اللعبة السياسية الاوروبية ، فعندما كانت روسيا في حرب مع النمسا وجد العثمانيون أنه من المناسب لهم أن يوقعوا معاهدة مع السويد التي كانت أيضاً في حالة حرب مع روسيا ؛ ومع بروسيا التي تستطيع إفادتهم بممارسة ضغطها على النمسا ، وهكذا وقعت المعاهدات مع هاتين الدولتين سنة (١٧٨٩) و(١٧٩٠) ، وكانت فكرة إقامة حلف عسكري مع بعض الدول المسيحية جديدة وغير مرغوبة عند بعض علماء المسلمين .

ولقد استنكر القاضي العسكري (شانيزاد أفندي) لأنها تخالف الشرع ودعم رأيه هذا بالآية القرآنية التي تقول « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة »[1] غير أن المفتي العام حاجه بالرأي المأثور الذي يقول : (إن الله يؤيد

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ١ .

هذا الدين بالرجل الفاجر ! ! !) [1] وقدم نصوصاً وحججاً أخرى . وحفظ بعد ذلك العثمانيون درسهم بسرعة ، ففي سنة (١٧٩٨) دعيت الإمبراطورية العثمانية للدخول في ائتلاف ضد خطر الثورة الفرنسية فقدم (الرئيس أفندي) أحمد عاطف مذكرة للديوان يقترح فيها القبول حيث كتب « يجب أن يكون لكل دولة سياستان أولاهما دائمة ينطلق منها كل عمل وكل نشاط والثانية مؤقتة تواكب الوقت والظروف القائمة ، وسياسة الإمبراطورية العثمانية الأساسية الدائمة هي منع ازدياد قوة روسيا والنمسا اللتين هما بالنسبة لموقعهما العدوتان الطبيعيتان ، وعلى الدولة أن تتحالف مع الدول التي قد تستطيع تفتيت قوتهما ، وهذه الدول حليفات طبيعيات لنا أيضاً . أما في هذه الظروف فالسياسة التي هي في مصلحة الإمبراطورية العثمانية تعتمد على أمرين : أولاً : العمل على إطفاء نار الفتنة والشر ، وعندما نصل إلى هذا الهدف نعود للسير على خط سياستنا الأساسية الدائمة » . وإبان القرن التاسع عشر أكدت الدولة العثمانية خطوطها السياسية الأساسية الدائمة بالتطبيق والتجربة . فلقد كانت روسيا الخطر الأساسي والعدو الرئيسي خصوصاً وهي تتقدم نحو الجنوب بدون توقف . وأي قوة قادرة على مساعدة العثمانيين ضد الروس كانت . . . دولة صديقة ، وتغير أصدقاء العثمانيين . . . ولكن أهدافهم بقيت ثابتة . فبعد السويد وبروسيا جاء دور فرنسا ، . . . وحتى بريطانيا . . . دافعت عن تركيا ، بقواتها المسلحة

---

(١) رواه البخاري .

سنة ١٨٥٤ ـــ ١٨٥٦ ، وبتهديداتهـــا السياسية سنة ١٨٧٨ وفي مناسبات أخرى ، وفي أواخر القرن التاسع عشر حلت ألمانيا كحليفة لتركيا محل فرنسا وبريطانيا لأنها اعتُبرت الحصن الرئيسي في وجه روسيا . وانتهى هذا الحلف باندحار تركيا وألمانيا سنة ١٩١٨ .

وخلقت الثورة الشيوعية في روسيا والثورة التركية في الأناضول ، واحتلال الحلفاء لاسطمبول أوضاعاً جديدة أدت إلى تلاق وقتي للمصالح ، بين الأتراك والروس ، وقام تعاون موقّت بين النظامين الثوريين ، وبعد أن تغلب كل فريق منهم على خصمه عاد إلى القاعدة التي سماها (عاطف أفندي) السياسة الدائمة لبلده . وفي معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ حدث فتور في العلاقات بين روسيا التي رسخت أقدامها على شواطئ البحر الأسود وبين تركيا التي كانت مسيطرة سيطرة تامة على المضايق ، وفي سنة ١٩٢٤ ـــ ١٩٢٥ بعد اختلاف تركيا وانكلترا على (الموصل) تحسنت علاقات تركيا وروسيا ... ثم تدهورت إلى الحضيض بعد الحملة العقائدية العدوانية التي شنها الشيوعيون على نظام حكم أتاتورك سنة ١٩٢٨ ـــ ١٩٢٩ وبهبوط أسهم الرأسمالية وبتطبيق تركيا لسياسة سيطرة الدولة على الإقتصاد ، عادت العلاقات التركية الروسية إلى الإنتعاش ، وكان لموقف البلدين الواحد من الحركات الفاشية الإيطالية في الحبشة واسبانيا ، أثر في تقوية الإنتعاشس .

وانتهت فترة الصداقة في سنة ١٩٣٩ عندما تبخر الرصيد القليل من حسن النية الذي تجمع خلال فترة من الأخوة الثورية ، وذلك

بسبب غطرسة السوفييت ومطالبهم الدائمة . وكان غموض السياسة التركية في سنتي الحرب العالمية الأخيرة راجع إلى عدم تأكد تركيا ... وترددها في اختيار الحصن الذي سيقيها هجوم الروس ، ولم تكن تركيا قد قررت من الذي سيلعب الدور الذي لعبته بريطانيا سنة ١٨٥٤ و١٨٧٨ ، وألمانيا سنة ١٩١٤ ، وبحلول عام ١٩٤٧ ظهر جلياً أن الإختيار قد وقع على الولايات المتحدة ؛ وفي الثاني عشر من آذار (مارس) أعلن الرئيس ترومان برنامج المعونة العسكرية والإقتصادية لتركيا . وافتتحت سياسة ترومان هذه عهداً جديداً من التدخل الأميركي الواسع في شؤون الشرق الأوسط.

وفي الوقت الذي أدخل فيه (نابليون) الشرق الأوسط إلى حلبة صراع القوى الاوروبية كانت هناك دولة أخرى ، غير الإمبراطورية العثمانية ، تتمتع باستقلالها الكامل ... وهي ايران . كانت ايران أبعد عن اوروبا من جارتها الدولة العثمانية . فكانت معلوماتها عن اوروبا أقل عمقاً ، وردود فعلها نحو اوروبا أقل ترفعاً من الدولة العثمانية ؛ غير أن مشاكلها على كل حال كانت تشابه تماماً مشاكل العثمانيين ، فايران كانت تخشى في الشمال خطر الروس الذين ألحقوا بامبراطوريتهم عدة مقاطعات جديدة ودخل نفوذهم السياسي والإقتصادي عدة مقاطعات أخرى ؛ وايران مثل تركيا كانت تنظر للغرب مفتشة عن ضمانة لحدودها ... ولكنها لم تنلها فألمانيا كانت بعيدة جداً ، وبريطانيا كانت تخجل ! من أن تتهم بتدخل مباشر في شؤون ايران الداخلية ، بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من الايرانيين كان يرى في الإمبراطورية البريطانية في الهند

خطراً كبيراً على ايران يماثل خطر الروس في الشمال . وكانت خطة ايران في سياستها الخارجية هي التفتيش عن دعم لها ضد روسيا ، فإن فشلت عمدت إلى لعبة إثارة الإمبراطوريتين إحداهما على الأخرى (روسيا وبريطانيا) ولقد اكتسب الايرانيون مهارة فائقة في هذه اللعبة ونجحوا إلى حد كبير في دورهم هذا الذي كان يسميه الرومان (Tertius Gauoleus) وفي أيامنا هذه يسمونه (الحياد الايجابي) . ولقد كان وضع ايران في آسيا مماثلاً – من عدة وجوه – لوضع البولونيين في شرقي اوروبا ، فلقد كانوا يعيشون على اختلاف الإمبراطوريتين الكبيرتين ؛ وإذا ما تصادف اتفاق هاتين الإمبراطوريتين تصبح بولونيا في خطر الإجتياح ، ولقد قام ذلك الخطر مرة واحدة في سنة ١٩٠٧ بعد اتفاق الروس والإنكليز وإذا استثنينا فترة التعاون الروسي الإنكليزي الذي لم يكن سهلاً في الحربين العالميتين الأخيرتين لم تقم بعد ذلك لهذا الإتفاق قائمة .

وبزوال الحكم البريطاني من الهند سنة ١٩٤٧ خسرت السياسة الخارجية الايرانية عموداً من الأعمدة التي استندت عليها مدة قرن ونصف من الزمن ، فبدل الإمبراطورية البريطانية قامت في شبه القارة الهندية دولتان لا تستطيع أي واحدة منهما أن تخلق توازناً ضد روسيا . وبقيت قوة الروس في الشمال ، وتنبه رجال الدولة الايرانية للخطر في أزمة أذربيجان سنة ١٩٤٥ – ١٩٤٦ وأزمة اتفاقية البترول السوفيتية سنة ١٩٤٦ – ١٩٤٧ وبدأوا يفتشون عن قوة توازن الخطر الداهم .

وكان إعلان سياسة ترومان دليلهم لاختيار الوجهة الجديدة . ولقد حدث مرة في سنة ١٩١١ أن اتجه الايرانيون إلى الخبراء الأميركان للنصح والمساعدة ضد جار الشمال وجار الشرق ، وفي تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٤٧ اتجه الايرانيون إلى اميركا لمساعدتهم على الجار الباقي (جار الشمال) وعقدت اتفاقية في السادس من تشرين الأول (اكتوبر) تزودهم بموجبها اميركا ببعثة عسكرية وتبيعهم الأسلحة وكانت هذه هي الخطوة الأولى ، أما الخطوة الثانية فجاءت إثر بعض التأخير بسبب أزمة البترول الإنكليزية الايرانية ، وكانت هذه الخطوة الثانية هي دخول طهران حلف بغداد في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٥٥ .

في بداية القرن التاسع عشر كانت في الشرق الأوسط دولتان تحتاجان لسياسة خارجية وهما الدولة العثمانية وايران ، وفي خلال القرن نفسه إزداد عدد الدول إلى ثلاثة فقد برزت مصر ؛ ففي عهد حكم محمد علي باشا وخلفائه كان لمصر قسط كبير من الإستقلال الذاتي لدرجة سمحت باحتمال قيام سياسة خارجية لها أو على الأصح سياسة مصرية بالنسبة لبقية بلاد الشرق الأوسط . ولم يكن الموضوع جديداً فمنذ بدء القرن التاسع عشر برزت مصر كقوة مستقلة في الشرق الإسلامي وتعاقبت العائلات الحاكمة عليها ، وكل واحدة منها تخطط سياسة مصرية . وأهم أسس هذه السياسة لخّصت على لسان الوزير ابن كلّيس في سنة ٩٩١ وهو على فراش الموت وكانت نصيحته للخليفة الفاطمي (العزيز) : « إحفظ حالة الصلح مع البيزنطيين طالما احتفظوا هم بها ، اكتف بضرب العملة باسمك

والدعاء لك على المنابر في دولة بني حمدان في شمال سورية ؛ لا تتأخر في إعدام زعيم قبائل البدو في جنوب فلسطين مفرج بن الجراح إذا سنحت لك الفرصة » ، وإذا وضعنا هذه النصيحة في قالب عصري نرى أن معناهـــا هو : « كن على صلة حسنة بأوروبا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، اكتف بالولاء الرمزي في سورية لا تتخل عن قطاع غزة » .

كانت سورية وفلسطين دائماً مركز اهتمام الحكومات المصرية المتعاقبة ، وأول مناطق التوسع المصري لأن هذين البلدين يقعان على حدود مصر الأربعة ، وكان أقل ما يريده المصريون رأس جسر في جنوب فلسطين ثم يعمدون — إن استطاعوا — إلى وضع سورية تحت نفوذهم السياسي . وكل حاكم مستقل مسلم في مصر من عهد أحمد ابن طولون إلى صلاح الدين ومن محمد علي إلى الرئيس عبدالناصر اتجه في طريقه عاجلاً أم آجلاً إلى دمشق . ولقد حل المماليك مشكلة سورية عندما حكموا امبراطورية تضم مصر وسورية لمدة قرنين من الزمن ، أما الحكام الباقون فلقد لاقوا مقاومة داخلية أو معارضة خارجية وأجبروا على الإنسحاب من سورية وبعضهم خسر في انسحابه سورية ومصر معاً .

وبدأ عهد جديد بقيام حكم محمد علي ، وهو قائد عسكري نصب نفسه حاكماً لمصر في بدء القرن التاسع عشر وعمد في الداخل لدعم حكمه اقتصادياً بإلغاء النظام القديم في تملك الأراضي وأسلوب جمع الضرائب ، وركز ملكية أكثر الأراضي في يده ، ونظم

استئثار الدولة بالتجارة ، وبناء المصانع والصناعة برعاية الدولة ؛ وفي الخارج وطد علاقاته مع قوى كثيرة وقام بسلسلة من المغامرات العسكرية والسياسية في شبه جزيرة العرب والسودان والجزائر ، وسورية — طبعاً — في رأس القائمة . وعلى الرغم من فشل أكثر هذه المغامرات فإنه نجح في إقامة دولة ملكية مصرية جديدة حكمها أولاده وأحفاده حتى عام ١٩٥٢ .

وكان محمد علي الأول والأخير الذي استطاع أن يطبق — حقاً — سياسة خارجية واضحة مستقلة ، أما خلفاؤه فقد انشغلوا بمغامراتهم في افريقيا أو بعلاقاتهم المعقدة مع الدولة العثمانية وأخيراً بقوة الإحتلال البريطانية . وأول مغامرة مستقلة قامت بعد محمد علي كانت دخول حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ؛ وكان الفشل الذي انتهت إليه سبباً مباشراً في سقوط عائلة محمد علي وقيام نظام جديد . وسياسات النظام الجديد توحي بنقاط التشابه مع ما قام به محمد علي وبعض حكام مصر الذين سبقوه .

وهناك دولة أخرى في الشرق الأوسط ، كانت لها تجربة دبلوماسية وعلاقات خارجية تعود إلى ما قبل ١٩١٨ . . . وهي لبنان ، وجمهورية لبنان — بشكلها الحاضر — خلقت حديثاً ، أما جبل لبنان فلقد كان ، منذ قرون ، مركزاً لولاية لها استقلال ذاتي يتناوب زعامتها المسيحيون والدروز ؛ وفي أول القرن السابع عشر قام الأمير الدرزي فخر الدين المعني بخلق لبنان مستقل ووجد حليفاً غربياً في شخص (غراندوق توسكاني) ، وبعد سقوط

فخر الدين وإعدامه نجح الأمراء الشهابيون في لبنان بالإبقاء على قدر كبير من الإستقلال الذاتي وأنشأ الموارنة اللبنانيون ــ وكانوا يشكلون الطائفة المسيطرة في الجبل ــ علاقات مع فرنسا ومع الأكليروس الفرنسي والايطالي استمرت حتى هذه الأيام . وإبان الإضطرابات الطائفية في القرن التاسع عشر ، والمنافسات السياسية في القرن العشرين تعود بعض زعماء الموارنــة التطلع إلى الغرب وبخاصة فرنسا للمساعده والحماية ، ونما التقليد القائل إن جبل لبنان هو حصن الموارنــة ، والمؤيــد الشجاع المخلص للمسيحيين وللمدنية الاوروبية وسط الشعوب الإسلامية في آسيا ، وفي إبــان حكم الإنتداب الفرنسي حرصت الحكومة الفرنسية كثيراً على إبقــاء الثوب الكهنوتي الكاثوليكي في وسط الشرق الإسلامي ، وعلى الرغم من وجود كثير من اللبنانيين الذين يفضلون إيديولوجية القومية العربية ، فإن كثيراً من الموارنة قبلوا الدور الذي خصتهم به فرنسا واعتمدوا في سياستهم على التحالف معها .

وخلق انسحاب فرنسا من الشرق الأوسط شبه أزمه في السياسة اللبنانية ، وازدياد ضغط فكرة الوحدة العربية داخل لبنان حتى أنه فاق ما كانت عليه هذه الفكرة في الدول المجاورة ، فالمسلمون في لبنان لم يثقوا قط بالدوافع التي أدت إلى خلق لبنان منفصل لذا لم تشدهم إلى وطنهم الروابط والمشاعر نفسها التي كانت عند إخوانهم في الدين في سورية والعراق ومصر .

ولكن عدداً كبيراً من المسيحيين والدروز والشيعة . . . وحتى بعض المسلمين السنة كانوا يشعرون بقوة بالهوية اللبنانية الخاصة بهم

وبدأ زعماء هؤلاء الذين كانوا يعتقدون بأن بقاء لبنان إنما يعتمد على الغرب ، بدأ هؤلاء يفتشون عن ضمانة جديدة تخلف الضمانة الفرنسية التي جلت . واعتقد كثيرون أن الولايات المتحدة هي الضمانة لأنها أكبر الدول المسيحية الغربية ، ولها سجل ثقافي وتربوي سابق في لبنان ، ولطبيعة مصالحها السياسية والعسكرية والإقتصادية في المنطقة فإنها كانت تحوز على أفضل المؤهلات لتحل محل الحكم الفرنسي كحامية للمسيحيين وراعية للبنان وكان القوميون العرب دائماً مستائين من سياسة لبنان المنفصلة ، ومن تحالفاته الغربية . وفي وقت ما بلغ شعور العداء للغرب في لبنان حد الإنفجار ، وغلى الحماس القومي ، ودفعهم إلى حد الحرب الاهلية . وفي هذه الظروف أظهرت الولايات المتحدة أنها غير مستعدة لتقبل الدور الذي أوكل اليها وشاهد العالم مشهد التدخل العسكري الأمريكي في لبنان بدهشة بالغة !! فلقد كانت غايته – إذا جاز لنا أن نحكم على النتائج – هو إزاحة حكومة موالية لأمريكا وإحلال حكومة أخرى أخف موالاة لها من الحكومة الراحلة . . وبالتالي أكثر قابلية للحياة !! والحق أن هذه الطريقة أحلت السلام وقطعت الطرق على قيام حكومة مناهضة لأمريكا . وأصبح هدف السياسة الغربية في الشرق الأوسط عملا صعباً وهو قيام حكومات لها قابلية الحياة ! على أن تكون استعداداتها العدوانية نحو الغرب . . . محدودة !! وبقيت هذه السياسة منذ ذلك الوقت حتى الآن: وهي تشجيع . . . بل خلق أنظمة حكم تعارض

أمريكا معارضة . . . معتدلة؛ والظاهر أن هذه الغاية هي الهدف الأساسي للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط .

أما سياسة إسرائيل الخارجية فمن الصعب تحديدها الآن لقصر مدة وجود إسرائيل . والواضح أن إسرائيل لا تتمتع بحرية المناورة كما يفعل جيرانها ، فعليها أن تحسب حساب الأقليات اليهودية الموجودة في سائر أنحاء العالم، وأن تحسب حساب العداء الدائم بينها وبين الدول العربية، وأن تقدر الموقف غير الودي، ! الذي يقفه الاتحاد السوفياتي منها، وعليها أن تخشى نتائج أي خطوة خاطئة أكثر من أي بلد آخر في العالم . والغاية الأساسية لسياسة إسرائل الخارجية هي . . . البقاء ! ! ، والمناقشات لا تدور إلا في حلقة . . . البقاء ، ولقد كان الاتفاق العام في إسرائيل أن بقاءها يعتمد على موالاتها للغرب. . . دون التورط بأحلاف ظاهرة .

أما تركيا وإيران فهما دولتان ذات سيادة قديمة وليس لهما إلا مسؤولية العمل على البقاء والرفاه؛ فبالنسبة للدولتين كان الاستقلال القومي حقيقة معترف بها . . . وهي عماد حياتهما السياسية، وليستا بحاجة لتأكيدها وبرهانها ؛ وعلى الرغم من مرور ظروف كان فيها استقلالهما مهدداً إلا أنهما لم تضيعا أبداً هذا الاستقلال ولم تكن مشكلة التحكم الأجنبي والتخلص منه موجودة تشل تفكيرهما السياسي كما تفعل في مواطن أخرى من العالم ؛ ولقد نمت وتطورت سياستهما الخارجية بعد فترة طويلة من التجارب الواقعية وهي موجهة

نحو بلوغ أهداف قومية محدّدة واضحة ومبنية على أساس من مزج التقاليد والدراسة !

غيرأن هاتين الدولتين تواجهان مشاكل داخلية خطيرة ؛ ولقد مرت تركيا في السنوات الأخيرة بتغييرات سياسية عنيفة . والملاحظ على كل حال ، أنه لم يكن لهذه التغييرات أي أثر واضح على سياسة تركيا الخارجية والتي بقيت تسير على أساس الحقائق الواقعة لتركيا : وضعها العالمي، و ورطتها فيه . ولم يكن لتغيير أمزجة الحكام في الداخل أثر على هذه السياسة مطلقاً .

وبكملة مختصرة : إن تركيا وإيران — الى حدما — تتمتعان بسياسة خارجية سهلة الفهم إذا نُظرإليها من زاوية العلاقات الدولية العامة السائدة في سائر أنحاء العالم . وعلى الرغم من أن هاتين الدولتين تشكلان قسما كبيراً من مساحة وسكان الشرق الأوسط فانهما لا تشاركان الدول الأخرى في المنطقة مشاكلها ومواقفها السياسية ؛ ولا ينظر إليها باهتمام كبير أثناء بحث هذه المشاكل والدول العربية دول حديثة الاستقلال — نوعاً ما — أما (الصفوة) السياسية في هذه الدول فقد استوعبتها لمدة طويلة معارك تحقيق الاستقلال ، والآن تقوم مشكلة ممارسة هذا الاستقلال ، وهو أمر يحتاج إلى إعادة النظر في الأفكار والمواقف ، وليس من السهل الانتقال من الأهداف العامة غير المحدودة في المعارضة الوطنية إلى الدراسة الواقعية المحددة في الحكم القومي ، ومن الصعب الآن أيضاً قبول فكرة الشكوى من الظلم والضغط والشرور الأخرى لأنها ستوجه إلى أبناء الوطن وأخوة العقيدة .

والسياسة الخارجية للدول العربية تهتم بأمور ثلاث : موقفها من اسرائيل وعلاقات بعضها ببعض ، وعلاقاتها مع العالم الخارجي أما بالنسبة للأمر الأول فالدول العربية مجمعة على أن اسرائيل يجب أن تزول ، ولو أنها لم تتفق بعد على طريقة إزالتها . أما مطالب الدول العربية الرسمية الآن فلم تعد القضاء رأساً على اسرائيل بل تعديل الحدود بتطبيق قرارات الأمم المتحدة في التقسيم ، والتي صدرت سنة ١٩٤٧ ، وهذه طبعاً خطوة أولى نحوهدف العرب النهائي في إزالة اسرائيل . ولما كانت اسرائيل ترفض بوضوح الخضوع الإختياري لبتر بعض أطرافها ، وكان العرب بمفردهم غير قادرين الآن على تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة فالمسألة تصل في الواقع إلى نقطة طلب فرض الحل بواسطة الدول الكبرى : أي نوع من « الجراحة » الإجبارية على مائدة مؤتمر من المؤتمرات حيث تقوم الأسلحة السوفيتية بتقديم « المشرط » أما الدبلوماسية الغربية فتقدم « المخدر » ! ولم يكن هذا الأمر منتظراً في الماضي . . . وهو أقل احتمالاً الآن . حتى ولو أن الأمر كان محتملاً : هل الدول العربية ياترى ترغب حقاً في عودة نفوذ الدول الكبرى إلى الشرق الأوسط ، هذا الأمر الذي سيحدث حتماً بعد فرض حل . . . أي حل ؟ ؟

وكان قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ أو بالأحرى فشل الجيوش العربية في منع إقامتها . . كان هذا حدثاً من أحداث الذروة في تاريخ الشرق الأوسط يشبه من عدة وجوه نزول القوات اليونانية في إزمير سنة ١٩١٩ ؛ فسيطرة (الفرنجة) كان أمراً صعباً على

النفوس . . . ولكنهم (أي الفرنجة) كانوا على كل حال أسياد العالم المنتصرين على أعدائهم في حرب عالمية . أما أن يخضع المسلمون لليونان أو لليهود – للذميين الذين كانوا أقل منهم مركزاً ، – فهو إهانة لا يمكن احتمالها ، والفرنجة . . . لا بد عائدون إلى بلادهم عاجلاً أم آجلاً ، أما اليونان فكانوا يحلمون بإعادة الإمبراطورية البيزنطية واليهود يحلمون بإعادة مملكة اسرائيل من النيل إلى الفرات والبقاء في المنطقة العربية أبداً . لقد كان الشعور الغاضب نفسه في نفوس الكماليين ضد اليونان وفي نفوس العرب ضد الإسرائيليين : أما الإختلاف بين الحادثتين فكائن فيما تطور الأمر إليه في تركيا والدول العربية ، فلقد ربح الأتراك الحرب . . . وخسرها العرب .

وما بين عام (١٩٣٠ – ١٩٤٥) كان المحور والحلفاء يغذون العرب بنداءات الإطناب والمدح ، وهذا ما شجع الميل على التركيز على عبادة ! ! الذات ، وهو ميل موجود في كل الحركات القومية وكانت الهزيمة العسكرية العربية في فلسطين على أيدي اليهود المكروهين ، صدمة عنيفة للعرب لا تقل في عنفها عن الإنهزامات السابقة التي أصابت المسلمين في القرنين الثامن والتاسع عشر وأدت إلى حركات الإصلاح والتجديد والتغيير .

وكان رد الفعل في هذه الصدمة سريعاً ، ففي مدة سنوات قليلة بعد عام ١٩٤٨ سقط جميع الحكـــام الذين كانوا سنة ١٩٤٨ وقتل عدد منهم ؛ ففي آذار (مارس) ١٩٤٩ أطاح رئيس أركان الجيش السوري الكولونيل حسني الزعيم بالحكومة السورية

بعد انقلاب عسكري وأسس نظام حكم عسكري ونصب نفسه رئيساً له . وكان هذا الإنقلاب الأول . . . في سلسلة من الثورات والتشنجات التي ازدادت عنفاً وكنَسَت أنظمة حكم الملوك والباشوات وملاّك الأراضي المحافظين ، وأطلقت قوى جديدة لم تحدد طبيعتها ، ولم يعرف اتجاهها بعد . ومن أهم الأهداف العاطفية الغالية للحركات العربية الجديدة : الوحدة العربية والتي تعني على الأقل ـ تعاوناً أوثق ـ وغايتها النهائية هي ذوبان الدول العربية كلها في دولة واحدة . وهناك اتفاق عام على الحاجة لاتباع طريقة ألمانيا وايطاليا في الوحدة التي قامت في القرن التاسع عشر ولكن الإتفاق لم يتم بعد على من سيلعب دور بروسيا ومن سيلعب دور (سافوي) .

وكــان المرشحان المتنافسان مصر والعراق ، ومنافستهما ـ بالرغم عن انقطاعها فترات معينة ـ بقيت لمدة طويلة مع تغير الحكومات والنظم في كلا الدولتين ، وكان للدول الكبرى حصة كبيرة في إذكاء نارها وتعقيدها من الجهتين .

وفي سنة ١٩٤٥ انتهت الحرب وظهر أن بريطانيا قد استقرت كقوة مسيطرة في الشرق الأوسط تدعمها قوة عسكرية كاسحة ونفوذ سياسي شديد . وكان يُظن أن موضوع الجامعة العربية هو وسيلة انكلترا لتوحيد المنطقة سياسياً ، وكان يقابل ذلك على الصعيد المحلي الإقتصادي ما يدخره الشرق الأوسط من إمكانيات ومصادر اقتصادية ، وكانت انكلترا وحدها ! ، فألمانيا وايطاليا أبعدتا عن المنطقة بعد الهزيمة ، وفرنسا أخرجت مطرودة ، وأمريكا لم تكن راغبة وروسيا كانت غير قادرة على أن تلعب الدور .

حتى إن الزعماء الوطنيين هدأوا لفترة من الزمن تحسباً من قوة المنتصرين وقدرتهم ، وكان قسم من هؤلاء الزعماء معرضاً للنقمة لميله أو صلاته مع المحور وقت الحرب ، فلم تكن الفرصة مواتية لهم للضغط بمطالبهم . وفي عشر سنوات من نهاية الحرب (لُغمت) بنية القوة البريطانية في الشرق الأوسط وَهزلت . . . ثم . . . تهدمت وتخلى الإنكليز بتأثير الهجمات من كل الجهات عن بعض مواقعهم موقعاً إثر آخر ،وخسروا البعض الآخر . ولم يعد الشرق الأوسط منطقة تسيطر عليها انكلترا . . . حتى أن الشرق الأوسط لم يعد منطقة لأي نفوذ غربي .

وكان هناك عدة عوامل أسهمت في تقلص وانسحاب القوة البريطانية . وأول هذه العوامل انسحاب الإنكليز من الهند سنة ١٩٤٧ وبسبب احتلالها للهند عمدت انكلترا للتدخل المباشر في شؤون الشرق الأوسط ، وبزوال هذا الإحتلال ضعفت الحاجة والوسيلة للفعالية الإنكليزية في المنطقة . والعامل الثاني هو فشل بريطانيا في حل قضية فلسطين وكان إنهاء الإنتداب البريطاني على فلسطين اعترافاً بالضعف وعدم المقدرة مما أثار وشجع المطالب والهجمات من كل جهة . وهناك بعض المراقبين يضيفون عاملاً آخر وهو عدم قدرة مخططي السياسة البريطانية في الشرق الأوسط على فهم القوى الجديدة التي كانت تنمو في العالم العربي وخارجه ، والإعتراف بها ومساعدتها مما أدى إلى كنس كل سند ونفوذ انكليزي في المنطقة . وفوق كل هذه العوامل والشيء الذي كان أكثر فعالية منها كلها هو أن قوة بريطانيا ومواردها قد استنفذت وأنهكت بعد حرب دامت

ست سنوات ضد خصوم أقوياء . ومنذ آذار (مارس) سنة ١٩٤٧ طلب ترومان الإذن من الكونغرس الأميركي ليعطي اليونان وتركيا المساعدات التي تحتاجانها والتي لم تستطع انكلترا أن تستمر في تأديتها للدفاع عن استقلال ووحدة هاتين الدولتين ضد الخطر الشيوعي في الشمال . ثم توسعت المساعدات الأميركية لتشمل ايران أيضاً ؛ وفي أواخر سنة ١٩٤٩ كانت أميركا تسعى لتلعب دوراً أوسع وأكثر نشاطاً في الشرق الأوسط كله . وجرى اجتماع للدبلوماسيين الأميركان في المنطقة باسطمبول في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٩ وترأسه مساعد وزير الخارجية الأميركية (جورج ماك غي) ولخص سفير أميركا في اسرائيل (جيمس ماكدونالد) ملاحظات وكيل وزير الخارجية الأميركية على الوجه التالي : « إن سياسة أميركا في الشرق الأوسط هي المساعدة على تنمية كل مصادر الدخل في المنطقة لرفع مستوى المعيشة ، وهدفها القريب من ذلك هو : ١ – تحويل خطر الشيوعية من الداخل ٢ – إبقاء الحدود الدفاعية (تركيا واليونان) مسلحة تدرأ أي عدوان سوفيتي من الخارج . لذلك فالشيء الأول والمهم هو أن الولايات المتحدة لا تستطيع بعد الآن أن تجلس في المقاعد الخلفية عند بحث شؤون الشرق الأوسط ، فالخطر الشيوعي يتزايد وبريطانيا لانشغالها – بمشاكل أخرى – غير قادرة بعد الآن على تحمل المسؤولية كاملة لحماية المصالح والمدنية الغربية في المنطقة ، وعلى الولايات المتحدة أن تحمل قسطاً أكبر من الأعباء لذا فلقد اتفقنا مع بريطانيا

كلياً على الأسس فكلا الدولتين لهما نفس الأهداف فيما عدا بعض البلاد حيث تكون المصالح الخاصة غير متماثلة تماماً وهذه هي فقط نقط عدم التماثل . ويبدو لي : أن هذا كان عدم تقدير دقيق للإنفراج الكبير في زاوية مصالحنا ومصالح البريطانيين . » .

وفي السنين التي تلت ظهرت الإختلافات بوضوح ، ولم تكن في الواقع خلافات بين واقع المصالح القومية للدولتين بقدر ما كانت اختلافات بين طريقتين في التعبير عن هذه المصالح ، والدفاع عنها . وفي سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٢ بلغت مصاعب بريطانيا أقصاها : فاغتيال الملك عبد الله في الأردن ، وأزمة البترول الايراني ، وجمود العلاقات المصرية البريطانية والتي تبعها رفض مصر للحلف الدفاعي الذي اقترحته الدول الغربية الكبرى ، وبعدها بقليل قام الصدام المسلح في منطقة قنال السويس وبلغ حده في معركة الإسماعيلية التي دامت خمس ساعات في الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ .

ويظهر أن السياسة الأمريكية في تلك الفترة وما بعدها ، بنيت على أساس الإعتقاد أن المشاركة القريبة لبريطانيا العظمى والإهتمام الزائد بمصالحها يشوه صورة أمريكا ، ويقطع الطريق على الأهداف الأمريكية ، وكان النقاش يدور على أن بريطانيا لا تزال موضع الريبة بالنسبة للعيون الإفريقية الآسيوية بالرغم عن تخليها الدراماتيكي عن امبراطوريتها في آسيا وافريقيا : فالعيون لا تنظر إليها على أنها

دولة مستعمرة (سابقة) بل دولة مستعمرة تحاول العودة إلى ممارسة الإستعمار . وأميركا نفسها كانت مستعمَرة قديمة وكانت الأولى التي نالت حريتها بعد ثورة ناجحة ضد الأمبريالية الإنكليزية ؛ لذا فالدول المستعمَرة الأخرى ستقلد أميركا في ثورتها وسترتبط معها برباط طبيعي من المودة والعطف .

وسرعان ما تبخرت فكرة قيام الشعوب الآسيوية الإفريقية بتقليد الثورة الأميركية في كفاحها للإستقلال وانتظامها جميعاً تحت زعامة أميركا ؛ وكان موقف الهند من الحرب الكورية وموقف السياسة المصرية بالنسبة لروسيا ، ومواقف أندونيسيا وغانا وغيرها . . كلها كانت أمثلة على تبخر هذه الفكرة . ولم تكن هذه الفكرة قط مقنعة وتستند على تحليل خاطئ جداً يعود إلى الحيرة والغموض . فالثورة الأميركية على كل حال ، قادها رجال انكليز اهتموا بالحقوق الدستورية للمواطن الإنكليزي ، ولم يقم بها الهنود الحمر ولم تكن نصراً ضد الإستعمار بل كانت نصراً نهائياً للإستعمار عندما استطاع المستعمرون الإحتلال والإستيطان وإقامة مستعمرة مثالية تمكنت من أن تعيش وحدها دون حاجة لمساعدات أخرى من الوطن الأم وليس من العدل — بل كان الإنحراف عينه — ما عمد إليه البعض من مقارنة المستعمرين الأميركان في القرن الثامن عشر بمجتمعات المستعمرين البيض في هذه الأيام غير أن ذلك أخف غرابة من مقارنتهم بالشعوب المستعمَرة في آسيا وافريقيا .

وقد يبدو أنه الظلم عينه اتهام أميركا بالإستعمار وهي التي لم تحاول مرة الإستيلاء على (بوصة) واحدة من أراضي الشرق الأوسط ؛ غير أن شعوب الشرق الأوسط غير مخطئة في رفضها اعتبار أميركا كشيءٌ مختلف عن اوروبا وغير ملطخة بماضي اوربا . فأميركا هي جزء من الرومانش والجرمان بروتستانت وكاتوليك المسيحية الغربية التي تمثل الغرب . . . التاريخي ، والتي كانت، لألف سنة ، عدواً للممالك الإسلامية ، ومصدراً للتأثير الجائح الذي هز العالم الإسلامي في الأزمنة الحديثة . فأميركـــا الآن هي زعيمة هذا الغرب ولا يمكنها التنصل منه فهي متصلة بـــه اتصالها بلغتها وثقافتها ودينها ومؤسساتها .

وما دام الخطأ في رفض التورط مع الغرب باقياً ، فمن المنطقي أن يبقى له نتائج حاسمة في السياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط وتجاه بريطانيا وفرنسا ولا يكون له نتائج ملموسة على سياسات دول الشرق الأوسط نفسها .

وبدأت آخر مرحلة لانسحاب الإنكليز في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٤ فبعد أسابيع قليلة من محادثات تشرشل — أيزنهاور في واشنطن عقدت اتفاقية مصرية — انكليزية تُيسر جلاء البريطانيين عن منطقة قنال السويس في مدة عشرين شهراً ؛ وبالفعل سُحبت ، آخر الفرق البريطانية في ٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٥ ؛ وكان من الواضح أن ترك الإنكليز لقاعدتهم في القنال بعد أن كانت لسبعين عاماً مفتاح عتبة القوة البريطانية في الشرق الأوسط ، إن لانسحابهم

هذا آثاراً مباشرة عميقة المدى . ولقد عُقدت آمال عريضة على هذه الإتفاقية ، وبولغ في التفاؤل . . . وفي التعبير عنه حتى قيل إن زوال آخر شكوى مصرية من الغرب ستفتح الباب لصداقة حقيقية ويصبح التعاون . . . أخيراً أمراً ممكناً ! .

وفي أُغمرة دهشة المتفائلين . . . خابت الآمال سريعاً ، وبدل أن تتحسن الأحوال العامة تدهورت بسرعة وبعد هدوء طويل على الحدود المصرية الإسرائيلية عادت المنطقة مسرحاً للإصطدامات المسلحة ، والتحسن المنتظر في علاقات مصر مع الغرب . . . لم يظهر أبداً ؛ وبعد أنحرر المصريون أرضهم وجدوا حرية أوسع في تبني الأهداف العربية والإفريقية . ولم تات محاولة الغرب لتشكيل حلف في الشرق الأوسط ، وإقناع مصر بالدخول فيه ، إلا إلى ردود فعل عدائية في مصر بلغت ذروتها في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٥ بتوقيع صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا ؛ وبضربة واحدة ، وضع الإتحاد السوفيتي نفسه موضع القوة والنفوذ في قلب الشرق الأوسط .

أما في تركيا وايران فقد رحبوا بالمساعدات الأميركية وارتضوا زعامة أمريكا . ولم تكن هاتان الدولتان بلدين مستعمرتين ، ولم تكن أمريكا بالنسبة لهما الرائدة الأولى في مكافحة الإستعمار ولكنها كانت زعيمة الغرب الجديدة فهي إذن المدافع الطبيعي عنهما ضد الخطر المعروف القديم . . . روسيا ! .

أما في البلاد العربية فلم يكن هناك تجربة ماضية للتوسع الروسي لذا لم يكن هناك رغبة للتفتيش . . . أو حتى قبول مساعدة غربية – أميركية كانت أو غير ذلك – ولم يدخل الحلف إلا إلى بلد عربي واحد هو العراق ولقد جُرّ إلى الحلف بواسطة حكومة غير شعبية ونظام حكم لا يمثل آمال المواطنين ، ولم يعش هذا النظام طويلاً بعد ذلك . ومما لا شك فيه أن ممالأة هذا النظام للغرب عجل في نهايته وكان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى الإطاحة به . وعلى ضوء ما نعرفه اليوم عن الإتصالات السرية التي أجراها نوري السعيد مع الألمان سنة ١٩٤٠ يمكننا أن نتصور مدى ! فاعلية ! ! ذلك الحلف ، لو قدر للنظام أن يبقى ويعرّض للتجربة . ومهما كانت المصلحة العسكرية الظاهرة للحلف ، فإن محاولة جر العراق لحلف دفاعي غربي كان خطأً سياسياً كبيراً . فلقد أثار في باقي البلاد العربية موجة من العداء وأدى مباشرة إلى مباحثات مع الكتلة الشيوعية ، ولقد فتح الباب لها ومهد الطريق الكولونيل عبد الناصر عندما اشترك في مؤتمر باندونغ للدول المحايدة في نيسان سنة ١٩٥٥.

وكان ذلك أول مؤتمر عالمي يحضره عبد الناصر ويبحث في أمور أوسع من سياسات الشرق الاوسط . كانت بداية . . . مريعة ! !

واهتمام الإتحاد السوفيتي بالشرق الأوسط ليس أمراً جديداً ، ففي اجتماع هتلر ومولوتوف في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٠ طلب الإتحاد السوفياتي موافقة ألمانيا على إقامة قاعدة سوفيتية عسكرية بحرية على البوسفور والدردنيل والإعتراف بالمنطقة التي تقع جنوب

باطوم وباكو باتجاه الخليج الفارسي كمركز لمطامح الإتحاد السوفياتي وهذا الأمر مدوّن في الوثائق الألمانية التي استولى عليها الحلفاء بعد الحرب .

وبعد مهاجمة ألمانيا لروسيا وُضعت هذه الخطط على الرف ، ثم عادت للظهور في أواخر الحرب عندما ظهر أن الظروف مواتية لتحقيقها : فايران كانت تعاني الإحتلال ، وتركيا معزولة بحيادها الطويل ، وروسيا ، جزء من الحلفاء المنتصرين . وفشلت المحاولة وقلبت الجمهورية الشيوعية التي أقيمت في أزربيجان ورفضت تركيا طلب إقامة قواعد عسكرية في بلادها ؛ وإذا استثنينا الإتفاق الذي فشل مع الدكتور مصدق في ايران سنة ١٩٥٣ ، لم يحاول السوفيت بعد ذلك التدخل على الصعيد الحكومي في شؤون الشرق الأوسط بل فضلوا البقاء على جوانب الملعب بانتظار (حتمية التناقض الرأسمالي ! !) الذي سيفتت بنية الشرق الأوسط اقتصادياً وسياسياً ويمهد الطريق بذلك للشيوعية ! وكانت روسيا تدعم من آن لآخر العناصر المخربة — حيث ترى ذلك مناسباً — للإسراع في إقامة هذا التناقض ! !

ولم تكن عودة روسيا سنة ١٩٥٥ للقيام بدور فعال في سياسات الشرق الأوسط أمراً مفاجئاً بحد ذاته . — ولقد كان توقيتها (ضربة معلم) — : فقد كانت الدول العربية منقسمة ، وغاضبة على العراق لممالأته للغرب ؛ وكانت مصر معادية للغرب ومزهوة بدخولها مجتمع الدول الآسيوية الكبيرة المحايدة ؛ وكانت العلاقات العربية الإسرائيلية في الحضيض ، وكانت سبباً في عدم اتزان الفكر السياسي

في المنطقة بصورة عامة؛ وكانت القاعدة البريطانية في القنال في طريق التفكيك والإنتقال إلى قبرص، وقبرص هذه كانت متوترة تهزها تناقضات عنيفة ،وهذا بدوره ألقى الشقاق بين تركيا واليونان الدولتين اللتين كان الحلف الأطلسي يعتمد على صداقتهما وتفاهمهما لدعم حدوده الجنوبية الشرقية .

وبدأ تحرك السوفيت على ما يظهر في نيسان (ابريل) عندما نشرت جريدة (الازفستيا) تصريحاً لناطق بلسان وزارة الخارجية السوفيتية ينعي فيه التدهور الذي حدث أخيراً في الموقف ويعبر عن رغبة الإتحاد السوفيتي في تنمية علاقات أوثق مع بلاد الشرق الأوسط . وفي ذلك الربيع والصيف الذي تلاه قامت نشاطات دبلوماسية قوية، ومن بينها تبادل الزيارات والبعثات مع عدة دول عربية .

ولقد توقفت محاولات تجاهل وإهمال التقارير عن صفقة سلاح بين مصر والكتلة السوفيتية في أواخر أيلول (سبتمبر) عند ما أعلنت الإتفاقية رسمياً ! !

والشيء البارز الذي كان ينذر بالخطر لم تكن صفقة السلاح نفسها بل موجة النشوة الفرحة التي استقبلت بها الصفقة في كل أنحاء العالم العربي؛وصوتت رأساً المجالس النيابية في سورية والأردن ولبنان على قرار تهنئة الكولونيل ناصر ،ورحبت كل الصحف العربية تقريباً بها وصفقت لها كثيراً؛حتى أن نوري السعيد نفسه اضطر إلى إرسال كتاب تهنئة وموافقة للزعيم المصري .

لم يكن رد الفعل هذا راجعاً للحب الخاص الذي يكنه العرب

لروسيا، ولا لرغبتهم في رؤية الشيوعية أو القوى السوفيتية منتشرة في الشرق الأوسط ، كلا فلقد قدر العرب فضل عبد الناصر في عمله هذا الذي عدّ صفعة على وجه الغرب وأعطت صفعة الكولونيل ناصر وما أعقبها من احمرار وغضب غير مجد في الغرب ، إحساساً دراميأ بالرضى المعبر عن رغبة مكبوتة — جمعت أكثر، إن لم نقل كل العرب — رغبة في التحرر من ربقة الغرب ورغبة في إذلاله واحتقاره والإنتقام منه .

يقول البروفسور كانتول سميث: لا يقدر أكثر الغربيين مدى عمق وشراسة الحقد الذي يكنه الجيل العربي الجديد للغرب .

كان في العالم العربي ساسة وحكومات يؤمنون بسياسة التعاون أو التحالف مع الغرب ؛ إلا أنهم كانوا يتبعون ذلك متجاهلين أو خادعين أو كابتين للمشاعر الشعبية ، وكانوا يفعلون ذلك وهم عرضة دائماً للإغتيال ؛ وعلى العكس من ذلك فقبول رغبات الروس لم تكن تعرض صاحبها لزوال شعبيته واغتيال شخصه وحتى هذا الوقت نرى أن التعامل مع الروس هو أقل ريبة من أي تعامل مع الغرب وبإمكاننا أن نشعر بوجود ميزانين دائماً بالنسبة للروس وللغرب في عدة أمور أخرى :

في السكوت المطبق والاسلوب المشبوه عند قبول هبات الغرب... وفي الترحيب الصارخ بالمعونة الروسية ، في القبول الهادى لتعنيف الروس والرد الغاضب لادق الملاحظات الغربية ، في الإستعجال الدائب لإزالة آخر قواعد الغرب بينما لا يُنْتقد بل ولا يذكر حُكم الروس لمناطق إسلامية واسعة في أسيا .

وعلى الرغم من التحسن النسبي مؤخراً لايزال الموقف بالنسبة للغرب موقف ريبة عميقة وعدم ثقة وعداء ، وكل تعاون مع الغرب يحتاج إلى تعليل وأعذار . . . وقد لا يحدث إلا مكتوماً ؛ أما التعاون مع روسيا فلا يحتاج لذلك . . . حتى بين القوميين المعادين للشيوعية وكان الغرب – من وقت إلى آخر – يصادف أو (يخلق) ! ! نظماً راغبة في التعاون معه على شرط أن يكون التعاون سراً وفي أضيق الحدود ؛ غير أن الصعوبة في هذا التعاون هي عدم ضمانته ، بالإضافة إلى أن نظام الحكم الذي يقوم بهذا التعاون هو : إما غير أهل للثقة أو غير ثابت الدعائم . . . وفي بعض الأحيان كان الأمران معاً موجودين : عدم الثقة به وعدم ثبات دعائمه .

لماذا يا ترى ؟؟ وماذا نستطيع أن نفعل ؟. . . هناك أجوبة عديدة لهذين السؤالين في شكل مشاكل خاصة وحلول مختلفة لهذه المشاكل يتحدث البعض برغبة ظاهرة عن الموضوع التالي : « لو حققنا فقط رغبات العرب لكان الأمر في غاية السهولة » ويعني هذا تحقيق رغبات العرب على حساب الأطراف الأخرى ، ويسمي المخالفون لهذا الرأي هذه السياسة بسياسة التهدئة ، ولهذه السياسة (متحولات) عدة يمكن إيجاز أكثرها في معادلة على هذا النمط « لو أخلى الآخرون الطريق لسرنا نحن والعرب في انسجام كامل » .

لِنَسْعَ نحن إذن أن نحثّ الآخرين على قبول المطالب العربية ؛

أما هوية (نحن) و (الآخرين) فبامكاننا تحديدها حسب أذواقنا : فعلى الصعيد القومي يمكن ذكر : أمريكا ، بريطانيا فرنسا ،

إسرائيل ، وعلى صعيد القطاعات يمكن ذكر : الدبلوماسيين ، الجنرالات ، أصحاب الأعمال ، الأساتذة ، أو يمكن ذكر أي شيء آخر حسب توجيه المصالح وسوء النوايا .

ولقد كانت (المتحولات) في المعادلة الأميركية التي لاقت واجاً في بعض الأوساط هي التالية : « لو لم يقم هذا التعاون السيء لحظ بيننا وبين استعمار أوروبا الغربية والصهيونية لقام « زواج شاعري » بين المصالح الأميركية والقومية العربية تكون الأخيرة فيه مستقلة وثابتة (ومتمنّعة) عن الآخرين وملبية بلطف .. للمتطلبات الأميركية . وإذا جاء هذا اليوم السعيد فستكون هناك قواعد للعسكريين ومعاهدات للدبلوماسيين ، وامتيازات لرجال الأعمال ، و(مراكز) للمبشرين .. كل ذلك في إطارٍ مضيء من الصداقة المتبادلة والنية الحسنة . إنها – فعلا – صورة جميلة غير أنها خيالية عجائبية أكثر مما هي واقعية تاريخية . ! !

إن أكثر العرب يضعون الصهيونية والاستعمار في الدرجة الأولى كأسباب عدائهم للغرب والحقيقة أن الاثنين مكروهان كرهاً شديداً ، إلا أنهما لا يشكلان تفسيراً كافياً لمزاج العرب وانزعاجهم .

إن الكتلة الشيوعية صوتت بجانب قرار هيئة الأمم لإقامة إسرائيل وقبولها في هذا المحفل الدولي . واعترف الاتحاد السوفييتي بإسرائيل ... في يوم مولدها ، وأرسلت تشيكوسلوفاكيا سلاحها

الذي أنقذ إسرائيل من الاختناق ... وهي في المهد ؛ إلا أن ذلك كله لم يترك أثراً ظاهراً من كره أو سوء نية ضد روسيا ؛ وعلى كل حال فالأمر يتعدى العالم العربي واهتمامهم الخاص ، هناك دول كثيرة في آسيا وافريقيا تطبق الميزان المزدوج في علاقاتها بروسيا وبالغرب علماً بأنها ليست لهـــا أية صلة بقضية فلسطين ، ، ، بل . . . يحتفظ بعلاقات صداقة مع إسرائيل .

هل القضية إذن هي الاستعمار ؟، والصهيونية — في أعين العرب — مظهر من مظاهر هذا الاستعمار ؟ هذا لا شك يجعلنــا أقرب إلى جذور الموضوع ، فكراهية الاستعمار هي ولا شك إحدى أكبر القوى المؤثرة في العالم العربي اليوم ، ولكن في هــذه الحالة لماذا تشمل هذه الكراهية أميركا التي لم تحكم أي جزء من الشرق الأوسط ويستثني روسيا التي لا تزال تسيطر — وبدون لطف ونعومة دائمة — على مدن آسيوية إسلامية عريقة مثل سمرقنــد وبخارى وكثير غيرها ؟ ويمكننا أن نطرح نفس السؤال في بلاد كثيرة في آسيا وإفريقيا خارج نطاق العالم العربي .

سنكون لا شك أقدر على فهم الموقف إذا لم ننظر إلى عدم الرضى القائم في الشرق الأوسط على أنه تناقض بين دول أو شعوب بل على أنه صدام بين حضارتين ، « فالمناظرة الكبرى » كما سماها « جيبّون » بين المسيحية والاسلام لا تزال قائمة بشكل أو بآخر ، منذ القرون الوسطى ، ففي المئة والخمسين سنة الماضية كان الإسلام تابعاً لحكم

الغرب ، الأمر الذي خلق للمسلمين ولا يزال يخلق حتى بعد زوال السيطرة السياسية للغرب ، مشاكل ضخمة لإعادة تكييف حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة والثقافية والنفسية على صعيد علاقاتهم مع الآخرين ، فالعربي الذكي الحساس لا يستطيع – حتى بعد زوال الاحتلال – تجاهل تابعيته الفكرية والثقافية للغرب ، .

فأغنى مصادر ثروته هو البترول إلا أن الذين وجدوه واستخرجوه هم الغربيون بخبرائهم ومعداتهم ليخدم حاجات الاختراعات الغربية ، ومن أهم مايفتخر به العربي الجيش ، والجيش يستعمل سلاح الغرب ويرتدي الثياب العسكرية على الطراز الغربي ويسير على ألحا الموسيقى الغربية . وأفكار العربي وإيديولوجياته – حتى الإيديولوجيات الثورية المناوئة للغرب – جاءت إليه من أفكار الغرب ؛ ومعلوماته – حتى تاريخ أمته وحضارتها – يعود الفضل في أكثرها للباحثين الغربيين ، وكتّابه وفنانوه ومهندسوه وفنّيّوه . . . وحتى خياطوه يشهدون بعملهم – على استمرار سيطرة المدنية الغربية : المنافس والغازي قديماً ، واليوم النموذج للمسلم[1] حتى لباسه وعدته ووسائل رفاهه اليومية هي رمز لتعلقه بحضارة أجنبية مسيطرة ، وهو يكرهها ويعجب بها ! ويقلدها ولكنه لا يستطيع المشاركة فيها ! إنها تجربة مذلة أصابت كرامته بجرح غائر عميق .

---

(١) حتى روسيا النوذج . . . البديل ، هي ، من نواح عدة ، مقلدة سابقـة ناجحة للغرب . المؤلف

وفي عالم الأقاصيص والأساطير الشعبية الشرقية يُصوّر الغرب على أنه مصدر كل شر، والغرب وحده واحدة، أما تقسيماته فهي غير مهمة بالنسبة لابن الشعب في الشرق الأوسط مثلما هي تقسيمات الشرق الأوسط بالنسبة للمواطن الغربي العادي؛ والدول ذات السيادة القديمة مثل تركية وإيران بَنَت سياسة خارجية على أساس المصالح القومية والدراسة المنطقية

أما السياسات العربية فلا تزال تحت رحمة الأمزجة العرقية والجماعية الشعبية التي تعامل الغرب كله على أساس أنه عدو (جماعي) .

ولقد نجح الروس، حيث فشل الأميركان، وذلك عندما قدموا انفسهم للعرب على أساس أنهم يختلفون عن الغرب . إنهم نجحوا إلا أنهم فعلا مختلفون عن الغرب . . أما أمريكا . . . فلا . فأمريكا ـ شاءت أم أبت ـ جزء من الغرب ولقد أصبحت اليوم في مركز الزعامة منه . وروسيا ليست جزءاً من الغرب بل على العكس تعارض الغرب إيديولوجياً واقتصادياً وسياسياً، وتختلف عنه في أسلوب حياتها وفي الشؤون العالمية . ولهذا السبب فقط يمكن لروسيا أن تكسب عطفاً ودعماً مثلما كسب النازيون قبل جيل مضى . . . وربما كسب الروس العطف من نفس الأشخاص الذين وهبوه للنازيين فيما مضى . وحتى هذه الأيام نرى أن ذكرى هتلر هي التي تجعل العرب يميلون للشعب الألماني بعواطفهم وشعورهم، وهذا

ماشاهده رجال الاقتصاد الألمان الذين زاروا الشرق الأوسط ووجدوا هذا العطف مناسباً . . . تجارياً ، ومُحرجاً . . . معنوياً ! !

وعلى العموم إن الذين التفتوا في الماضي إلى برلين . . . يلتفتون اليوم إلى موسكو على أساس أنها القلعة الجديدة المناوئة للغرب .

ولقد قام الاستعمار الروسي في مناطق بعيدة عن الأراضي العربية وبأشكال غريبة عن الشعوب العربية التي عرفت الامبراطوريات البحرية التجارية الليبرالية في الغرب . لذا فقد مر الاستعمار الروسي دون أن يلفت نظر الشعوب العربية حتى في الأوساط المثقفة التي تخشاه ، لم تكن له الصدمة العاطفية التي أثارها الاستعمار الغربي الذي كواهم بناره ؛ ولقد استغل الروس نقص المعلومات عنهم واستفادوا منه في دعاياتهم . ولقد قام انتقاد هام للروس في الأعوام الأخيرة إلا أنه محدود الطابع ، وهو يصف الروس بأنهم مثل الأميركان جماعة من الأوروبيين المتخفّين . . . وامتداد آخر للغرب . . . التاريخي .

ولقد خلق تأثير الغرب في أرض العرب مشاكل حقيقية وذلك باقتلاعهم من قواعدهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبإثارته لمركب النقص الثقافي فيهم . وهذه . . . على المدى الطويل أمور أهم بكثير من المواضيع السياسية الخاصة المختلفة ، في خلق شعور النفور وعدم الرضى ؛ إلا أن هذه المواضيع ليست سهلة

الصياغة والنقاش على الصعيد السياسي ، خصوصاً في بلاد لم تعهد تقاليدها مثل هذه المناقشات .

ولا يمكن أن يلقى اللوم على مذنب بعينه . . . فتسميته والتعرف إليه والتشهير به لذلك تصبح المواضيع السياسية الظاهرة الدريئة (والمحرّق(الذي تنصب عليه النقمة لإظهار مشاعر العداء للغرب، وليس من السهل معرفة ماإذا كان الموضوع هو السبب المثير أو هو المخرج الذي ينفس عن هذه الثورة، هل هو سبب التوتو أم أنه طريق لتصريف هذا التوتر ؟ ولقد دلت الأحداث في السنوات الأخيرة على أن كشف الأقنعة (في المسرحية السياسية) زاد التوتر ولم يخفف منه ! ! !

وعلى ضوء هذه الاعتبارات من عدم الاقتناع بإمكانية أو جدوى تهدئة فعلية، قام البعض يدعو لسياسة معاكسة باتخاذ موقف حازم معارض أو على الأقل بعدم الاهتمام بالقومية العربية، وهناك من يحاول دعم هذا الخط السياسي بترديد مقاطع استعماريةفولكلورية مريبة من أمثال: «القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب »! ! صحيح أن العرب يفهمون القوة وربما اقتنعوا بها في بعض الأحيان .. إلا أنهـــا ليست الشيء الوحيد الذي يفهمونه ! ! وكان الشكل المتطرف لهذه السياسة هو حملة السويس الفاشلة سنة ١٩٥٦ ،وهناك من يضيف موقف دالاس المتسرع في تموز من نفس العام برفض الطلب الذي قدمته مصر لتمويل السد العالي ؛ وموقف فرنسا

اللامبالي البارد بالنسبة لعرب المشرق إبان الحرب الجزائرية . هناك من يضيف هذين الموقفين كأمثلة اخرى للسياسة المتطرفة وهناك مثل آخر لسياسة الشدة وهو فرض ودعم حكومات موالية للغرب دون الاهتمام بمشاعر الشعب .

ودَعنا الآن من القيم الأخلاقية التي يجب أن يقام لها وزن في الموضوع ، ولنسأل أنفسنا هل سياسة القوة هذه ممكنة أو مرغوبة ؟ وماهي نتائجها ياترى في آسيا وافريقيا . . . وحتى في أوروبا وأمريكا ؟ هل هناك حلاّن لا ثالث لهما : سياسة التهدئة وسياسة السيطرة ، هل نستمر في معاملة العرب كأطفال (مدللين) يستحقون إما الضرب والحبس في غرفهم ، أو إغراقهم بالحلوى والفطائر ! ! ليسكتوا ويهدؤوا ؟ أليس هناك طريقة للوصول إلى علاقات منطقية طبيعية تبنى على التقدير الواقعي لمصالح وحاجات وظروف الطرفين ؟

يقول البعض أن أزمة الشرق الأوسط غير ناشئة عن صراع بين دول ، بل عن صراع بين مدنيتين ، ولا يمكن أن يكون للمدنية سياسة خارجية ، أما الحكومات فواجبها إيجاد سياسة خارجية ، والغرب يواجه في الشرق الأوسط مشكلات طارئة . ونسمع — مراراً — من يردد : يجب أن نتفاهم بأسلوب ما مع القومية العربيـــــــــة ! . .

وهنا أود أن أعرض الإقتراحات التي أظنها — شخصياً — الأوجه

الأساسية للموقف الحاضر في البلاد العربية ، والإعتبارات التي يجب أن تحدد (صيغ) السياسة الغربية تجاهها .

منذ سنة ١٩٥٥ لم يعد الشرق الأوسط منطقة نفوذ خاصة بالغرب وليس من المحتمل عودته إلى ذلك . وبسبب مئة وخمسين عاماً من النفوذ الغربي والسيطرة ، وبسبب ردود الفعل ضد زعامة الغرب في كل ميدان من ميادين الجهد الإنساني ، أصبح موقف العرب من الغرب بصورة عامة موقفاً عدائياً .

وبالمقابل فإن موقف العرب من روسيا كان محايداً لأن سجل علاقاته السابقة معها لم تشبه شائبة . وعلى هذا الأساس فإن أي منافسة على مركز القوة والنفوذ إذا استعملت روسيا والغرب نفس الأساليب السياسية والإقتصادية ، ستكون حتماً لصالح روسيا لأن لها مبدئياً رصيداً نفسانياً كبيراً ، وتقوي ذلك وتدعمه أساليب روسيا المعتادة المفهومة الحازمة ونموذج نظامها السياسي بمقارنته بالأساليب الديموقراطية الغربية التي لم يعتدها . . . ولم يفهمها عدد كبير من العرب .

وكلما انخرط الروس في مشاكل الشرق الأوسط كلما خسروا من المزايا المبدئية التي كانت لهم وصادفوا بعض الشكوك والكراهية والخيبة التي اعتادها الغربيون الذين سبقوهم في هذا السبيل ، ولا تحتاج مصالح الغرب بالضرورة لقطع هذا التفاعل التربوي المتبادل بين الروس والعرب .

إن البلاد العربية تمر بأزمة تاريخية عميقة تسبب فترة من عدم

الإستقرار الإقتصادي والإجتماعي والسياسي وقد يستغل الشيوعيون هذه الأزمة غير أنهم لم يخلقوها .

وفي نظر العرب أن الغرب هو سبب الأزمة ــ وهذا صحيح إلى حد ما ــ ويمكن التفتيش عن أصلها في النتائج المفككة التي أثارها « التغريب » في المجتمع الإسلامي المحافظ . وعلى الرغم من أن التحول كان على أيدي مسلمين (متغربين) يحملون نفس القدر من مسؤولية الحكام الغربيين ، إلا أن بدء « التغريب » كان بإثارة ودفع الغرب . ومشاعر الغضب التي نتجت عن ذلك هي التي لونت موقف العرب تجاه الغرب ، وتجاه أي مشروع أو اقتراح يصدر عنه . ومن الأسباب المساعدة التي سببت العداء للغرب : قيام اسرائيل واستمرار النفوذ الغربي في بعض بقاع العالم العربي .

هناك ظواهر تدل على أن أزمة العداء للغرب تمر الآن بذروتها وهناك حاجة ماسة للحيطة حتى لا تثار أية انتكاسة ! !

لقد فشلت السياسة البريطانية في الشرق الأوسط عندما كُشف الضعف البريطاني وكُشف معه عدم وجود الدعم له . أما قوة وغنى الولايات المتحدة فلا تزال تفعل فعلها وستصل إلى بعض النجاحات السياسية المبدئية . . . حتى ولو أنها كانت سياسات غير حسنة التوجيه وبطبيعة الأمر لن تحظى هذه السياسات بنفس الرعاية التي ينالها من يغامر بشجاعة وقوة أكبر .

والحل الطبيعي السليم للأزمة العربية لا يتأتى إلا من العرب أنفسهم والتدخل الخارجي ــ غربياً كان أم شرقياً ــ يؤخر هذا الحل بتحويل

انتباه العرب إلى مشاكل ومغامرات سياسية ، وبذا يعرقل قيام سياسة عربية بناءة على مستوى الدولة .

وإلى أن يبلغ العرب هذا الحل فإنه يمكن للغرب أن يسهم ايجابياً في دعمه وذلك عن طريق المساعدات الفنية والإقتصادية التي تؤمن الربح للمقرض ولا تنتقص من استقلال وكرامة المقترض وحريته في العمل . وهذه المساعدات يجب أن تكون فقط للتنمية الإجتماعية والإقتصادية وليست للمغامرات السياسية والعسكرية ! ! ويجب أن تكون الأهداف القريبة والبعيدة لهذه المساعدات الإقتصادية تحسين المستوى الإقتصادي وبالتالي السياسي ، لا لتدعم أية سياسة أو نظام حكم معين ! وأفضل شيء نأمله — كهدية — هو أن لا يزيد تحدي « المقرضين » إلى درجة يقطعون معها العون والمساعدة . . . حتى يأتي اليوم الذي لا تحتاج فيه تلك الدول للمساعدة . ويخدع الغربيون أنفسهم إذا انتظروا أو أملوا في أي دعم سياسي أوعسكري مقابل هذه المساعدات ؛ وأية محاولة لضمان ذلك مقضي عليها بالفشل على الرغم من أن المنطق يقضي بإشارة — ولو رمزيـــة — للعرفان بالجميل .

وعمر اسرائيل اليوم خمسة عشر عاماً ولقد اعترف بها بصورة عامة ، واستمرارها كدولة ! ! مستقلة أصبح أمراً مقرراً ! ! في السياسة الدولية القائمة ، ولقد بدا أن بعض العرب — ولو بدون

رغبة ـ بدؤوا يقبلون ذلك (١) وعلى الرغم من عدم وجود أي حل مرتقب للمشكلة العربية الإسرائيلية فإن إخراج المشكلة من ساحة الصراع الدولي يقرب هذا الحل .

ومن الأمور البديهية الأولية الضرورية لحل الأزمة العربية لصالح العرب هو المحافظة على الحياد السياسي لبلادهم وهذا يعني حياداً حقيقياً لا استغلالاً لمنافسات الدول الكبرى في سبيل مصالح سياسية أو غيرها .

ونظراً لشلل الغرب في البلاد العربية فمن مصلحة الغرب ايقاف الحرب الباردة في المنطقة ، وهكذا تتلاقى مصلحة الغرب مع مصالح العرب الحقيقية ، وهذا لا يعني بالتالي تلاقياً مع سياسات حكومات عربية . . . بعينها .

وقد يكون من مصلحة الإتحاد السوفياتي أيضاً أن يضيق حدود الخلافات في المنطقة لأن المنطقة في نموذج سياساتها الداخلية ودورها في السياسة الدولية تشبه شبه جزيرة البلقان في أوائل القرن العشرين . . . حيث يحتمل قيام تقلبات عدة ضد سياسة ومصلحة الروس .

الإتفاق مع القومية العربية أمر حسن — إذا كان ممكناً — ولن يتم اتفاق دائم إذا اتفق مع الزعماء القوميين لأن مركز هؤلاء عرضة للزوال ، والواقع أن الخطر في خسارة اتباعهم يبدأ عند . . . . .

---

(١) لا يقبل بقاءها إلا الساسة المحترفون . والذين يتاجرون بالعقائد ، ولن يطول الأمد في الشرق العربي بالساسة المحترفين ولا بالذين يتاجرون بالعقائد . فإسرائيل أجهضت ... شاذة ... لتموت ... قريباً ، ومن يقول « إن إسرائيل خلقت لتبقى » يجهل منطق العلم والتاريخ ويجهل العقيدة التي تسير جماهير الشرق الإسلامي (المترجم)

اتفاقهم مع الغرب ، ومن الصعب الوصول لشروط محددة مع حركة تمثل مزاجاً أكثر مما تمثل برامج .

ليس من الممكن . . . سحق المعارضة العربية كلياً . . . ولا التسليم الكلي بكل مطالبهم ! ! ! واستعمال إحدى الطريقتين منفردة . . . لن تؤدي إلى تقدم مصالح الغرب في العالم العربي .

مادامت الحرب الباردة مستمرة فعلى الغرب أن يحفظ حداً أدنى من المراكز في العالم العربي ، وبالقرب منه ، للدفاع عن نفسه (١) ويجب أن تكون هذه المراكز في أضيق حدود ممكنة ! ! بالإضافة إلى اعتبارها مصلحة مشتركة لكل الحلفاء الغربيين .

ومن ناحية أخرى يجب على الغرب أن يفخر بابتعاده عن السياسات العربية وعلى الأخص عن السياسات بين الدول العربية نفسها ، وإذا كان الغرب مقيداً بشرفه (! ! !) وبمصلحته الذاتية لمساعدة الذين وضعوا ثقتهم به ! ! فعلى الغرب أن لا يفتش أو يحاول خلق حلفاء جدد من العرب وعليه أن لا (يغازل) ولا يخيب آمال الحكومات العربية ، وهذا الموقف لا يسيء للعلاقات التجارية . . . وربما ينفعها

---

(١) هذا كلام المستعمرين الدائم ومنطقهم الأعوج ، ومن قال لحكاتب الفاضل إن العالم العربي ميدان مفتوح للغرب يقيم عليه ما يشاء من قواعد عدوانية لحماية أهدافه ومطامعه .

وهي أكثر أهمية للعرب (! !) من أهميتها للغرب ! ! ! [1]

وبعد فترة من الزمن قد يطرأ تحسن على العلاقات بين الغرب والعالم العربي ؛ والصداقة الحقة لا تقوم . . . إلا عندما تكون القومية العربية مستعدة للتفاهم مع الغرب ! ! ! .



---

(١) هل يجهل الكاتب الفاضل أن الغرب بحاجة لأسواق الشرق الأوسط بالذات ، أما حاجة العرب للاستيراد فهي ليست محدودة بالغرب فقط ، والعلاقات التجارية بين الغرب والعرب تهم الغرب أكثر بكثير مما تهم العرب . (المترجم)

الفهرس

